

المركز القومي للترجمة



10.6.2015

القضية

فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر



ميراث الترجمة

1344

القضية

@ketab_n

تأليف : فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم : مصطفى ماهر



القضية

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣٤٤

- القضية

- فرانتس كافكا

- مصطفى ماهر

- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :

Der Process

von Franz Kafka

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ، ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

Twitter: @ketab_n

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

كافكا، فرانتس، (١٨٨٣-١٩٢٤)

القضية / تأليف: فرانتس كافكا؛ ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر؛

القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩

٣٠٠ ص ؛ ٢٠ سم

١- القصص الألمانية

(أ) ماهر، مصطفى (مترجم ومقدم).

٨٣٣

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٠٣٠٧

الترقيم الدولي 8 - 253 - 479 - 977 - 978 L.S.B.N.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقدمة

بقتام: دكتور مصطفى ماهر

يرجع الفضل في التفكير في التعريف بفرائس كافكا وأعماله إلى الأديب والناقد الكبير الزميل الأستاذ محمود أمين العالم ، فما ينبغي أن أبدأ هذه المقدمة الموجزة إلا بالتنويه بهذا الفضل ، وبرده إلى صاحبه . ولقد حثني الأستاذ محمود أمين العالم لا على ترجمة أعمال كافكا فحسب ، بل وعلى الكتابة عن كافكا أيضا . واعتقد أنني أستطيع أن أقول اليوم أنني بدأت السير في الطريقين معا ، فقد كتبت لمجلة «تراث الانسانية» مقالا مفصلا تسببا تعرضت فيه لجوانب من حياة كافكا وأفكاره وأعماله ولرواية «القضية» بصفة خاصة ، وأقدم اليوم هذه الترجمة الكاملة الأمينة الدقيقة لرواية «القضية» التي تعتبر من أشهر أعمال كافكا ، أن لم تكن أشهر أعماله كلها . ولست أريد أن أكرر في هذه المقدمة ما سبق أن كتبه في المقال المذكور ، ولهذا فأنني أحيل القارئ إليه ، وأكتفي بتلخيص لوفائع حياة كافكا وأعماله انتقل منه إلى تأملات أخرى في «القضية» لم أعرض لها في مقالي .

لابد للكاتب النصف الذي يتعرض لتصوير حياة فرائس كافكا وأفكاره أن ينبذ الكثير مما كتب عن الأديب العظيم ، ويتمسك تمسكا لا هوادة فيه بانسانيته ، تلك الانسانية التي جعلت منه عنصرا أساسيا

من عناصر الثقافة في القرن العشرين في كل البلاد ، بالشرق والمغرب. تلك صورة لامحيص عنها، لأن نفرا من المتأدبين المفرضين من اليهود وغيرهم قد نشبوا اظفارهم في كافكا وأعماله ، فنبهوها نها ، أو حرفوها في نصها أو تأويلها ، واستحوذوا عليه استحواذ الطائر الكاسر أو الحيوان المفترس على الفريسة ، متعللين بأن فرانتس كافكا من أبناء جلدتهم ، وهو في كل سطر من سطور أعماله العامة والخاصة يتبرا منهم .

ولد فرانتس كافكا في مدينة براغ في الثالث من شهر يولية عام ١٨٨٢ ، ولم تكن براغ في ذلك الوقت عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، لأن الجمهورية التشيكوسلوفاكية لم تنشأ الا بعد الحرب العالمية الأولى . كانت براغ في ذلك الوقت تجمع بين مجموعتين من البشر ، مجموعة تتكلم اللغة التشيكية وهي المجموعة الكبيرة ، ومجموعة تتكلم اللغة الألمانية وهي المجموعة الصغيرة التي لاتصل الى عشر العدد الكلي للسكان . وكانت تلك المجموعة الألمانية تعتبر هي الطبقة الرفيعة التي تجتذب الانظار اليها . وقد اجتذبت أنظار والد فرانتس كافكا ، الذي كان تشيكي الأصل - اعتبارا للغة - فسعى الى تحقيق الصعود الاجتماعي عن طريق الاندماج في هذه الطبقة ، باصطناع لغتها وثقافتها وأسلوبها . وانما سعى الأب الى ذلك لانه كان من أصل وضيع ، كان ابن جزار اقير يسمى بالذبائح الى الزبائن ويعتمد على اولاده في هذا السعى .

وانتقل هرمن كافكا ، أبو فرانتس (وكلمة كافكا كلمة تشيكية معناها غراب أو نحو ذلك) ، الى المدينة، الى براغ، وتزوج واحدة من بنات الطبقة الألمانية الغنية واحترف التجارة ، وأصاب منها ثراء غير قليل . ولكن الحياة التي أتاحتها لأولاده ، وفرانتس خاصة كانت حياة ثقيلة ، عسيرة ، تفتقر الى الاعتدال والاستواء ، فنشأ

الابن ثائرا على أبيه وعلى أفكاره ، قليل الصلة بأمه ، التي كانت مضطرة الى الذهاب الى متجر زوجها للحيلولة بينه وبين الاصطدام بالعمل . ويبدو أن فرانتس ورث شيئا من العصابية عن أفراد غير أسوياء ، كانت الأسرة من جانبيها تفص بهم . وهكذا أصبحت السمة الغالبة على شخصية فرانتس كافكا سمة الهروب الى الأحلام التي مالبت أن اتخذت صورة القلب الفنى ، وامتلا هذا القلب الفنى بمواد مختلفة أهمها مادة الخوف ومادة السعى الى الإصلاح .

وتعلم فرانتس فى المدرسة الألمانية ببراغ فاتمها فى عام ١٩٠١ وفكرافى دراسة الفلسفة ولكن اباه حال بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة ، ووجهه الى دراسة القانون حتى يصبح موظفا مرموقا فى الحكومة . وهكذا درس القانون ، وان اهتم الى جانب محاضراته بمحاضرات أخرى فى الفلسفة وعلم النفس وتاريخ الفنون . وفى عام ١٩٠٦ حصل فرانتس على الدكتوراه فى القانون وأمضى عامافى التدريب بالمحاكم ، فلم أتمه اشتغل فى « شركة التأمينات العامة » ، وانتقل منها فى عام ١٩٠٨ الى العمل فى « مؤسسة التأمين على العمال ضد الحوادث » وظل بها يترقى الى أن وصل فى عام ١٩٢٢ الى منصب سكرتير أول المؤسسة ، حيث اضطر بسبب المرض الى الاستقالة . ولم يكن هذا المرض سوى السل الذى ظل يشتد حتى فتك به فى الثالث من يونية عام ١٩٢٤ وعمره يقل عن ٤١ سنة بشهرواحد .

ويلفت النظر فى حياة فرانتس كافكا انه كان قليل الترحال ، فقد لزم براغ ولم يغادرها الا بعد المرض للاستشفاء خاصة ، ويلفت النظر بعد ذلك انه كانت شديدة الحيرة لا يستطيع أن يقرر الزواج والاستقرار ، رغم تكرار اعلانه خطبته على هذه أو تلك من البنات وقد عرف كافكا الحب فى علاقته بفيليتسه باور التي التقى بها فى

عام ١٩١٢ وخطبها مرتين دون وصول الى زواج . وعرف امرأة أخرى هي جريته بلوخ ، كانت صديقة لفيليتسه باور ، وثالثة هي يوليا فوريتسك التي أوشك في عام ١٩١٩ على الزواج بها ولم يردده هذه المرة إلا تأكد إصابته بالسل الرئوي ، وكذلك كانت له علاقة وثيقة بامرأة تشيكية مطلقة هي ميلينا يزينسكا ، هامت به هيأما يقوم على الإعجاب ، واضطره المرض الى ردها . أما آخر صديقة اتخذها فكانت دورا ديامنت التي عاشت معه أحلك أيام حياته من عام ١٩٢٣ الى ١٩٢٤ بقى برلين الى أن مات فكانت بجواره . على أن موقف فرانتس كافكا من المرأة كان موافقا يجمع بين الميل والاعراض والاحتقار ، أما الاعراض فربما كان سببه إفتقاره في طفولته الى حنان أمه التي تركته لرعاية المربية او الطاهية ، وأما الاحتقار فسببه ، كما ورد في يومياته وخطاباته ، علاقات منفرة سمح لنفسه بها مع بعض العاهرات .



يبدو أن إفرانتس كافكا بدأ يعالج الكتابة باهتمام خاص منذ عام ١٨٩٧/١٨٩٨ وما زال يقيم عليها حتى اعتبرها بعد قليل اهتمامه الأول ، الذي تصيبه التعاسة كل التعاسة اذا انصرف عنه . على أن عام ١٩١٣ هو العام الحاسم في نشاطه الأدبي ، فقد بدأ فيه إنتاجه الضخم . كان في الفترة من عام ١٩٠٨ الى ١٩٠٩ قد نشر إلى مجلة « هيبريون » قصصا هي : الأشجار - الثياب - الطرد - التاجر - تطلع نائه - الطريق الى البيت - العابرون - المسافر - أجزاء من وصف معركة . وبدأ في عام ١٩١٣ ينشر اما في دار رواقولت أو في دار فولف ، الأعمال التي ظهرت له أثناء حياته : تأمل - العطشجي - التحور - الحكم - في معسكر العقاب - طبيب ريفي - فنان جائع .

أما أعماله الكبيرة فلم تظهر إلا بعد وفاته ، وقد حفظ مخطوطاتها بعض الأصـدقاء على الرغم من أن فرانتس كافكا كان قد أوصى بإعدامها ، لأنها - على الأرجح - لم تكن فى نظره مكتملة . والعلماء والنقاد يشكون فى الطبـعات التى ظهرت بعد موت كافكا ألوانا من الشك ، كبيرة وصغيرة . أما هذه الأعمال فهى : القضية - القصر - أمريكا - عند بناء سور الصين - أمام القانون . وقد ظهرت مؤلفات كافكا الكاملة أكثر من مرة ، وزادت فى السنوات الماضية بظهور اليوميات والخطابات ، ومن الخطابات ظهر مجلد ضخـم هذا العام - ١٩٦٧ - يضم رسائل كافكا الى فيليتيه باور .

الرواية فى تصور كافكا تدور فى مجموعها وسط اطار من الحلم او الخيال او اللاواقع وتقوم فى عناصرها ووحداتها على الواقع ، انها قالب من اللاواقع مضمونه الواقع . والانسان يحتل من مؤلفات كافكا مكان المركز ، او بعبارة أخرى مؤلفات كافكا عبارة عن محاولة لدراسة الانسان فى وسط البيئة ومؤثراتها المختلفة ، محاولة دراسة أعلى درجة من محاولات المدرسة الطبيعية التى كان جل همها مركزا على البيئة ومؤثراتها بالمعنى المعروف فى العلوم الطبيعية ، ونقول أعلى درجة لأن كافكا أضاف الى هذه المؤثرات مجموعة المؤثرات النفسية ، وأبرزها الى مكان الصدارة . ومنادات نية الكاتب هى الدراسة على هذا النحو ، فمن الطبيعي ان تكون الأشخاص من قبيل « الحالات » المريضة ، الحالات غير السوية غير المتكيفة مع البيئة . وهذا هو الواقع الذى نلقاه فى ادب كافكا . ادب كافكا يدور حول الانسان الذى اثرت عليه البيئة النفسية غير السوية ، والعوامل النفسية الأخرى ، فجعلته حالة غير سوية .

ولقد لمس فرانتس كافكا فى تحليله وتشريحه للنفس الانسانية ، معتمدا على خبراته الشخصية بصفة أساسية طبعا ، ان الخوف هو آفة الكائن البشرى الأولى . والانسان بطبيعته يعيش مع

آخرين، وهو يحكم على هؤلاء الآخرين، وهم يحكمون عليه أحكاما صغيرة وكبيرة لاتنقطع، وتنسم هذه الأحكام بالسرية لأنها متوارية بين خلايا المخ، خلف عظام الجمجمة لا يستطيع كائن من كان أن ينفذ إليها ، وهكذا أصبح كل انسان معرضا لمجموعات كبيرة من الأحكام المجهولة يتخذها الآخرون حيال تصرفاته ، فإذا ماكان الانسان بطبيعته مترددا هيأبا الى درجة مرضية، أصبح يحس كأنه مذنب وكان البيئة بمن فيها وبما تقاضيه وتحاكمه .

ولما كنا قد تعرضنا من قبل ، فى المقال المشار اليه ، الى المذهب السيكولوجى لفرانتس برنتانو ، ذلك المذهب الذى تأثر به كافكا ، وتأثر خاصة بتقسيمه الظواهر النفسية الى تصورات وأحكام وانفعالات ، فإننا لانريد أن نفصل ذلك من جديد هنا . كل ما بهمنا أن نؤكد فى هذه المقدمة ، أن توقف فرانتس كافكا عند الحلقة الوسطى من هذا التقسيم وهى «الأحكام» كان توقفا له ما يبرره . فقد كان من ناحية يدرس القانون ، رافعا أو راهبا ، وما القانون الا ميدان الأحكام الاول ، وكان من ناحية ثانية ، يحكم خبراته الشخصية الاليمة فى أسرته ، يميل الى الأخذ بأن حياته تأثرت تأثيرا كبيرا بأحكام الآخرين ، وأحكام أبيه خاصة .

وتبلورت كل هذه الخبرات والمعلومات فى هذا الكابوس الروائى أو الرواية الكابوس « القضية » . انسان اسمه يوزاف ك (اقرا «كا» بألف مفخمة !) يعيش فى بنسيون ويعمل وكيلا فى بنك ، تفاجئه محكمة من نوع غير مألوف ، فترسل اليه من يعتقله ويتركه رغم الاعتقال طليقا ، ثم تدعوه الى الاستجواب أو الى التحقيق ، دون أن يعلم الذنب الذى ارتكبه . ويحاول الدفاع عن نفسه معتمدا على محام مرة وعلى وساطة الوسطاء مرات وعلى نفسه

أحيانا ، فلا يصل الى نتيجة . وينتهى ذات يوم على يد اثنين من المحكمة يقتلانه بحكم لم يره ، صادر من فائض لم يعرفه ، ولدنّب لا يعلمه . - أين هذا الانسان الحائر ؟ أين موضعه من الزمان والمكان ؟ لا ندرى على وجه اليقين . فرانتس كافكا لا يحدد زمانه وبينه ولا يحدد مكانا معينه . انه يترك هذين البعدين بلا تحديد ، وهو يهدف من وراء ذلك الى التأكيد على عمومية المشكلة او المشكلات التي يتعرض لها . ليست محنة يوزف ك محنة انسان معين في ظروف معينة ، بل هي محنة الانسان اذا أحاطت به مثل هذه الظروف . على اننا نستطيع أن نقول أن زمن الأحداث لا يمكن أن يكون سابقا على عصر كافكا ولا متأخرا عليه بكثير ، ونعتمد في ذلك على تفصيلات مثلا استعمال السيارة والتاكسي والاضاءة بالنور الكهربائي . أما المكان فهو مكان تظله الثقافة المسيحية الأوروبية . فاذا استعرضنا فصل « الكنيسة » ، تبيننا أن يوزف ك يرسم الصليب ، وتبيننا أنه يصف مناظر مسيحية تمثلها اللوحات الفنية التي تزدان بها الكنيسة ، اذن فيوزف ك شخص مسيحي ، والثقافة التي تظله ثقافة مسيحية او قل كاثوليكية استنتاجا من الصور . أما الفصل الذي يلتقي فيه يوزف بالمصور تيتوريللي ، فيحملنا على الاعتقاد بأن هذه الثقافة هي الثقافة الغربية ، أعنى الثقافة التي ورثت علوم الاغريق والرومان وصبغت بالمسيحية ، وقد رمز اليها بربة العدالة المعصوبة العينين ، حاملة الميزان ، وبربة النصر وبربة الصيد . ومادنا قد تمكننا من هذا التحديد ، فينبغي أن نحصر هدف فرانتس كافكا في حدوده ونقول انه يصور محنة الانسان في مطلع القرن العشرين ، بعد البخار والكهرباء ، وفي مكان ما تظله الثقافة المسيحية الغربية .

ولعل القارئ يتساءل عن المحكمة السرية ويدهش لبراعة فرانتس كافكا في ابتكارها . والحق أن أوروبا عرفت المحكمة السرية في ثقافتها حتى عصر النهضة ، وكان للمحكمة السرية في ألمانيا خاصة نشاط

كبير إلى أن أعلن الامبراطور كارل الخامس عدم شرعيتها في القرن السادس عشر ، وأصلح نظام التقاضي إنتقلص نشاطها ، وإن ظل نفر من العلماء يعتقدون أنها استمرت تمارس نشاطها إلى وقت قريب . وكانت هذه المحكمة تتكون من قضاة لا يعرف بعضهم بعضا ، يجتمعون في كهوف و يبحثون القضايا التي تصل أخبارها إلى أسماعهم ، ويقضون فيها بأحكام يقسمون على تنفيذها ، ومن بينها أحكام بالقتل . (تعرضنا لهذه المحكمة في مقدمة ترجمتنا لمسرحية « جوتس فون برلينجن » لجوته ، وهي تحت النشر) لا شك أن فرانتس كافكا كان يعلم بهذه المحكمة ، من دراسته لتاريخ القانون ، ومن قراءته لمسرحية جوته المشار إليها . وهو في حديثه عن المحكمة في رواية القضية لا يقصد بطبيعة الحال هذه المحكمة ، ولكنه استفاد من تفاصيل معينة عنها ، أهمها سريتها ، وانعقادها في أماكن لا يتوقع الإنسان أن تعقد فيها محاكم . وليس من شك في أن فرانتس كافكا تأثر في تكوين عنصر المحكمة في هذه الرواية بمعلومات وصلته عن منظمة الماسونية ، أو جماعة البنائين الأحرار ، تلك الجماعة التي صدرت قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها وبعدها كتب كثيرة تتهمها بأنها هي التي دبرت الحرب ، وتتهمها بأنها تقيم شرطة ومحكمة وما إلى ذلك إلى جانب مؤسسات الدولة النظامية .

فلنا أن رواية كافكا هي قالب من اللاواقع مضمونة الواقع . ويمكننا أن نقول على أسلوب كافكا أنه أسلوب قالبه الهزل ومضمونه الجدد . والجدد عند كافكا هدفه الإصلاح ، إصلاح البيئة من كل نواحيها . وما أكثر المشكلات التي يتعرض لها في هذه الرواية ! يستدرجنا قالب اللاواقع مثلا ونحن نتبع يوسف ك عندما يذهب إلى المحكمة لأول مرة ، أنه لا يعرف مقرها بالضبط ، وأنه ليخجل من السؤال عنها ، فيسأل اعتباطا عن نجار اسمه لانس لا وجود له إلا في خياله ، وتكون النتيجة أنه يصل فعلا بهذه الوسيلة إلى مقر

المحكمة . هذا هو اللاواقع . وهذا هو الهزل . أما الواقع والجسد فتجده في الكلمة التي يلقيها في المحكمة . تجده في تعليقه على الاجتماع المتور بقاعة المحكمة ، بأنه كاجتماع الأحزاب السياسية المتآمرة ، التي تسلك سبل المناورة للوصول الى اغراضها .

فرانتس كافكا يصطنع الهدوء ليدفع الى الثورة . وهو ينقد مناهج التفكير الهستدامة التي تهتم بالامور الثانوية وتترك الامور الرئيسية ، التي تتعلق بالظواهر وترك الجوهر . والانسان عندما يفرغ من قراءة رواية القضية يثور على يوزف ك ، لانه اسرع بالانصراف عن جوهر محنته وعكف على امور ثانوية . كان المفروض أن يتمسك بمعرفة الذنب ، فكيف تقوم قضية بلا ذنب ؟ وفرانتس كافكا ينتقد الجهاز البيروقراطي ، ويبرز عيوبه من رشوة واستهتار وكسل او نشاط بلا وعي . في يوم من الايام يأتي رجلان يقبضان عليه دون أن يكون في استطاعتهما أن يبررا أمامه تصرفهما بغير الإشارة الى أمر صادر اليهما بذلك . وقد ظل يوزف ك الى النهاية لايعلم من أمره شيئا لأن النظام البيروقراطي لم يمكنه من الوصول الى من بيده الخبر اليقين . . والنظام البيروقراطي انما يشتد فساده ، كما نتبين في فصل الجلاد ، لأن الناس يسكتون على العيوب ولا يشكون منها . ويكثر فرانتس كافكا من نقد نظام التقاضي ، ومن صعوبة الوصول الى العدل ، تارة لفساد المحامين ، وتارة لفساد القضاة ، وتارة لكثرة القوانين وشروحها وتضاربها أو تداخلها ، وتارة أخرى لبعدها عن موظيفها عن حياة الناس . ولاشك أن المدة التي قضاها في ردهات محاكم براغ في ذلك الوقت أمدته بثروة الخبرات في هذا السبيل . - وهذه الميوب وغيرها يزيح فرانتس كافكا الستار عنها ، ويضم نقده لها في اطار مفهومه الاشتراكي ، الذي يرفض أن يكون القوى متحكما

فى الضعيف، أو أن يكون الفقير نهباللغنى، أو أن يكون المجتمع منقسما إلى اقليل من المرفهين وكثير من المعوزين . ويكفيك التبصر فى منازظر البؤس التى يعرضها أمامك ، ويكفيك التمعن فى صورة علاقة كعلاقة رجل الصناعة بالمصور أو كعلاقة قاضى التحقيق بخادم المحكمة ، لتحكم على مدى إيمان فرانتس كافكا بحتمية الإصلاح الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وحتمية الاشتراكية .

دكتور مصطفى ماهر

القضية

الفصل الأول

- اعتقال —
- حديث مع السيدة جروباخ
- ثم الأنسة بورستتر

لا بد أن أحداً كاد ليوزف لك لآته اعتقل ذات صباح دون أن يكون قد اقتراف ذنباً . لم تأت طبخة السيدة جروباخ التي يستأجر حجرة لديها ، هذه المرة ، وكانت تأتية كل يوم في نحو الساعة الثامنة بطعام الافطار . ذلك شيء لم يحدث من قبل قط . وانتظر ك هنيهة وتطلع ، ورأسه ما تزال على المخذة الى المرأة العجوز التي تسكن قبالة والتي راحت ترقبه بفضول لم يعهده فيها من قبل . ثم دق الجرس مندهشاً ، جائئاً في وقت واحد . وسرعان ما دق أحدهم الباب ، ودخل عليه رجل لم يكن قد رآه في المسكن قط من قبل .

كان هذا الرجل اهيف القامة، ولكنه كان مع ذلك قوى البنيان ، وكان يلبس ثوباً أسود اللون به ثنيات مختلفة وجيوب وأربطة وأزرار وحزام كبديل السفر ، ثوباً يبدو نتيجة لهذه الأشياء التي زود بها عملياً جداً دون أن يتضح للمرء تماماً إقيم يستخدم .

وسأله ك وقد اعتدل قليلاً في فراشه من فوره :

— من أنت ؟

ولكن الرجل أهمل السؤال ، وكأنما كان ينبغي على الناس أن يقبلوا ظهوره هكذا بلا تساؤل ، واكتفى بالقسول : لقد دقت الجرس ؟

وقال ك :

— لتاني (أنه) الى بالافطار .

وحاول في اول الامر صامتا بالانتباه والتفكير أن يتبين من يكون هذا الرجل . ولكن هذا الرجل لم يستسلم مدة طويلة لنظراته ، بل اتجه الى الباب وفتحته قليلا ليقول لشخص كان على ما يبدو بجواره :

— انه يريد أن تأتبه أنه بالافطار .

وتبع هذا ضحك قليل في الحجرة المجاورة لم يتأكد من نبرته هل صدر عن واحد او اشترك إقيه كثيرون . وعلى الرغم من أن الرجل الغريب لا يمكن أن يكون قد عرف على هذا النحو شيئاً لم يكن يعرفه من قبل ، فقد قال لـ ك في صيغة البلاغ :

— هذا محال !

فقال ك : هذا شيء عجيب .

ثم اقفز من إقراشه ولبس بنطلونه على عجل .

— لابد أن أرى من بالحجرة المجاورة وأعرف كيف تسبجح السيدة جروبناخ بهذه المضايقة الموجهة الى .

وخطر بباله على الفور أنه ما كان ينبغي عليه أن يقول هذا بصوت عال ، وأنه بقوله هذا قد اعترف على نحو ما بحق هذا الشخص الغريب في مراقبته ، ولكنه تبين أن هذا شيء ليس له أهمية . إلا أن الشخص الغريب فهم الأمر على هذه الصورة لأنه قال :

— ليس الأفضل أن تبقى هنا ؟

فرد ك : لا أريد أن أبقى هنا ، ولا أريد أن تحدثني مادمت لم تقدم نفسك الى .

وقال الرجل الغريب : كان قصدي خيرا . ثم فتح الباب بإرادته .

فلما دخل ك الحجرة الجانبية كما أراد، وجدها لأول وهلة تبدو كما كانت تبدو في المساء السالف . كانت تلك الحجرة حجرة المعيشة التي بنسبون السيدة جروباخ ربما كان اليوم في هذه الحجرة الممتلئة بالاثاث والأغطية والصيني والصور الفوتوغرافية في سرف قليل من المكان البارح أكثر مما كان بها في المعتاد ، ولكن الإنسان لم يكن ليتبين هذا على الفور ، خاصة وأن التغير الكبير في الحجرة كان يتمثل خاصة في وجود رجل جلس الى النافذة المفتوحة بكتاب في يده ، رفع الآن عيناه عنه . وقال :

— كان ينبغي عليك أن تبقى في حجرتك . ألم يقل فرانتس لك هذا ؟

فقال ك : هه ، ماذا تريدون إذن ؟ وانتقل ببصره من الرجل الذي عرفه لتوه ، الى ذلك الذي يحمل اسم فرانتس ، وكان لا يزال واقفا بالباب .

وكان الناظر من النافذة المفتوحة يرى المرأة العجوز التي أقبلت ناحية النافذة المقابلة بفضول العجائز مره أخرى لترى الرجلين الأم تصير الأمور . وقال ك :

— أريد السيدة جروباخ .. واتى بحركة كأنه يتملص من الرجلين اللذين كانا يقفان على بعد ، وأراد أن ينصرف . ولكن الرجل الواقف عند النافذة قال : لا — وألقى الكتاب فوق منضدة صغيرة وهم واقفا ، ثم اكمل : ليس لك أن تنصرف ، فأنت معتقل .

فقال لك : هذا هو ما تصوره — ثم سأل : ولماذا اذن ؟

— ليس من شأننا أن نقول لك هذا . اذهب الى حجرتك وانتظر . لقد بدأت الاجراءات وستعلم كل شيء فى الوقت المناسب . وأنا أتجاوز مهمتى عندما أتحدث اليك بلطف ولكنى آمل ألا يسمعنى وأنا أتلفظ معك احد غير إفرانتس ، وهو كذلك يتلفظ معك ضد الأوامر . وإذا كان الحظ العظيم سيظل موثيا لك كما واثاك فى اختيار حارسيك ، فلك أن تأمل خيرا .

.. وأرادك أن يجلس ولكنه تبين أن الحجرة ليس بها شيء يجلس عليه الا الكرسي الوثير عند النافذة .

وقال إفرانتس : سترى مدى صدق هذا كله .

واتجه فى نفس الوقت مع الرجل الآخر نحوه . كان هذا الرجل الآخر خاصة أطول قامه من ك بشكل واضح . وربت هذا الرجل على كتفه كثيرا . وتفحص الاثنان جلاب نوم ك وقالوا له انه سيكون عليه بعد الآن أن يلبس جلابا أفتح من هذا بكثير ، ولكنهما سيتحفظان على هذا الجلاب وعلى بقية الملابس ، وأضافا انهما سيعيدانها اليه اذا انتهت قضيته نهاية طيبة . ثم قالوا :

— والافضل أن تعطينا نحن الامتعة ، وألا تحفظلها فى الامانات ، لأن الاختلاسات كثيرة فى قسم الامانات ، ولأن قسم الامانات يبيع المسودعات بعد وقت معين بفض النظر عن القضية هل انتهت او لم تنته . وما أطول ما تستمر مثل هذه القضية ، خاصة فى الفترة الاخيرة ! وفى نهاية الامر تحصل من

قسم الأمانات على ثمن مودعاتك ، وهو ثمن قليل فى حد ذاته لأن الفیصل عند البيع ليس قيمة العرض ولكن قيمة الرشوة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد دلت الخبرة على أن مثل هذا المبلغ يقل بانتقاله من يد الى يد وبترحيله من عام الى عام .

ولم يهتم ك بهذه العبارات الا اقل الاهتمام ، فلم يكن يقيم وزنا كبيرا لحقه فى التصرف فى متاعه ، ذلك الحق الذى ربما كان لا يزال له ، بل كان يهتم اكبر الاهتمام بأن يصيب وضوحا فى أمره . لم يكن يستطيع فى حضرة هؤلاء الناس أن يفكر مجرد التفكير ، وكان كرش الحارس الثانى - ولابد أن الرجلين كانا حارسين - يمسح من حين لآخر على نحو يتسم بالود واللفظ ، فاذا رفع بصره الى أعلا رأى وجها جامدا عظيما لا يتناسب مع جسمه السمين ، له أنف قوى ملئ الى ناحية رأى وجها يتغامم مع الحارس الآخر فى أمره من فوق رأسه .

من كان هذان الرجلان؟ عم كانا يتكلمان؟ أى ادارة كانا يتبعان؟ لقد كان ك يعيش فى دولة تقوم على الحق ، وكان الأمن مستتباً فى ربوعها ، وكانت كل القوانين قائمة سارية ، فمن هذا الذى تجرأ على الهجوم عليه فى مسكنه؟ وكان ك يميل دائما الى اخذ الأمور جميعها ببساطة ما استطاع وإلى الايمان بالمكروه عندما يحل لاقبل أن يحل ، وإلى عدم أخذ الحيلة للمستقبل حتى وإن كانت الاخطار كل الاخطار محدقة . ولكن طريقته هذه لم تبد له فى هذه الحالة صائبة ، كان من الممكن طبعا أن يعتبر الأمر كله مزاحا ، مزاحا سخيفا ، لقطعه معه زملاؤه فى البنك ، لأسباب مجهولة ، ربما لأن اليوم هو عيد ميلاده الثلاثون ، هذا محتمل ، وربما لم يكن بحاجة الا الى أن يضحك على نحو ما أتى وجه الحارسين ، فيضحكان معه ، وربما كانا من عمال الشارع - فلم يكن مظهرهما يختلف عنهم كثيرا - ولكن ك كان مع

ذلك مصمما فى هذه المرة ، ومنذ ان رأى الحارس فرانتس على وجه التحديد ، على الا يدع اقل تفوق قد يكون لديه حيل هؤلاء الناس يفلت من بين يديه . اما ان يقال فيما بعد ان ك لم يفهم المزاح فهذا امر لم يجد فيه الا خطرا قليلا جدا . على انه تذكر - دون ان يكون من عادته ان يتعلم من التجارب - تذكر بعض حالات عديمة الاهمية فى حد ذاتها ، تصرف فيها ، على خلاف ما توقع اصداقاؤه ، عمدا وبدون اذنى احساس بالنتائج الممكنة ، تصرفا متهورا ، وانه نتائجها بالعقاب . وفكر انه لا ينبغي ان يتكرر منه هذا ، على الاقل فى هذه المرة . فاذا كان مايجل به الآن كوميديا فعليه ان يشترك فى تمثيلها .

كان ك لا يزال حرا طليقا . وقال : اسمح لى - وسار مسرعا بين الحارسين الى حجرته - وسمعهما خلفه يقولان : يبدو انه شخص عاقل . فلما دخل حجرته فتح ادراج مكتبه بسرعة وعنف ، وكانت حاجياته تكمن فيها منظمة اعظم نظام ، ولكنه لم يجد مستنذا تحقيق شخصيته بالذات فى الحال لفرط الانفعال الذى تملكه وهو يبحث عنها . واخيرا وجد رخصة الدراجة وهم ان يذهب بها الى الحارسين ، ولكن الرخصة لاحت له قليلة الاهمية ، فاستمر فى البحث حتى وجد شهادة الميلاد . فلما عاد الى الحجرة المجاورة ، انفتح فى اللحظة نفسها الباب المقابل وهمت السيدة جروباخ بالدخول . ولكن العين لم تبصر بها الا لحظة واحدة ، فما كادت المرأة ترى ك وتعرفه ، حتى ظهر عليها الاضطراب وطلبت المذرة واختفت واغلقت الباب بحرص بالغ . وكان ك قد استطاع ان يقول لها : بل ادخلى .

ووقف الآن بأوراقه فى وسط الحجرة ، ينظر الى الباب الذى لم يفتح بعد ، حتى اقترعته صبيحة الحارسين اللذين

كانا يجلسان الى المائدة الصغيرة عند النافذة المفتوحة وياكلان -
كما تبين لك على الفور - طعام افطاره . وسأل ك :

- لماذا لم تدخل السيدة ؟ ورد الحارس الطويل :

- ليس لها ان تدخل . افانت معتقل .

وقال ك : كيف يمكن ان اكون معتقلا ؟ وبهذه الطريقة بالذات ؟
فرد الحارس وهو يدس لقمة خبز عليها زبد في اناء العسل :

- هانتذا تعود الى السؤال . ونحن لا نجيب على مثل هذه
الاسئلة .

فقال ك : بل سيكون عليكما ان تجيبا عليها . هذه هي الاوراق
التي تثبت شخصيتي ، اأرياني الآن الاوراق التي تثبت شخصيتكما
وأرياني قبل كل شيء آخر امر اعتقالي .

فقال الحارس : أيتها السماء الحبيبة ! ما أعجب انك
لا تستطيع ان تندمج في حالك وانك تبدو متحفرا لاستقرازا في
غير فائدة ونحن الآن أقرب الناس اليك كما ترى .

وقال فرانتس : لقد قال الحقيقة فصدقه - ولم يرفع فنجان
القهوة الذي كان يمسكه بيده الى فمه بل تطلع الى ك بنظرة
طويلة ، لعلها كانت ذات معنى ، ولكنها ظلت غير مفهومة . وانساق
ك ، دون ارادة منه ، الى مجادلة بالنظرات مع فرانتس ، ثم خبط
على اوراقه وقال :

- هذه هي اوراقي التي تثبت شخصيتي . اقضاح الحارس
الطويل :

- وما شاننا بها ؟ انك تتصرف على نحو اشد
خطلا من تصرف الطفل . ماذا تريد ؟ اتريد ان تنهى قضيتك
الطويلة اللينة الي نهاية سريعة بأن تلجأ الي

مناقشتنا نحن الحرس في أمر اثبات الشخصية وأمر الاعتقال لأن نحن موظفان صغيران لا علم لنا بأوراق الشخصية ، ولا نعرف من قضيتك إلا أن علينا أن نحرسك عشر ساعات يوميا وأن نتقاضي لقاء ذلك أجرا . لسنا أكثر من هذا ، ولكننا من ذلك نستطيع أن نفهم أن السلطات العليا التي تعمل في خدمتها ، تحيط علما بأسباب الاعتقال وبشخصية المعتقل وتدقق في ذلك قبل أن تصدر أمر اعتقال من هذا النوع . وهي في ذلك لا تخطيء . والسلطات التي تعمل بها ، على قدر علمي بها ، وأنا لا أعلم إلا المستويات الدنيا فيها ، لا تبحث كما قد يظن البعض عن الذنب بين الناس بل هي ، كما ينص القانون تنجذب الى الذنب ، ويتحتم عليها أن ترسلنا نحن الحراس . هذا قانون . فإين الخطأ في هذا ؟ .

نقال لك : لا أعرف هذا القانون .

فقال الحارس : هذا مما يريد أمرك سوءا .

وقال لك : يبدو أن هذا القانون لا يوجد إلا في رؤوسكم . وأراد أن يتسلل الى داخل أفكار الحراس وأن يحولها الى أفكار صالحة أو أن يتوطن فيها . ولكن الحارس قال معارضا :

— سيأتي الوقت الذي ستحس فيه به . وتدخل فرانتس قائلا : أرايت يا فيلليم ، إنه يفترق بأنه لا يعرف القانون ويدعى في الوقت نفسه أنه برىء .

فقال له الآخر : أنت على حق تماما، ولكن ليست هناك وسيلة يمكن للمرء أن يلتصقها ليفهمه أي شيء .

ولم يردك بشيء . وفكر : هل ينبغي على أن أترك اثنين من المستويات الدنيا — وهما اللذان قررا ذلك بنفسهما — يشرثران ويريدان اضطرابي اضطرابا ؟ أن الرجلين يتحدثان عن أمور لا يفهمانها قط . وما مكنهما من الاطمئنان الا غباؤهما . وأن كلمات قليلة أقولها

لرجل مساو لي لكفيلة بان توضح كل شيء وضوحا لا أصل اليه
باطول الأحاديث مع هذين . وذرع المكان البراح في الحجرة جيئة
وذهابا عدة مرات ، ورأى هناك المرأة العجوز وقد جذبت الى النافذة
رجلا أعجز منها واحتضنته . وكان على ك ان يضع نهاية لهذه
المشاهدة ، فقال :

— خذاني الى رئيسكما .

فقال الحارس الذي نودي باسم فيليم : نأخذك اليه عندما
يطلب ذلك . ولن نأخذك اليه قبل أن يطلب . ثم اردف يقول :
وانصحك الآن بأن تذهب الى حجرتك وأن تلتزم الهدوء
وأن تنتظر ما سيأخذ في أمرك . ونحن ننصحك بالا
تشتت في أفكار عديمة الفائدة وبأن تستجمع نفسك ،
فما سيطلب منك عظيم . وأنت لم تعاملنا المعاملة التي تليق بحلمنا
معك . أنك تنسى أننا ، بغض النظر عن تكون ، على الأقل بالقياس
اليك الآن ، رجلا حرا ، وهذا تفوق لا يستهان به . ومع ذلك
فنحن مستعدان ، اذا كان لديك مال ، لأن نشترى لك من المقهى
هناك افطارا بسيطا .

ووقف ك هنيهة ساكنا لا يرد على هذا العرض . ربما لا يجرو
الاثنان على التعرض له اذا ما هو فتح باب الحجرة التالية او حتى
باب الحجرة الامامية ، ربما كان اسهل حل لمشكلته هو ان يدفع
بها الى حدها المتطرف . ولكن ربما قبضا عليه ، وهو اذا انهزم مرة
خسر تفوقه كله ، ذلك التفوق الذي كان ما يزال يتمسك به على
نحو ما حيالهما . ولذلك فضل الامان ، الامان الذي لا بد ان ينتهي
اليه التطور الطبيعي ، وعاد الى حجرته دون أن تنطلق كلمة لا من
فمه ولا من فم الحارسين .

والقى لك بنفسه فوق سريره وتناول من الحوض تفاعاً جميلة
كان بالأمس مساء قد أعدها للافطار . وهاهى ذى قد أصبحت
افطاره الوحيد ، ولكنها كانت على اية حال ، كما أكد لنفسه وهو
يقضم القضة الكبيرة الاولى ، افضل بكثير من افطار يجلب من
الحانة القدرة ، كان فى مقدوره أن يناله من فضل الحارسين .
وشعر بالراحة والاطمئنان ، حقيقة انه سيتأخر صباح اليوم عن عمله
فى البنك ، ولكن هذا شيء يسهل الاعتذار عنه ، نظرا لمركزه الكبير
نسبيا . واذا لم يصدقه من بالبنك ، وهذا شيء غير مستبعد فى
هذه الحالة ، ففى الامكان أن يستشهد بالسيدة جروبياخ اوبالمجوزين
زنى البيت المقابل ، وكاتا الآن فى طريقهما الى الشباك المظلل عليه .
واخذت لك الدهشة على الاقل من تفكير الحارسين اذ دفعاه الى
الحجرة وتركاه فيها وحده ، حيث توفرت لديه امكانيات كثيرة
للتخلص من الحياة . ولكنه فى الوقت نفسه تساءل ، سالكا مجرى
تفكيره هو فى هذه المرة ، عن السبب الذى يمكن أن يدفعه الى فعل
هذا . هل ينتحر لأن الرجلين يجلسان فى الحجرة المجاورة ولانهما
استوليا على افطاره ؟ كان مثل هذا الانتحار سخيفا ، حتى انه لو
أراد أن ينتحر ، فلن يتمكن من التنفيذ بسبب سخفه . ولو لم يكن
ضيق عقل الحارسين واضحا الى هذه الدرجة ، لكان للانسان أن
يقول انهما كذلك لم يجدا خطرا فى تركه بمفرده ، للسبب نفسه .
أما الآن فلهما أن أرادا أن ينظرا اليه وهو يذهب الى دولا بالحايط
صغير ، حفظ فيه نوعا جيدا من نبيذ الاشنبص ، ويتناول قدحا
صغيرا أولا كبديل للافطار ، ثم يتناول قدحا صغيرا ثانيا ليمد نفسه
بالشجاعة ، على سبيل الاحتياط لحالة غير منتظرة قد يحتاج إليها
الى الشجاعة .

واقعة أفزعته صيحة صادرة من الحجرة المجاورة لدرجة أن
أسنانه اصطدمت بالقدرح . كانت الصيحة هى :

– المفتش يناديك !

كان الذى أفرعه هو الصباح وحده ، هذا الصباح العسكرى القصير المتقطع ، الذى لم يتوقع له أن يصدر عن الحارس فرانتس . أما النداء فى حد ذاته فكان محببا الى نفسه جدا . وردك صالحا :
– واخيرا !

ثم أقفل دولاب الحائط وأسرع فى الحال الى الحجرة المجاورة . كان الحارسان يقفان هناك ، فطرداه الى حجرته من جديد ، وكأنما كانا يفعلان شيئا طبيعيا . وصاحا فيه :

– ماذا دهاك ؟ أتريد أن تمثل أمام المفتش بالقميص ؟ ان هذا لكفيل بأن يجعله يأمر بضربك ضربا مبرحا ، وبضربنا نحن أيضا . وصاح لك وكانا قد دفعاه حتى أوصلاه الى خزانة ملابسه :

– أتركانى بحق الشيطان ! هل ينتظر أحد منى أن أكون فى حلة العيد ، وقد تعرضت قبل أن أنهض من الفراش لهجوم مفاجئ .

كان الحارسان اذا صاح لك ظلّا هادئين ساكنين بل أوشكا أن يبدوا حزينين ، وكانا بهذا المسلك يسلمانى للاضطراب أو يردانه على نحو ما الى التعقل . وقالوا له :
– لن يجدى هذا نفعا .

فراح لك يزمجر : احتفالات مضحكة ! وتناول ثوبا من فوق الكرسي وأمسكه هنيهة بكلتا يديه ، كأنما كان ينتظر حكم الحارسين عليه . ففهما رأساهما ، وقالوا :

– لابد أن يكون ثوبا اسود اللون .

فألقى بالشوب إلى الأرض وقال - ولم يكن هو نفسه يعرف
معنى ما قاله : ليست هذه على أية حال الاجراءات الأساسية
فى القضية .

وايتم الحارسان ولكنهما ظلا متمسكين بما قاله : لابد ان
يكون الشوب اسود اللون .

وقال ك : إذا كنت بهذا اعجل بنهاية الامر ، فلا بأس .

ثم فتح بنفسه خزانة الملابس وبحث طويلا بين الملابس
واختار أحسن ثيابه السوداء ، ثوبا له جاكيت
اثار بين معارفه عندما اقتناه اعجابا بتفصيلته ، كذلك أخرج قميصا
آخر ، وبدأ يرتدى الملابس بعناية . وكان ك فى سره يعتقد أنه وفق
الى التعجيل بالأمر كله ، فقد نسي الحارسان ان يدفعاه الى الحمام .
وراح يتأملهما ، ليرى ما اذا كانا قد يتذكران دفعه الى الحمام ،
ولكن هذا الخاطر لم يخطر ببالهما طبعاً . ولم ينس فيليب ان يرسل
فرانتس الى المفتش ويبلغه أن ك يرتدى ثيابه .

فلما فرغ ك من ارتداء ملابسه ، كان عليه أن يسير أمام فيليب
بالضبط عبر الحجرة الجانبية الخالية الى الحجرة التالية وكان بابها
قد فتح على مصراعيه . كانت هذه الحجرة - كما كان ك يعلم يقينا
- مؤجرة منذ وقت قليل سكنا للانسة بورستنر الكاتبة على الآلة
الكاتبة ، والتي كانت معتادة على الذهاب الى العمل مبكرة جدا ، وعلى
العودة الى البيت متأخرة جدا ولم يكن بينها وبين ك الا تبادل
التحية . اما الآن فقد أخذت المنضدة الصغيرة من جانب السرير ،
ودفعت فى وسط الحجرة لتكون منضدة للاجراءات القضائية ،
وجلس المفتش خلفها . ووضع المفتش ساقا فوق أخرى ، وأسند
ذراعا على ظهر الكرسى .

ووقف في ركن من أركان الحجرة ثلاثة شبان راوحا يتطلعون الى صور الأنسة بورستر وكانت معلقة على حصيرة مثبتة على الحائط . وكانت هناك بلوزة معلقة على مقبض النافذة المفتوحة . اما الشباك المقابل فكان فيه العجوزان ، وقد انضم اليهما آخر ، كبرت به جماعتهما ، وقف خلفهما ، عاليا عنهما ، وقد ارتدى قميصا مفتوحا عند صدره ، وراح يضغط بأصابعه على لميته المدببة ويفتلها .

وسأل المفتش :

— يوزف لك ؟ .. ربما ليوجه نظرة لك الشاردة اليه . فأوماً لك براسه . وسأل المفتش :

— لملك فوجئت جدا بأجراءات هذا الصباح ؟ .. ودفع أثناء ذلك بكلتا يديه الأشياء القليلة التي كانت على المنضدة الليلية الصغيرة ، وهى شمعة وأعواد ثقاب وكتاب ومخدة أبر ، وكأنها أشياء سيحتاج اليها في التحقيق .

وقال لك : بكل تأكيد — وتملكه شعور بالارتياح لو قوفه أخيرا أمام رجل عاقل وتمكنه من الحديث معه فى مسألته — بكل تأكيد ، فوجئت بها ، ولكنى لم أفاجيء بها جدا اطلاقا .

وسأل المفتش : لم تفاجأ بها جدا ؟ — ثم وضع الشمعة وسط المنضدة الصغيرة وجمع الأشياء الأخرى حولها .

واسرع لك يضيف ملحوظة : ربما تخطيء فى إلهى ، أعنى : .. وهنا توقف لك عن الكلام ويبحث عن كرسي وثير . وسأل : اظن أن لى أن اجلس ؟

فأجاب المفتش : لم تجر العادة بذلك .

وقال لك دون أن يسكت مرة أخرى : أعنى ، اننى فوجئت جدا طبعاً ، ولكن عندما يكون الانسان قد قضى فى الدنيا ثلاثين سنة

مثلى ، فإنه يكون محصنا ضد المفاجآت ولا يأخذها مأخذا صعبا ،
وخاصة مفاجئة اليوم .

ـ لماذا مفاجأة اليوم خاصة ؟

ـ لا أريد أن أقول اننى اعتبر الحكاية كلها مزاحا ، فإن
الاجراءات التى اتخذت تبدو لى مفرطة الضخامة . ولابد أن نزلاء
البنسيميون كلهم مشتركون فيها ، وكذلك انتم جميعا ،
وهذا شىء يتجاوز حد المزاح . ولهذا فليست أريد أن أقول
ان ما حدث مزاح .

فقال المفتش : هذا صحيح تماما . . . وعد عيدان الثقاب التى
كانت فى علبه الكبريت .

واستأنف له كلامه وهو يتجسس هذه المرة الى الجميع ،
ويود لو استطاع أن يتجسس كذلك الى الثلاثة الواقفين
عند الصبور : ومن ناحية أخرى لا يمكن أن تكون
للحكاية أهمية كبيرة . وأنا استنتج هذا من اننى متهم ولا أستطيع
أن أجد أدنى ذنب يمكن أن يكون السبب فى اتهامى . على أن هذا
شىء ثانوى ، والسؤال الرئيسى هو من الذى يتهمنى ؟ مناهى الإدارة
الحكومية التى تقوم بهذه الاجراءات ؟ هل انتم من موظفى الحكومة ؟
ليس منكم من يرتدى الزي الرسمى ، الا اذا وجد من . . .

وهنا اتجه بالحديث الى فرانتس : من يصمم على تسمية ثوبك
زيا رسميا ، وماهو الا بدلة سفر . هذه هى المسائل التى اطلب
ايضاها ، وأنا مقتنع باننا بعد هذا الايضاح سيكون لى استطاعتنا
أن يودع بعضنا البعض أكثر الوداع ودا وحرارة .

والقى المفتش بعلمة الكبريت على المائدة وقال : انك
تخطئ خطأ عظيما . فهؤلاء السادة هنا وانا
أشخاص ثانويون تماما بالنسبة لموضوعك ، بل اننا

لأنهم منه شيئاً تقريباً . ثم أننا نستطيع أن نرتدى أصح وأنسب الإزياء الرسمية ، ولكن هذا لن يؤدي إلى افساد قضيتك في قليل أو كثير . وأنا لا أستطيع بالمرّة أن أقول لك أنك متهم ، أو بعبارة أخرى ، لا أعرف هل أنت متهم أم لا . أنت معتقل ، هذا صحيح ، ولست أعرف أكثر من هذا . ربما تثرثر الحارسان بشيء آخر ، وفي هذه الحالة لن تعدو تثرثرتهم حدود الثرثرة . وإذا كنت لا تستطيع أن أجيب على أسئلتك ، فانا أستطيع أن انصحك بأن تقل من التفكير فينا وفيما سيحدث لك ، وأن تفكر في نفسك فذلك أفضل . ولا تحدث صخباً كهذا حول احساس ببراءتك ، فهذا الصخب يضر بالانطباع غير السوي الذي تحدثه فينا . وعليك بصفة عامة أن تكون أكثر تحفظاً في كلامك ، فأكثر الكلام الذي قلته أنت منذ قليل ، كان يمكننا ، لو أنك اكتفيت بكلمتين فقط ، أن نستنتجه من مسلكك . هذا إلى أن كلامك لم يكن في صالحك بدرجة كبيرة .

وحملقك في المفتش . تلك دروس كدروس المدرسة يتلقاها من رجل ربما كان أصغر منه سناً ؟ ولا يعلم شيئاً عن سبب اعتقاله وعن الذي أمر بالاعتقال ؟ واستسلم لك لشيء من الانفعال ، وراح يقطع المكان جيئةً وذهاباً ، دون أن يعوقه عن ذلك أحد ، ثم رفع اساور قميصه ، وتحسس صدره وأصلح شعره ومر بالرجال الثلاثة وقال :

« ان هذا شيء لا معنى له . »

فاستدار هؤلاء ناحيته ونظروا إليه في ميل ولكن في جدية :
وأخيراً وقف مرة أخرى أمام منضدة المفتش . وقال :

« النائب العام هاينريخ صديقي الحميم ، هل لي أن اتصل به
تليفونيا ؟ »

فقال المفتش : بلا شك ، ولكنى لا أعرف أى معنى يمكن أن يكون لهذا العمل ، إلا أن يكون لديك مسألة شخصية تريد أن تكلمه فيها ؟

وصاح لك وقد تملكه من الدهشة أكثر مما تملكه من الغضب :

— أى معنى ؟ فمن تكون أنت ؟ أنت تريد معنى لعملى ، وتقوم بهذا العمل الذى هو أكثر الأعمال تجرداً من المعنى ؟ هذا شيء يلين منه الصخر ؟ لقد انقض على السادة بادية ذى بدء ، وها هم أولاء يجلسون أو يقفون فى غير حاجة ويحملوننى على الوقوف منهم موقف التلميذ من المدرسة. أى معنى يكون للاتصال التليفونى بنائب عام اذا كنت على ما يبدو معتقلاً؟ حسناً، لن اتصل تليفونيا بأحد !

وقال المفتش وقد مد يده ناحية الحجرة الامامية حيث كان التليفون : بل اتصل ، من فضلك ، اتصل بالتليفون .

وقال لك : لا ، لم أعد أريد أن اتصل تليفونيا بأحد .

وذهب الى النافذة . كانت الجماعة الواقفة بالنافذة المقابلة ماتزال تطل ، وبدأ عليها ، عندما تقدم لك من النافذة ، انها قد تفكر لهذا التقدم صفو مشاهدتها قليلاً . وهم العجوزان بالنهوض ولكن الرجل الواقف خلفهما هدا من روعهما . وصاح لك بصوت مرتفع فى المفتش وهو يشير بالسبابة الى الخارج :

— وهناك ايضا متفرجون يشاهدون .

ثم صاح قهيم : ابعادوا !

فتراجع الثلاثة فى الحال خطوات الى الوراء ، بل تراجع العجيب زان حتى اصبحا خلف الرجل الذى

واراهما بجسمه العريض ، وقال لهما - استنتجا من حركات فمه - من بعيد شيئا غير مفهوم . ولكنهم لم يختلفوا تماما ، بل بدا عليهم انهم ينتظرون اللحظة التي يمكنهم فيها أن يقتربوا خفية من النافذة مرة أخرى .

وقال ك عندما التفت ناحية الحجرة : اناس فضوليون يدسون انفسهم فيما لا يعينهم ولا يرعون المشاعر .

ومن الممكن أن يكون المفتش قد وافقه على هذا الرأي ، فقد ظن ك أن شيئا بهذا المعنى لاح له عندما نظر الى المفتش من الجانب . ومن الممكن أيضا ألا يكون المفتش قد سمع ، لأنه كان باسطا يده على المائدة ، وكان يبدو وكأنه يقارن بين أصابعها طولا . اما الحارسان فكانا يجلسان على صندوق ملفوظ بمفرش منق ويمسحان على ركبتيهما : واما الشبان الثلاثة فكانوا يضعون أيديهم في أوساطهم ويدورون بأبصارهم في المكان بغير هدف . وساد الهدوء المكان ، وكأنه هدوء مكتب من مكاتب الدواوين المنسية .

وصاح ك بعد أن ظل لحظة كاملة يحس كأنما يحملهم جميعا فوق كتفيه :

- سادتي ، قد يمكنني استنتاجا من مظهركم أن أصل الى أن المسألة انتهت . وأنا أرى أن الأفضل والاحسن ألا تفكر بعد الآن في شرعية أو غير شرعية عملكم وأن تنهى المسألة وديا بأن يصافح بعضنا البعض . فاذا كنتم ترون ما أرى ، فمن أفضلكم ...

وتقدم الى مائدة المفتش ومد اليه يده .. ورفق المفتش عينيه وعض شفتيه ونظر الى يد ك الممدودة . وكان ك لا يزال يؤمن بأن المفتش سيتعجب له . ولكن المفتش نهض وتناول قبة جامدة مستديرة كانت على سرير الأنسة بورسترن ولبسها بتوءدة مستعملا

يديه كليهما وكأنه يجرب قبعة جديدة ، وقال في أثناء ذلك موجه
الكلام الى ك : .

— ما أبسط ما تبدو لك الأمور كلها ! أتريد أن ننهي المسألة
ودبا ؟ لا . لا . هذا شيء لا يمكن فعلا ! ولست أريد بتاتا ، من ناحية
أخرى ، أن أقول أن عليك أن تياس ! لا ، لماذا ؟ أنت معتقل
فحسب . لا أكثر . هذا شيء على أن أبلغك إياه ، وقد أبلغتك ،
ورأيت كذلك كيف تلقيت البلاغ . وهذا يكفي اليوم ، ويمكننا أن
نفترق ، مؤقتا طبعاً . ولا بد أنك تريد أن تذهب الآن الى البنك ؟ .
وسأل ك : الى البنك ؟ لقد ظننت أنني معتقل .

سأل هذا السؤال بشيء من العناد ، لأنه على الرغم من عدم
قبول المفتش مصافحته ، كان يحس ، وبصفة خاصة منذ نهض
المفتش واقفا ، بأنه يزداد استقلالاً عن هؤلاء الناس جميعاً . لقد
كان يمثل معهم ، كان ينوي ، إذا اتجهوا للانصراف ، أن يعسدهم
خلفهم الى بوابة البيت ، ويعرض عليهم أن يعتقلوه ، ولهذا راح
يكرر :

— كيف يمكنني أن أذهب الى البنك وأنا معتقل ؟

فقال المفتش الذي كان قد بلغ الباب :

— آه .. لقد أخطأت فهم مقصدي ، أنت معتقل ، هذا شيء
ما فيه شك ، ولكن لا ينبغي أن يعوقك هذا عن القيام بوظيفتك .
كذلك لا ينبغي أن يعوق هذا مجرى حياتك العادية .

فقال ك وقد اقترب من المفتش :

— إذن فلا اعتقال ليس شديد السوء .

وقال المفتش : لم يدر يخلدي غير هذا قط .

ثم قال ك وهو يزدد اقتربا من المفتش :

- يبدو لي أن ابلاغى بالاعتقال لم يكن ضروريا أيضا .

وكذلك اقترب الآخرون ، ووقف الجميع مجتمعين في بقعة صغيرة عند الباب . وقال المفتش :

- ابلاغك بالاعتقال كان واجبا على .

افقال ك بلا تردد : واجبا غبية !

افاجاب المفتش : ربما ، ولكننا لا نريد أن تضيع وقتنا في مثل هذا الكلام . لقد تصورت أنك لابد تريد أن تذهب الى البنك . وما دمت تهتم بكل كلمة اهتماما شديدا فلابد أن اضيف : اننى لا أجبرك على الذهاب الى البنك كل ما فى الأمر اننى تصورت أنك تريد ذلك . ولكى أسهل عليك الذهاب الى البنك وأجعل وصولك هناك شيئا غير ملفت للنظر ما أمكن ذلك ، وضعت هؤلاء الثلاثة ، وهم زملاؤك تحت تصرفك .. !

وصاح ك : كيف ؟ ! ..

وحملق فى الثلاثة مندهشا ، فاذا به يرى ان هؤلاء الشباب النكرة المصابين بفقر الدم ، الذين مازال يتصورهم فى ذاكرته كجماعة تقف عند الصور الفوتوغرافية ، كانوا فعلا موظفين فى البنك ، ولكنهم لم يكونوا زملاءه ، فهذه مبالغة ، وهى دليل على وجود ثغرة فى معلومات المفتش الشاملة المحيطة ، كان هؤلاء موظفين فى البنك على درجة أدنى منه . كيف أمكن الا يلحظ ك هذا ؟ ما أعظم ما أذهله المفتش والحارسان ، فصعب عليه أن يتعرف على هؤلاء الثلاثة ! صعب عليه أن يتعرف على رابنشتاينر ذى الجذع المتصلب واليدين المتذبذبتين ، وعلى كوليش ذى الشعر

الأشقر والعينين الغائرتين ، وعلى كامينر ذى الابتسامة المتسلطة على وجهه ، المرتسمة عليه نتيجة تقلص مزمن فى العضلات . وقال ك بعد هنيهة وهو يمد يده الى الشبان الذين انحوا بأدب :

— صباح الخير .. لم أتعرف عليكم بشاتا . سنذهب الآن اذن الى العمل ، هه ؟ ..

وأوما السادة برءوسهم ضاحكين متحمسين ، وكأنهم كانوا طوال الوقت ينتظرون هذه العبارة ، وعندما التمس ك قبعته التى كانت لاتزال فى حجرته ، أسرعوا جميعا للبحث عنها ، وهو تصرف يدل فيما يدل على شئ من الحيرة والارتباك . ووقف ك ساكنا وتابعهم ببصره من خلال البابين المفتوحين ، كان آخرهم طبعاً هو راينشتاينز البليد الذى لا يحسن الا الظهور بمظهر الأناقة والوسامة . وقدم كامينر القبعة الى ك ، وكان على ك أن يقول الآن شيئاً كثيراً مادعت الضرورة الى قوله فى البنك ، كان عليه أن يقول أن ابتسامة كامينر ليست عن قصد ، وأنه لم يكن يستطيع بحال من الأحوال أن يضحك قاصداً . وفى الحجرة الأمامية خرجت السيدة جروباخ ولم تبد قط شديدة الشعور بالذنب ، وفتحت الباب للجماعة كلها ، ونظر ك — وكثيراً ما فعل ذلك من قبل — الى رباط مريلتها الذى كان غائراً بغير ضرورة فى جسمها الضخم . ولما بلغ ك أسفل الدرج قرر والساعة فى يده ، أن يركب سيارته ، لكن لا يزيد تأخره ، مدة نصف ساعة زيادة لا ضرورة لها . وجرى كامينر الى الناصية ليحضر سيارة ، وحاول الأثنان الباقيان على ما يبدو أن يسروا عن ك ، وفجأة أشار كوليش الى بوابة البيت المقابل ، كان الرجل الطويل ذو اللحية الشقراء المدببة قد ظهر بها واضطرب فى اللحظة الأولى لظهوره الآن بكامل طوله فرجع خطوات ناحية الحائط واستند اليه . ولابد أن المعجوزين كانا لا يزالان على الدرج .

واغتافلك من كوليش لانه لفت نظره الى الرجل الذى كان قد رآه من قبل ، بل والذى كان يتوقع ظهوره . وقال بعنف : لا تنظر الى هناك !

ولم يتبين لك ما لمثل هذه العبارة من تأثير ملفت للنظر اذا قيلت فى حضرة رجال لهم استقلالهم الذاتى . على أن لك لم يضطر الى تفسير أو شرح ، لأن السيارة اقبلت فى تلك اللحظة فجلسوا فيها وانطلقت بهم . وهنا تذكر لك أنه لم ينتبه الى انصراف المفتش والحارسين ، لقد حجب عليه المفتش من قبل الموظفين الثلاثة ، أما الآن فقد كان الموظفون الثلاثة هم الذين حجبه عنه . وليس هذا دليلا على اتصافك بكثير من خصور البديهة ، ولهذا قرر لك ان يأخذ نفسه بتأمل ذاتى ادق فى هذه الناحية . ثم انه استدار بغير ارادة وانحنى فوق خلفية السيارة عله أن يرى المفتش والحارسين . وما لبث ان عاد الى وضعه الأول وانكأ مطمئنا الى ركن السيارة دون أن يحاول أدنى محاولة ان يبحث عن أى انسان . وعلى الرغم من أن الموقف لم يكن يبدو ملائما للتسلية ، فقد كان لك يشعر بحاجة الى التسلية فى هذه اللحظة بالذات ، ولكن الرجال الثلاثة كان يبدو عليهم التعب .. كان رابنشتاينر يطل من العربة يمينا ، وكان كوليش يطل من العربة يسارا ، ولم يكن هناك سوى كامينر بضحكته السخيفة تحت تصرفك ، وكان التسلى بالتهكم عليه للأسف شئ تمنعه الانسانية.

اعتاد لك فى هذا الربيع أن يمضى أمسياته على النحو التالى : كان عندما يفرغ من العمل ، يقوم ان أمكن - لأنه كان يبقى غالبا فى المكتب الى الساعة التاسعة - بنزهة صغيرة بمفرده أو بصحبة بعض الموظفين ، ثم يذهب الى حانة ليشرّب البيرة ، يجلس فيها الى مائدة يمينا غالبا مع نفر من متقدمى السن حتى الساعة الحادية عشرة . وكانت هناك استثناءات تطرا على هذا التقسيم

المنظم لليوم ، مثلا عندما كان مدير البنك ، الذى كان يقدر نشاطه
كجدارته بالثقة تقديرا كبيرا يدعو الى نزهة بالسيارة ، او
الى تناول العشاء فى فيلته . وكان له علاوة على ذلك يذهب مرة
فى الاسبوع الى بنت اسمها الزه ، كانت تعمل طوال الليل الى
ساعة متأخرة من الصباح جرسونة فى خمارة ، وكانت بالنهار
تلقى الزيارات فى اقراسها .

فى ذلك اليوم - وقد انقضى اليوم بين عمل مضم وبين تمنيات
ودية كثيرة مفعمة بالتقدير ، وما أسرع ما انقضى - أراد ك أن يعود
الى البيت مسرعا . وقد فكر فى هذا فى الفترات الكثيرة التى
تخللت عمله . وخطر له دون أن يعلم بالضبط معنى هذا الخاطر ،
ان ارتبائا كبيرا لابد قد ألم بمسكن السيدة جروباخ كله من جراء
أحداث الصباح ، وانه بالذات هو الذى تحتاج اليه ليعمد الى
البيت نظامه . فاذا أعيد هذا النظام ، اختفت كل آثار أحداث
الصباح تماما ، وعاد كل شيء الى سيرته الأولى . ولم يكن هناك
شيء يخيفه من ناحية الموظفين الثلاثة ، فقد غاصوا مرة أخرى بين
جمهور الموظفين الضخم ، ولم يظهر عليهم أى تغير يمكن ملاحظته .
ولقد استدعاهم الى مكتبه مرارا تارة فرادى وتارة مجتمعين ،
لا لهدف آخر ، الا لملاحظتهم ، وكان فى كل مرة يصرفهم مرتاحا
هادئ البال .

فلما وصل فى منتصف الساعة العاشرة امام البيت الذى
يسكن فيه ، التقى فى البوابة بشاب ، كان يقف فيه فاتحا سافيه
ويدخن غليونا . وساله ك على الفور : من انت ؟ . .

واقرب وجهه من الشاب ، فلم يكن من الممكن فى ظلام المدخل
أن يرى الانسان الكثير . وأجاب الشاب : أنا يا سيدى الكريم
ابن البواب . .

وأخرج الغليون من فمه وانتحى جانباً ، وسأل ك : ابن
البواب ؟ .. وخبط الأرض بعصاه ثائراً .

— هل يريد السيد الكريم شيئاً ؟ هل أنادى أبى ؟ .

وقال ك :

— لا .. لا ..

وكان فى صوته شيء من المذرة ، كما لو كان الشاب قد
أصابه بضر ، ففغر له ثم قال : لا بأس ..

وسار سبيله ، ولكنه قبل أن يصعد الدرج التفت وراءه
مرة ثانية .

كان يمكنه أن يذهب الى حجرته مباشرة ، ولكنه كان يريد
أن يكلم السيدة جروباخ ، فذهب من فوره الى حجرتها ، وقرع
الباب . كانت تجلس الى المائدة تصلح جوربا ، وكان على المائدة
تل من الجوارب القديمة . واعتذر ك وهو مشئت الفكر ، لحضوره
متأخرا ، ولكن السيدة جروباخ كانت لطيفة جسدا ولم ترد أن
تستمع الى اعتذارات ، وقالت انها دائمة تحت أمره ، عندما يريد
أن يتحدث اليها ، وأنه يعلم جيدا أنه أحسن وأحب سكانها اليها .
وتلفت فى الحجرة فوجدها عادت الى حالتها القديمة تماما ، ووجد
أن وائى طعام الافطار التى كانت من قبل على المنضدة الصغيرة
قرب النافذة قد أبعثت كما ينبغى . وفكر : « أبادى النساء تنجز
الكثير بهدوء » .. وتصور أنه ربما استطاع أن يحطم الأوانى فى
الحال ، ولكنه ما كان بلا شك يستطيع أن يحملها الى المطبخ ..
ونظر الى السيدة جروباخ نظرة فيها شيء من الامتنان . وسألها :
... إذن تستعملين الى هذا الوقت المتأخر ؟ ..

وجلس الاثنان الى المائدة ، وزاح لك يدفن يده من حين لآخر
فى الجوارب . وقالت :

— لدى عمل كثير .. بالنهار اكرس نفسى للسـكـان ، واذا
أردت أن أنظم أشيائى الخاصة فليس عندى سوى الأمسيات .
— لقد تسببت لك اليوم فى شغل خارق للعادة ! ..

وسألته وقد اشتد بها الحماس وترك شغلها فى حجرها :
— كيف هذا ؟ ..

فقال : أقصد الرجال الذين كانوا هنا صباح اليوم .

فقالت : آه .. !

ثم عادت الى هدوئها وأكملت :

— لم يسبب لى هذا مزيدا من الشغل ..

ونظر لك اليها صامتا وهى تعود الى تناول الجورب . وفكر ،
يبدو أنها تندم لى لأنى أتكلم فى هذا الموضوع ، ويبدو أنها لا تستصوب
منى أن أتكلم فيه . وان هذا لما يزيد أهمية فعلى ، فانا لا أستطيع
أن أتكلم فى هذا الموضوع الا مع امرأة عجوز . وعاد يقول :

— لا ، لقد تسبب لك بكل تأكيد فى مزيد من الشغل . ولكنه
لن يتكرر مرة أخرى .

وقالت مؤكدة : لا ، لا يمكن أن يتكرر مرة أخرى .

وابتسمت لك ابتسامة توشك أن تكون حزينة . وسال لك :

— هل انت جادة فى ذلك الراى ؟

فقالت بصوت منخفض :

- نعم . وعليك قبل كل شيء آخر الا تستصعب الامر . فما
 اكثر واعجب ما يحدث في الدنيا . ولما كنت تتكلم معي عن ثقة
 وود يا سيدك ، فيمكنني ان اعترف لك بانني انصت قليلا وراء
 الباب ، وبان الحارسين قصا على شيئا من الامر . ان الموضوع يتصل
 بمصيرك ، وهذا شيء يهمني جدا ، يهمني اكثر مما يحق لي فما انا
 الا صاحبة المسكن . اذن فقد سمعت شيئا ، ولكن لا يمكنني ان
 اقول انه على درجة خاصة من السوء . لا . حقيقة انك معتقل ،
 ولكنك لست معتقلا كما يعتقل اللص . عندما يكون الانسان
 معتقلا كاللص . فهذا شيء قبيح ، اما هذا الاعتقال . . انه يلوح لي
 كشيء من اشياء العلماء ، لا تؤاخذني ، عندما اقول شيئا فيه
 غباء ، انه يلوح لي كشيء من اشياء العلماء . . لا يمكنني ان افهمه
 ولكن ليس هناك ضرورة لفهمه .

وقال ك :

- ليس هناك غباء على الإطلاق في هذا الذي قلته ياسيدة
 جروباخ ، او على الأقل انا ارى اريك الى حد ما ، ولكنني احكم
 على الامر في مجموعه حكما اكثر حدة من حكمك ، فانا لا ارى فيه
 شيئا من اشياء العلماء ، بل ارى انه لا شيء على الإطلاق . لقد
 اخذت على غرة ، هذا كل ما في الامر . ولو انني بعد ان استيقظت
 لم اجمل عدم حضور « انه » يحيرني ، فنهضت ولم التفت الى
 كائن من كان يعترض طريقى ، وذهبت مباشرة اليك ، وتناولت
 طعام الافطار على سبيل الاستثناء في المطبخ مثلا ، ورجوتك ان
 تحضري لي ملابس من حجرتي ، او عبارة موزة ، لو كنت تصرفت
 بعقل ، لما جرى شيء ، ولاختنق كل شيء كان على وشك ان يصير
 شيئا . ولكنني كنت قليل الاستعداد . انا في البنك مثلا مستعد ،
 ومحال ان يحدث لي هناك شيء من هذا النوع . . لي هناك بخادم

خاص ، وهناك التليفون العام وتليفون المكتب امامى على المنضدة ،
وهناك سبيل لا ينقطع من الناس والجماعات والموظفين ، وعلاوة على
هذا بل وقبل كل شيء آخر انا هناك على صلة دائمة بالعمل ،
ولذلك فانا دائما حاضرا الفكر ، وسيكون من دواعى سرورى حقا
ان اجد نفسى هناك حيال امر من هذا النوع . ولكن الامر انتهى
ومر ، ولست اريد فى الحقيقة ان اتكلم فيه ، انما اردت ان اسمع
حكيمك ، حكم سيدة عاقلة ، ويسعدنى جدا اننا متفقان . وعليك
الآن ان تمدى يدك وتصافحنى ، فلابد ان يقوى مثل هذا الاتفاق
بمصافحة ..

— هل ستمد يدها الى ؟ ! ..

وفكر ك : المفتش لم يمد يده الى .. وراح ك ينظر الى المرأة على
نحو آخر متفحصا مختبرا . ونهضت السيدة لانه هو ايضا نهض ،
وكانت متحرجة نوعا ما ، لان ما قاله ك لها ، لم يكن كله مفهوما
منها ، وقالت تحت تأثير هذا التحرج شيئا لم تكن تريد ان تقوله
ولم يكن فى محله قط ، قالت :

— لا تحمل الامر يا سيد ك على هذا المحمل الصعب ..

وترقرقت الدموع فى صوتها ، ونسيت بطبيعة الحال المصافحة
ايضا .. وقال ك :

— لست اعرف اننى احمله محملا صعبا ..

وفجأة تملكه التعب ورأى تفاهة موافقات هذه المرأة كلها .
ولما بلغ الباب سال سؤالا آخر : هل الانسة بوستنر بالبيت ؟
وقالت السيدة جروباخ : لا ..

وابتسمت وهى تعطى هذه الاجابة الجافة ، ابتسامة فيها
تعاطف متاخر معقول :

— انها فى المسرح . هل تريد منها شيئا ؟ هل تريد ان ابلغها
شيئا ؟ .

— آه ، كنت اريد ان اتكلم معها كلمتين .

— لا اعرف للأسف متى تعود . وهى عندما تكون فى المسرح
ثانى عادة فى وقت متاخر .

وقال ك : ليس لهذا اية أهمية .

وادر راسه المطاطة ناحية الباب لينصرف وقال : لم اكن
اريد الا ان اعتذر لها عن شغلى حجرتها اليوم .

— ليس لهذا ضرورة يا سيد ك ، انك تباليغ فى مراعاة شعور
الآخرين ، والآنسة لا تعلم من هذا الامر شيئا ، فلم تكن بالبيت
منذ الصباح الباكر ، وقد عاد كل شيء فى حجرتها الى حالته ،
وتأكد بنفسك .

وفتحت له باب حجرة الآنسة بوستنر . وقال ك : شكرا فانا
اصدقك .

ولكنه ذهب الى الباب المفتوح ونظر . كان القمر يلقى اشعة
هادئة فى الحجرة المظلمة . كان كل شيء — على ما بدا له — منظما
فى مكانه ، كذلك البلوزة لم تعد معلقة على مقبض الشباك . اما
المخدرات فبدت غالية بشكل ملفت للنظر، وكان بعضها ظاهرا فى نور
القمر . وقال ك : الآنسة كثيرا ما تعود الى البيت فى وقت متاخر .
ونظر الى السيدة جروباخ كأنما كانت هى التى تحمل مسئولية
ذلك . وقالت السيدة جروباخ ملتزمة العذر : هكذا الشباب ! .

فقال ك : بلا شك ، ولكن من الممكن أن يصل الأمر الى بعيد .
 فقالت السيدة جروباخ : ممكن ، وانك لعلی حق يا سيد ك .
 وربما تكون على حق بنوع خاص فى هذه المرة بالذات . وأنا لا أريد
 بلا شك أن أقول على الأنسة بوسنتر ، فهى بنت طيبة لطيفة ودودة
 منتظمة دقيقة فى مواعيدها ، نشيطة ، وهذه أمور اقدرها اشد
 التقدير ، ولكن هناك شيء لابد أن يقال ، وهو انه ينبغي عليها أن
 تكون أكثر اعتدادا بنفسها وأكثر تحفظا . لقد رايتها فى هذا الشهر
 مرتين فى شوارع متطرفة ، وكانت فى كل مرة مع رجل آخر .
 وهذا شيء يؤلمنى ، وأنا لا أحكيه والله العظيم الا لك يا سيد ك ،
 ولكن لن يكون هناك مفر من أن أتكلم مع الأنسة نفسها فى هذا
 الموضوع . على أن هذا ليس هو الشيء الوحيد الذى يثير ريبتي
 تجاهها .

وقال ك غاضبا غير قادر على حبس غضبه :

— انك تسلكين طريق الخطأ ، والظاهر انك لم تفهمي الجملة
 التى قلتها عن الأنسة على الوجه الصحيح ، فلم أقصد الى شيء
 مما قلته . بل اننى احذرك مخلصا من التحدث الى الأنسة بشيء ،
 فانت مخطئة كل الخطأ ، وأنا اعرف الأنسة جيدا جدا وليس فيما
 قلته عنها كلمة صدق . ولكن ربما اكون أنا مبالغا ، ولست أريد
 أن أعوقك عما تعتزمين فعله ، قولى لها ما تريدين . طابت ليلتك !
 وقالت السيدة جروباخ متوسلة : يا سيد ك .

وأسرع ك الى بابه وفتح به . واكلمت السيدة جروباخ
 كلامها : أنا لا أريد أن أتكلم الآن مع الأنسة ، بل أنوى
 بطبيعة الحال أن أستمر فى مراقبتها ، ولم أسر الا اليك
 بما أعرف . ثم إن هذا شيء ينبغي أن يكون واضحا فى ذهن كل
 مستأجر ساكن عندى ، اذا أراد الانسان أن يبقى على البنسيون
 نظيفا ، وليس لى من هدف آخر غير هذا .

وصاح لك من خلال فتحة الباب : النظافة ! اذا كنت تريد ان تبقى على بنسيونك نظيفا فلا بد ان تخرجيني اولا . ثم قفل الباب بعنف ، ولم يلتفت الى قرع خفيف على الباب .

ثم قرورك ، نظرا لانه لم تكن لديه رغبة في النوم ، ان يظل يقظا ، وأن يتبين بهذه المناسبة متى ستعود الأنسة بورستر . وربما كان من الممكن ، وان بدا الأمر عديم اللياقة ، أن يتكلم معها كلمتين . وبينما تمدد عند النافذة وأقفل عينيه المتعبتين ، فكر لحظة في أن يعاقب السيدة جروباخ ، ويقنع الأنسة بورستر بأن تقدم معه انذارا اليها بترك الحجرة . ولكن هذا التصرف ما لبث ان لاح له مبالغا فيه الى نحو فظيخ ، بل واتهم نفسه بأنه انما يريد أن يغير سكنه نتيجة للاحداث التي جرت في الصباح . وليس هناك تصرف أشد حمقا ولا أبعد عن الهدف ولا أكثر نكرا من هذا التصرف .

ولما تعب لك من التطلع الى الشارع الخالي ، تمدد على الأريكة ، بعد أن وارب الباب الموصل الى الحجرة الامامية قليلا ، ليتمكن من رؤية من يدخل المسكن على الفور من فوق أريكته . وظل راقدا في هدوء الى الساعة الحادية عشرة تقريبا ، يدخن سيجارا . عندئذ لم يعد يحتمل البقاء في مكانه ، وذهب قليلا الى الحجرة الامامية ، كما لو كان بهذا يستطيع أن يعجل بقدوم الأنسة بورستر . لم تكن لديه رغبة خاصة تدفعه اليها ، بل انه لم يكن حتى يتذكر منظرها ، ولكنه أراد أن يتكلم معها ، وكان تأخرها في الحضور يثيره لأنه يحول ختام هذا اليوم الى القلق والاضطراب . كذلك كانت الأنسة هي المسئولة عن انه لم يتناول طعاما هذا المساء وعن انه صرف النظر عن زيارة الزه التي كان ينوي عليها اليوم . على أن هذين أمران يمكنه أن ينالهما اذا هو ذهب الآن الى

الحانة التي تعمل فيها الزه . ولهذا فكر في أن يذهب إلى تلك الحانة بعد أن يفرغ من الحديث مع الأنسة بورسترن .

فلما تجاوزت الساعة منتصف الثانية عشرة ، سمع شخصا يقيير السلم . وكان ك قد اندمج في أفكاره وبقي في الحجرة الامامية كما لو كانت حجراته الخاصة ، وراح يقطعها جيئة وذهابا ، فلما سمع ان شخصا يقبل هرب واختفى وراء باب حجراته . كان القادم هو الأنسة بورسترن . كانت الأنسة ترتعش من البرد انشدت حول كتفها النحيلتين شالا من الحرير ، بينما قفلت باب البنسيون . كانت في اللحظة التالية ستدخل بلا شك الى حجرتها التي لم يكن لك أن يدخلها في منتصف الليل . اذن فعليه أن يكلمها الآن . ولكنه كان قد نسي لسوء الحظ أن يضيء النور الكهربى في حجراته ، مما سيجعل خروجه من الحجرة المظلمة يبدو كأنه تهجم عليها ويصيبها بالفزع الشديد . وهمس من خلال فتحة بابه الموارب وقد اخذته الحيرة وأحس بأنه ليس لديه وقت يضيعه : يا آنسة بورسترن !

وانطلقت هذه العبارة كاللتماس لا كالدعاء . وسالت الأنسة بورسترن وهى تنظر حوالها بعينين واسعتين : هل هنا أحد ؟

وقال ك : انا ! وتقدم إليها .

وقالت الأنسة بورسترن مبتسمة : آه ، السيد ك . مساء الخير . ومدت يدها اليه .

— أردت أن اتكلم معك كلمتين ، فهل تسمحين بأن يتم ذلك الآن ؟ .

وسالت الأنسة بورسترن : الآن ؟ هل لابد أن يتم ذلك الآن ؟ ليس في هذا شيء من الغرابة ؟ .

– لقد انتظرت حضورك منذ الساعة التاسعة .

– وكنت انا فى المسرح ، ولم اكن اعلم انك تريد منى شيئا .

– السبب الذى يدعو الى ما ساقوله لك ، لم يطرأ الا اليوم .

– هكذا . وانا ليس لدى مانع مبدئيا ، ولكننى متعبة اكاد

اسقط من فرط التعب . فتعال الى حجرتى دقيقتين . فلا يمكننا

ان نتكلم هنا بحال من الأحوال ، لاننا بهذا نوقظ الناس جميعا ،

وهذا من شأنه ان يسبب لى الاحراج ، من اجلنا اكثر مما يسببه

لى من أجل الناس . انتظر هنا الى ان اضىء النور بحجرتى ثم

اطفىء النور هنا .

وفعل لك كما ارادت ، وانتظر حتى طلبت اليه الانسة بورسترن

من حجرتها بصوت خفيض ان يأتى . وقالت له وهى تشير الى

الأريكة : اجلس .

اما هى فقد ظلت واقفة عند عمود السرير رغم تعبها الذى

تحدثت عنه . حتى قبعتها الصغيرة المزينة بكمية كبيرة من الزهور

لم تخلصها .

– ماذا تريد ؟ انا مشتاقة جدا لمعرفة ما تريد . وعقدت

ساقها قليلا . وقال لك : قد تقولين ان المسألة ليست عاجلة ملحة ،

حتى تناقش فى هذا الوقت ، ولكن ...

فقالت الانسة بورسترن : انا عادة لا التفت الى المقدمات .

فقال لك : وهذا مما يسهل مهمتى . لقد حدث لحجرتك اليوم

صباحا شىء من الاضطراب ، نتيجة لدنبنى على نحو ما ، وقد حدث

هذا الاضطراب على يد انااس اغراب وضد رغبتى ، ولكنه حدث ، كما

قلت ، نتيجة لدنبنى . وقد اردت ان التمس منك لهذا المذرة .

وسالت الأنسة بورسترن : حجرتى ؟ . ونظرت لا الى الحجرة ، بل الى ك نظرة فاحصة .

فقال ك : هذا هو ما حدث .

ونظرا احدهما فى عينى الآخر للمرة الاولى . وقال ك : الطريقة التى حدث بها هذا لا تستحق أن يشير اليها الانسان بكلمة .

وقالت الأنسة بورسترن : ومع هذا فهى بالذات الشئ المهم . فأجاب ك : لا . . .

وقالت الأنسة بورسترن : هه ، لست أريد أن أندس فى اسرار ، وإذا كنت تصر على أن الأمر غير ذى أهمية ، فليست أريد أن أعترض على هذا بشئ . والمعذرة التى تطلبها منى ، أنا أعطيك إياها عن طيب خاطر ، خاصة واننى لا أجد أدنى أثر للاضطراب هنا .

وسارت واضعة يدها المبسوطتين على خصرها فى الحجرة ودارت دورة . فلما بلغت الحصورة التى عليها الصور الفوتوغرافية وقفت . وصاحت : هل رأيت هذا ! حقيقة لقد حدث اضطراب فى صورى الفوتوغرافية . ما أقبح هذا الاضطراب ! هذا يعنى أن شخصا ما دخل حجرتى بغير وجه حق .

وأوما ك موافقا ولعن فى سره الموظف كامينر ، الذى لم يستطع أن يكبح جماح نشاطه الفج السخيف .

وقالت الأنسة بورسترن : من العجيب أن أرى نفسى مضطرة الى أن أحرم عليك شيئا أنت ذاكك تحرمه على نفسك ، وهو أن تدخل فى حجرتى أثناء غيابى .

وقال ك : لقد شرحت لك الأمر يا آنسة .

ثم ذهب هو ايضا الى الصور الفوتوغرافية، و اضاف : و قلت لك اننى لست ذلك الذى اعتدى على الصور ، ولكن ما دمت لا تصدقنى ، فينبغى على أن اعترف لك أن لجنة التحقيق اتت بثلاثة من موظفى البنك ، اعتقد أن واحدا منهم ، وسوف أقذف به خارج البنك فى اقرب فرصة ، مد يده الى الصور . نعم ، لقد كانت لجنة التحقيق هنا .

أضاف ك الجملة الأخيرة عندما رأى الأنسة تنظر اليه نظرة تساؤل . وسالت : كانت هنا من أجلك ؟

وأجاب ك : نعم .

فصاحت الأنسة : لا ، وضحكت .

وقال ك : بلى ، كانت هنا من اجلى ، أم هل تعتقدين اننى برىء ؟

وقالت الأنسة : هه ، برىء . . لست أريد أن انطق فى الحال بحكم قد يكون عظيم التبعة ، ثم اننى لا أعرفك ، ولا بد أن من تلاحقه لجنة التحقيق مجرم ارتكب جرما فظيما . وما دمت طليقا - وأنا استنتج من هدوئك أنك لم تكن بالسجن وسرحت منه - فلا يمكن أن تكون قد ارتكبت مثل هذا الجرم .

واقال ك : نعم ، ولكن من الممكن أن تكون لجنة التحقيق قد تبينت اننى برىء أو اننى لم ارتكب الذنب على النحو المتصور .

وقالت الأنسة بورستنر بانتباه كبير : بكل تأكيد ، هذا ممكن .

وقال ك : هكذا ! ليس لديك خبرة كبيرة بأمور المحاكم .

فقالت الأنسة بورستنر : لا ، ليس لدى هذه الخبرة . وكثيرا ما أسفت لأنها ليست لدى ، فانا أحب أن أعرف كل شيء ، وأمور

المحاكم بالذات تهمنى أهمية كبيرة . فالمحكمة لها جاذبية عجيبة ،
اليس كذلك ؟ ولكنى سوف أكمل معلوماتى فى هذه الناحية بكل
تاكيد ، لأننى سأعمل ابتداء من الشهر القادم كموظفة إدارية فى
مكتب محام .

فقال لك : هذا شيء عظيم ، فسيكون فى استطاعتك أن تساعدنى
فى قضيتى قليلا .

فقالت الأنسة بورسترن : هذا ممكن ، ولم لا ؟ فأنا أحب أن
أستخدم معلوماتى .

وقال لك : وأنا أقول هذا جادا ، أو على الأقل فى شيء من الجد
هو مثل جدك . فالأمر اتفه من أن أستمع فيه بمحام ، ولكنى
أفيد بلا شك من ناصح ذى مشورة .

وقالت الأنسة بورسترن : وإذا كان على أن أنصح وأعطى
المشورة ، فلا بد أن أعرف الموضوع .

وقال لك : هذه هى المشكلة ، فأنا نفسى لا أعرفه .

وقالت الأنسة بورسترن وقد أصابتها خيبة أمل مفرطة : إذن
فأنت تسخر منى، وما كان هناك ضرورة قط لاختيار هذا الوقت المتأخر
من الليل لهذا المزاح .

وابتعدت عن الصور الفوتوغرافية التى ظلت تقف وإياه عندها
مدة طويلة .

وقال لك : لا ، يا آنسة ، لست أمزح . ومالك لا تريد
تصديقى ! لقد قلت لك ما أعرف . بل لقد قلت لك أكثر مما
أعرف ، لأن اللجنة التى كانت هنا لم تكن لجنة التحقيق ، أنا
أسميها كذلك ، لأننى لا أعرف لها اسما غير هذا . فلم يحدث

تحقيق ، كل ما حدث هو اننى اعتقلت ، واعتقلت على يد لجنة .
وجلست الانسة بورسترن على الأريكة وراحت تضحك من
جديده . وسالت : وكيف حدث هذا ؟

وقال ك : حدث هذا على نحو فظيع .

ولم يعد ك الآن يفكر فى الموضوع ، بل كان مأخوذا بالتطلع
الى الانسة بورسترن ، التى أسندت وجهها الى احدى يديها - بينما
أسندت كوعها على مخدة فوق الأريكة - وراحت تمسح باليد
الأخرى ببطء على ردفها .

وقالت الانسة بورسترن : هذا كلام عام مفرط فى العمومية .
وسأل ك : ما هذا الذى تقولين عنه انه عام مفرط فى
العمومية ؟ .

ثم تذكر وسألها : هل أريك كيف جرى ما جرى ؟ .
واراد أن يقوم بحركة دون أن يستعد .

وقالت الانسة بورسترن : لقد استبدى التعب .

وقال ك : لقد أتيت متأخرة جدا .

فقالت : وما هو ذا الأمر ينتهى بأن أتلقى منك ضروب
اللوم ، ولك حق فى هذا ، فما كان ينبغى على أن أدعك تدخل .
واقدر تبين لى أن دخولك لم يكن ضروريا .

وقال ك : بل كان ضروريا ، كما ستبينين الآن . هل تسمحين
لى بأن أزعج المنضدة الصغيرة من جانب السرير الى هنا ؟

وقالت الانسة بورسترن : ماذا خطر ببالك ؟ هذا شيء لا يمكن
أن أسمح لك به طبعاً !

وقال ك نائرا كما لو كان ضرر بليغ قد ألم به نتيجة لردّها :

— إذن فلن يمكنني أن أريك شيئا .

وقالت الأنسة بورسترن : إذا كنت تحتاج إليها في التمثيل فحركها بهدوء . وأضافت بغد هنيهة بصوت أضعف : لقد استبدت في التعب إلى درجة أسمح فيها بأكثر مما ينبغي .

ووضع ك المنضدة الصغيرة في وسط الحجرة وجلس وراءها وقال : لا بد أن تتصورى توزيع الأشخاص تصورا صحيحا فقيه شيء من الطراقة . أنا والمفتش هنا ، وهناك فوق الصندوق يجلس حارسان ، وعند الصور الفوتوغرافية يقف ثلاثة من الشبان . وعلى مقبض الشباك تتدلى ، وهذا شيء أذكره على الهامش ، بلوزة بيضاء . والآن تبدأ الحكاية . آه ، لقد نسيت نفسي . نسيت أهم شخص ، أنا ، أنا أقف هنا أمام المنضدة الصغيرة . المفتش يجلس مرتاحا غاية الراحة ، يضع ساقا فوق ساق ، ويدلي ذراعه هنا خلف المسند ، رجل أحمر لا مثيل لحمقه . والآن تبدأ الحكاية فعلا . المفتش يصيح كما لو كان يريد أن يوقظني من نوم ، أنه أصبح بمعنى الكلمة ، وينبغي على للأسف إذا كنت أريد أن أوضح الموضوع لفهمك ، أن أصبح أنا أيضا ، على أنه لم يصح إلا باسمي فقط ، وكان صياحه على هذا النحو .

دو ضمت الأنسة بورسترن التي كانت تستمع إلى ك ضاحكة أصبع السبابة على فمها لتحول بين ك وبين الصياح ، ولكنها تأخرت في ذلك . وكان ك قد اندمج في الدور ، وصاح ببطء : يوزف ك !

ولكن صياحه لم يكن مرتفعا على النحو الذي هدد به ، وإن كان قد بدا كأنه أخذ ينتشر تدريجيا في الحجرة بعد أن أطلقه ك بعته .

حينئذ قرع احدهم باب الحجرة المجاورة عدة مرات بقوة وبطء وانتظام . وشجبت الأنسة بورسترن ووضعت يدها على قلبها . وفزع له فزعاً شديداً خاصة لأنه ظل هنيهة عاجزاً تماماً عن أن يفكر فى شيء آخر سوى ما حدث فى الصباح والبنات التى يمثله امامها . وما كاد يعود الى نفسه حتى قفز الى الأنسة بورسترن وتناول يدها . وهمس فى اذنها : لا تخافى ، سأصلح كل شيء . ولكن من يمكن ان يكون بالباب ؟ الحجرة التى بجوارنا هى حجرة المعبشة التى لا ينام فيها أحد .

وهمست الأنسة بورسترن فى اذن ك : بل هناك من ينام فيها . منذ أمس ينام فيها ابن اخ السيدة جروبناخ ، وهو ضابط برتبة رائد . فليست هناك حجرة أخرى خالية له . لقد نسيت هذا أنا أيضاً . ماذا دهالك حتى صرخت هكذا ! ما أتعسنى بهذا ! .

وقال ك : ليس هناك سبب لذلك على الإطلاق . وقبل جبينها بينما هوت هى على المخدة .

وقالت : ابعد ، ابعد !

وأعتدلت من جديد بسرعة قائلة : اذهب ، انصرف ، ماذا تريد ؟ انه ينصت بالباب ، انه يسمع كل شيء . انك لتعذبنى !

وقال ك : لن انصرف الا بعد ان تكونى قد هدأت نوعاً ما . تعالى الى الركن الآخر من الحجرة ، فعندما تكون هناك لا يستطيع أن يسمعنا .

وتركنه يأخذها الى هناك . وقال : لعل ما حدث هو شيء سخيف بالنسبة لك ، ولكنه ليس بالشئ الخطير بتاتا . وانت تعلمين كيف تبجلنى السيدة جروبناخ بمعنى الكلمة ، وهى التى نها الفصل فى هذا الموضوع ، خاصة وأن الضابط ابن اخيها ،

وتعلمين ايضا ، كيف تصدق كل ما اقله لها بلا جدال . ثم انها الى هذا مرتبطة بى بتبعية ، لانها مدينة لى بمبلغ كبير . وساقبل كل اقتراح من اقتراحاتها لتفسير لقائنا اذا كان يتفق والهدف ، وانا اعاهدك على ان احمل السيدة جروباخ لا على ان تظهر بمظهر تصديق التفسير امام الناس فحسب بل على ان تؤمن به بحق واخلاص فى ذات نفسها ايضا . ولا ينبغي ان تعمل لى حسابا فى هذا الموضوع بحال من الأحوال . اذا اردت ان تعلمنى على الناس اننى هجمت عليك ، فسأبلغ السيدة جروباخ الخبر بهذا المعنى ، وستصدق ، دون ان تفقد ثقتها فى ، فانها شديدة التعلق بى .

وكانت الأنسة بورسترن تنظر أمامها الى الأرض ساكنة خائرة نواها ما . وأضافت : ولماذا لا تظن السيدة جروباخ اننى انا التى هجمت عليك ؟ .

ورأى ك امامه شعرها ، شعرا محمر اللون ، مفروقا ، مضغوطا مضموما معا . وظن انها ستوجه اليه بصرها ، ولكنها قالت دون ان تغير وضعها : معذرة فقد اصابنى الفزع نتيجة قرع الباب فجأة ، لا نتيجة النتائج التى يمكن ان تكون لوجود الضابط . لقد ساد الهدوء بعد صرختك ، ثم فجأة اتى الخبط ، وهذا هو ما افزعنى . ثم اننى كنت اجلس بجانب الباب ، وكان الخبط بجوارى تماما تقريبا . وانا اشكرك على مقترحاتك ، ولكنى لا اقبلها . فانا استطيع ان احمل مسؤولية كل ما يحدث فى حجرتى ، احملها امام كل انسان . وانا ادعش من انك لا تلاحظ ما فى اقتراحاتك من اهانة لى ، الى جانب ما فيها من نوايا طيبة ، اعترف بها . ولكن الآن اذهب ، دعنى وحدى ، فانا اكثر حاجة

إلى هذا من ذى قبل . وقد تحولت الدقائق التي طلبتها منى إلى نصف ساعة أو أكثر .

وأمسك لك بذعها ثم معصمها ، وقال : أرجو ألا تكونى قد غضبت منى ؟

فابتعدت يده وأجابت : لا ، لا ، لم اغضب قط من أحد .

ومد يده من جديد إلى معصمها ، فصبرت على ذلك هذه المرة ، وقادته إلى الباب . وكان مصمما على أن ينصرف . فلما بلغ الباب ، وكأنه لم يكن يتوقع أن يجد فى هذا الموضع بابا ، وقف ، فانهزت الأنسة بورسترن الفرصة وأفلتت ، وفتحت الباب وتسللت إلى الحجرة الأمامية لتقول منها لك بصوت خفيض :

— تعال الآن ، من فضلك . انظر ..

وأشارت إلى باب الضابط وكان ضوء ينفذ من تحته .

— لقد اضاء النور ليتحدث فى امرنا .

وقال لك : أنا آت .

ثم تقدم مسرعا وأمسكها وقبلها على فمها ثم على وجهها كله ، وكأنه حيوان ظمان يدلى لسانه فى ماء عين يجده بعد طول ظمأ . وأخيرا قبلها على رقبتها ، حيث الحلقوم ، وترك شفثيه عليها مدة طويلة .

وانبعثت ضوؤاء من حجرة الضابط فرفع لك عينيه وقال : سأنصرف الآن .

وراد أن ينادى الأنسة بورسترن بأسمها الصغير ، ولكنه لم يكن يعرفه .

واومأت الأنسة براسها واهنة ، وتركت له يدها يقبلها وقد
اشاحت عنه قليلا كأنها لا تعلم بما يفعل ، وعادت منحنية الظهر
الى حجرتها . وبعد قليل كان ك يرقد فى فراشه . وأخذ الثعالب
بسرعة ، وفكر قبل أن يستغرق فى النوم تماما فى مسئلة هتية ،
وكان راضيا عنه ، ولكنه اندهش لأنه لم يكن أكثر رضاء به ،
وساورته مخاوف شديدة على الأنسة بورسترن من ناحية الضابط .

الفصل الثاني

• التحقيق الأول —

أبلغ ك تليفونيا بأن تحقيقا صغيرا سيجرى في موضوعه في يوم الأحد التالي . ولقت من أبلغه بهذا نظره الى ان هذه التحقيقات ستجرى بصفة منتظمة ، ربما ليس كل اسبوع ، ولكن بكثرة ، التحقيق تلو الآخر ، وان المصلحة العامة تقضى بالتعجيل بانتهاء القضية من ناحية ، ومن ناحية ثانية يجب ان تكون التحقيقات عميقة من كل ناحية على الا تدوم مدة طويلة بحال من الاحوال نظرا للجهد المتصل بها . وهذا هو السبب الذي ادى الى اختيار حل الالتجاء الى محاكمات قصيرة متتابعة بسرعة . كذلك كان مرجع اختياره يوم الأحد هو عدم تعطيل ك عن ممارسة عمله في وظيفته . وقال له المتكلم انهم يتوقعون ان يكون موافقا على هذا فاذا كان يرغب في موعد آخر ، فانهم سيحققون رغبته ، في حدود الامكان . وقال ان التحقيقات من الممكن ان تجرى مثلا في الليل ، الا ان ك لن يكون في هذا الوقت نشيطا على نحو كاف . ولكنهم على اية حال سيقبضون على يوم الأحد ، اذا لم يعترض ك . وقال له انه لابد ان يمس امام المحكمة ، وان هذا شيء ليس بحاجة الى التاكيد او التنبيه . وذكر له رقم المبنى الذي عليه ان يذهب اليه وهو بيت في شارع بأقصى المدينة متطرف ، لم يسلكه ك من قبل قط .

ووضع ك السماعه بعد ان تلقى هذا البلاغ ، دون ان يجيب
بشئ . وكان على الفور مصمما على أن يذهب يوم الأحد ، فهذا
شئ ضرورى بكل تأكيد ، لأن القضية ستبدأ وينبغى عليه أن يتقدم
لها ، ولأنه كان يعتقد أن هذا التحقيق الأول لابد سيكون هو
التحقيق الأخير . وظل واقفا عند جهاز التليفون يفكر ، فسمع
خلفه صوت نائب المدير ، جاء يتصل بالتليفون ووقف ك فى سبيله
وسال نائب المدير ك عابرا :

— اخبار سيئة ؟ .

ولم يكن يسال ليعرف شيئا ، ولكن ليبعد ك عن التليفون .
وقال ك :

— لا . لا .

وابتعد الى جانب ، ولكنه لم ينصرف . وتناول نائب المدير
السماعة وقال من فوق السماعه وهو ينتظر أن يتم الاتصال :

— عندى سؤال يا سييد ك : هل تتكرم وتسعدنى صباح الأحد
القادم بالاشتراك فى حفلة ساقيمها على مركبى الشراعى ؟
وسيشترك فيها جمع كبير ، سيكون من بينهم بلا شك معارفك ،
ومنهم النائب العام هاسترر . هل تريد أن تأتى ؟ تعال .

وحاول أن ينتبه الى هذا الذى كان نائب المدير يقوله ، ولم يكن كلامه مجردا من الأهمية ، لأن هذه الدعوة الموجهة من نائب المدير ، الذى لم يكن على تفاهم معه قط ، كانت تعنى محاولة تصالح من جانبه ، وكانت تبين الأهمية التى وصل إليها فى البنك ، وكيف أن صداقته أو على الأقل حياده شيء يبدو ذا قيمة فى نظر الرجل الثانى فى البنك . كانت هذه الدعوة تعتبر اذلالا لنائب المدير ، حتى ولو كان قد وجهها وهو ينتظر أن يتم اتصال تليفونى طلبه، ومن فوق السماعة . ولكن كـ اضطر الى أن يتبع هذا الإذلال اذلالا آخر ، فقال :

— شكرا جزيلًا ! ولكن ليس لدى للأسف وقت يوم الأحد ، فهناك مهمة التزمت بها .

وقال نائب المدير :

— يا للأسف !

والتفت الى الحديث التليفونى ، الذى كان فى هذه اللحظة قد اتصل ، كان الحديث التليفونى قصيرا ، ولكن كـ بقى حتى نهايته واقفا بجانب الجهاز مشتمت الفكر فلما ختم نائب المدير الحديث ، فزع كـ وقال ملتصبا شيئا من العذر لبقائه بدون ما فائدة:

— لقد تلقيت لتوى مكالة تليفونية تطلب منى أن اذهب الى مكان ما ، ولكن المتكلم نسى أن يقول لى الساعة التى احضر فيها .
وقال نائب المدير :

— فاتصل به لتسأل .

وقال كـ : ليس هذا الأمر شديد الأهمية .

قال هذا على الرغم من أن اعتذاره السابق والذى كان فى حد ذاته معيبا ، يرداد بهذه العبارة ضعفا . وتكلم نائب المدير وهو فى طريق الانصراف عن أمور أخرى غير الدعوة وأكره كـ نفسه على الإجابة، ولكنه كان بصفة أساسية يفكر فى أن افضل شيء هو أن يذهب

الى هناك فى الساعة التاسعة صباحا ، لان المحاكم اعتادت فى ايام الاسبوع العادية ان تبدأ فيها .

كان الجو يوم الأحد جوا معتما . وكان ك متعبا جدا لانه بقى فى الحانة الى وقت متأخر بالليل لحفل اقامه رواد المنضدة التى اعتاد أن يجلس اليها . واوشك أن يضيع الموعد بالاستغراق فى النوم . وارتدى ملابسه على عجل دون ان يكون لديه وقت ليفكر وينظم مخططاته المختلفة التى توصل اليها اثناء الاسبوع ، وجرى دون ان يتناول طعام الإفطار الى الضاحية التى عينت له . ومن الغريب أنه ، على الرغم من أنه لم يكن لديه وقت للتلفت حواليه ، التقى بالموظفين الثلاثة الذين اشتركوا فى مسالته ، رابنشتاينر وكوليش وكامير . كان الاثنان الأولان يركبان الترام الذى يفتح خطه طريق ك ، اما كامير فكان جالسا فى شرفة مقهى ، وانحنى فى الوقت الذى مر فيه ك بالضبط فوق الدرابزين يتطلع اليه بفضول . ولا شك ان الثلاثة تابعوه بأبصارهم وتمجبوا من ان رئيسهم يجرى فى الشارع فقد تملك ك عناد ما منعه من أن يستقل اى وسيلة من وسائل المواصلات ، لانه كان يعاف كل مساعدة غريبة مهما صغرت فى هذه القضية الخاصة به ، كذلك لم يشأ ان يستعين بأحد حتى لا يكون عليه ان يحكى له شيئا عن المسألة مهما كان من الضالة ، ثم انه لم يحس أقل رغبة فى ان يدل نفسه أمام لجنة التحقيق بان يحافظ على المواعيد فى دقة مسرفة . ولكنه راح يجرى الآن ، فى الطريق ليصل فى الساعة التاسعة ما أمكن ، على الرغم من أنه لم يكن قد استدعى لساعة بعينها .

كان ك قد فكر انه سيتعرف على البيت من بعيد بعلامة ما لم يتصورها بوضوح او بحركة خاصة امام المدخل . ولكن شارع يوليوس الذى كان مفروضا أن يقوم فيه البيت ، والذي وقف ك عند بدايته لحظة ، كان يضم على جانبيه كليهما بيوتا توشك أن تكون متخذة على نمط واحد ، بيوتا عالية رمادية يسكنها فقراء

بالأجر. كانت معظم النوافذ فى هذا الوقت ، يوم الأحد صباحا غاصة بالناس ، برجال لا يلبسون شيئا فوق القمصان ويدخنون او يحملون بين ايديهم اطفالا صفارا بحذرو عطف عند حافة النوافذ. وكانت هناك نوافذ أخرى ممتلئة الى اعلاها بفرش السراير وكانت تظهر من فوقها رأس امرأة منكوشة الشعر . وكان الناس ينادى بعضهم البعض عبر الحارة ، وقد ادى نداء من هذا النوع بـ ك الى ضحكة كبيرة . وكانت هناك فى الشارع ، محلات بقالة مختلفة موزعة بانتظام ، منخفضة على مستوى الشارع ، يصل الناس اليها بهبوط درجات سلم قليلة . كانت النساء تدخل وتخرج او تقف فوق الدرج وتثرثر . وجاء بائع فاكهة ينادى على بضاعته ويعرضها على من بالنوافذ ، وأوشك ، فى شروده الذى يشبه شرودك ، ان يصدمك بعربته ويقلبه. ثم بدأ جهاز جراموفون عتيق فى عزف شيء بطريقة قاتلة .

وتوغل ك فى الحارة ببطء، كمالو كان عنده متسع من الوقت، او كمالو كان قاضى التحقيق يراه من نافذة من هذه النوافذ ويعلم انه قد وصل. كانت الساعة تشير الى بعد التاسعة بقليل. كان البيت بعيدا بعدا واضحا ، وكان ممثدا امتدادا يوشك ان يكون خارجا عن المألوف ، وكان المدخل خاصة عاليا واسعا ، ويبسود انه كان مخصصا لدخول الشاحنات المنقولة بسيارات النقل والخاصة بالمحلات التجارية المختلفة ، التى تحيط بالفناء الكبير والتى كانت الآن مغلقة، وكانت هذه المحلات تحمل لافتات باسم الشركات التى تملكها، وكان ك يعرف عددا منها من عمله فى البنك . ووقف عند مدخل الفناء قليلا على خلاف عادته فى الاهتمام بكل هذه النواحي الخارجية اهتماما دقيقا. وكان هناك قريبا منه رجل حافى القدمين يجلس على صندوق يقرأ فى جريدة . وكان هناك صبيان يتأرجحان على عربة يد . ووقفت أمام مضخة ماء بنت صغيرة السن ضعيفة البدن فى قميص النوم وكانت تنظر الى ك بينما انساب الماء من

المضخة في الوعاء الذي أتت به . وكان في ركن من أركان الفناء
 حبل مد بين سباكين ، علق عليه الملابس المغسولة لتجف .
 ووقف رجل في الفناء يدبر العمل من أسفل بصيحات يطلقها .
 واتجه ك الى السلم . ليصل الى حجرة التحقيق ، ثم ما لبث
 ان وقف ساكنا ، لانه رأى على هذا السلم مداخل ثلاثة أخرى
 توصل الى سلالم ، هذا بالإضافة الى معر صغير بدا في نهاية
 الفناء وكأنما كن يوصل الى فناء ثان . واغتاض ك لانهم لم يبينوا
 له مكان الحجرة بالضبط ، لقد عاملوه باهمال او استهتار عجيب
 ونوى على ان يذكر ذلك في التحقيق بوضوح وبصوت عال . واخيرا
 صعد الدرج ودأبت فكره ذكرى كلمة الحارس « فيليم » اليه ان
 الذنب يجتذب المحكمة واستنتج من هذه الكلمة ان تكون حجرة
 التحقيق عند السلم الذي اختاره مصادفة .

وأقلق أثناء صعوده كثيرا من الاولاد كانوا يلعبون على السلم ،
 وتطلعوا اليه بالشر عندما شق صفهم . وقال في نفسه : « اذا
 حدث وكان على ان احضر الى هذا المكان مرة ثانية ، فلا بد ان
 احضر معي اما حلويات لاكسبهم بها او عصا لاضربهم بها . » وكان
 عليه قبل الوصول الى الدور الاول ان يقف هنيئة الى ان تتم كرة
 من تلك التي كان الاولاد يلعبون بها مشوارها . وكان صبيان صغيران
 وجهاهما ملتويان كأوجه كبار الأشقياء يمسكان بينظونه في هذه
 الأثناء . ولو انه هزهما ليعبدهما عنه لاصابهما بأذى ، وكان يخشى
 صراخهما .

وبدأت عملية البحث الحقيقية في الدور الاول . ولما لم يكن ك
 يستطيع ان يسأل عن لجنة التحقيق ، فقد اخترع شخصية نجار
 أسماه لانتس - وقد خطر الاسم بباله لان الضابط ابن اخى السيدة
 جروباخ كان يسمى بهذا الاسم - واراد ان يسأل في كل المساكن
 هل يسكن بها نجار اسمه لانتس ، ليتيح لنفسه امكانية التطلع
 داخل الحجرة . وقد تبين بعد ذلك ان التطلع داخل الحجرات امر

ممكن حتى بدون ذلك في اغلب الاحوال ، لان كل الابواب تقريبا كانت مفتوحة ، وكان الاولاد يدخلون ويخرجون منها . كانت تلك الحجرات بصفة عامة حجرات صغيرة ، لها شباك واحد ، وكان السكان يطبخون طعامهم فيها ايضا . وكان بعض النساء بها يحملن على ذراعهن اطفالا لرضعا ، ويعملن باليد الأخرى في القطن . وكانت هناك بنات مراقبات لا يرتدين على ما يبدو سوى مرايل ، ويجرين هنا وهناك بمنتهى النشاط . وكانت هناك في كل الحجرات مضاجع ، ما يزال بها بعض الناس ، كان يرقد بها مرضى او نيام ، أو أناس يمددون بكامل ثيابهم . وكان ك يقرع ابواب المساكن المغلقة ويسأل عما اذا كان النجار لانتس يسكن فيها . وكثيرا ما كانت امرأة تفتح الباب وتسمع السؤال وتلفت في الحجرة الى أحد فينهض من السرير وتقول له :

- هذا السيد يسأل هل يسكن هنا النجار لانتس ؟

ويسأل الناهض من السرير :

- النجار لانتس ؟

فيقول ك : نعم . . . رغم انه تبين بدون شك أن لجنية التحقيق ليست هنا ، وأن مهمته هنا قد انتهت . وكان هناك كثيرون يصدقون أن ك مهم جدا بالعثور على النجار لانتس ، وكانوا يطيلون التفكير ، ويذكرون اسم نجار آخر غير لانتس ، أو يذكرون اسما بينه وبين لانتس شبه بعيد ، أو كانوا يسألون عند الجيران أو يرافقون ك الى سكن بعيد يعتقدون ان مثل هذا الرجل ربما يسكن فيه من الباطن أو أن فيه من يستطيع ان يعطى بيانات احسن من تلك التي يعرفونها . وفي النهاية اصبح لا يسأل بنفسه الا قليلا ، وأصبح يسير وراء مرشديه خلال الادوار . وزدتم على خطته التي لاحت له في أول الامر عملية جدا . ولما بلغ مطلع الدور الخامس قرر أن يقطع عن البحث واستأذن من العامل الشاب اللطيف الذي ازاد ان يقوده الى ما بعد ذلك ، ونزل . ثم مالئ ان غضب من ان

الجهد الجهد الذي بذله لم يوصله الى نتيجة ، وعاد مرة اخرى وقرع
اول باب في الدور الخامس . كان اول شيء رآه في الحجرة الصغيرة
ساعة حائط كبيرة تشير الى الساعة العاشرة . وسأل :

— هل يسكن هنا نجار اسمه لانتس ؟

وقالت امرأة ذات عينين سوداوين لامعتين كانت منهمكة في
غسل ملابس طفل في طشت غسيل :
— هناك اذا سمحت .

واشارت بيدها المبتلة الى باب الحجرة المجاورة وكان مفتوحا .
وظن ك وهو يدخل انه يدخل على اجتماع . كانت هناك مجموعة
متراخمة من الناس — لم يهتم أحد منها بالداخل — تملأ حجرة
متوسطة السعة لها نافذتان ، ولها قرب السقف مباشرة دهليز
يحيط بها ، كان هو أيضا يفض بالناس ، وكان من بالدهليز يقفون
منحنين تلتصق برؤوسهم وظهورهم بالسقف . وخرج ك ثانية لان
هواء المكان كان ثقيلًا عليه ، وقال للمرأة الشابة التي يبدو انها لم
تحسن فهم سؤاله :

— لقد سألتك عن نجار اسمه لانتس ؟ فقالت :

— نعم ، ادخل من فضلك ؟

وربما لم يكن ليتبعها لو لم تتجه اليه المرأة وتمسك مقبض
الباب وتقول :

— بعد أن تدخل سأقفل الباب فلا ينبغي أن يدخل آخر بعدك .

وقال ك : هذا شيء معقول جدا .

ثم دخل مرة اخرى .

كان هناك رجلان يتحادثان عند الباب مباشرة — وكان أحدهما
يؤدي بيديه المبسوطين الى بعيد حركة عد النقود ، وكان الآخر
ينظر في عينيه بحدة — امتدت من بينهما يد وأمسكت ك . كانت
تلك اليد يد شاب صغير أحمر الوجنتين ، قال : تعال ، تعال !
وتركه ك يقوده ، وتبين ان هناك بين المجموعة المتراخمة

النلاحقة طريق ضيق جدا ربما كان يفصل بين حزين ، يؤيد ذلك الاحتمال ان ك لم يكذب يجد في الصفوف الامامية يمينا وشمالا وجها يتجه اليه ، بل رأى ظهور رجال يتجهون باحاديثهم وحركاتهم الى اناس من حزبهم . كانت الغالبية ترتدى الملابس السوداء ، ترتدى اثوابا احتفالية طويلة قديمة فضفاضة تتدلى الى الارض . كانت هذه الملابس هي الشيء الذى اذهل ك ، اما كل شيء عدا ذلك فقد اعتبره ك اجتماعا سياسيا للحى .

اما النهاية الأخرى للقاعة التى اقتيد ك اليها ، فكانت فيها منضدة صغيرة قائمة بانحراف على منصة منخفضة تنصت هي الأخرى بالناس ، وجلس وراء المنضدة قرب حافة المنصة رجل قصير سمين لاهث كان فى تلك اللحظة يتحدث ضاحكا ضحكة عالية الى رجل يقف خلفه كان يسند كوعه على مسند الكرسي الوثير ويعقد ساقه . وكان الرجل أحيانا يقذف ذراعه فى الهواء وكأنه يرسم صورة كاريكاتورية لبعض الناس . ووجد الشاب الذى ساق ك الى هذا المكان صعوبة كبيرة فى ابلاغ الخبر . فقد شب مرتين على أطراف أصابعه وحاول أن يعلن شيئا ولكن الرجل الجالس فوق المنصة لم يلتفت اليه . ولم يلتفت اليه إلا بعد أن وجهه أحد الواقفين فى المنصة الى الشاب ، فانحنى اليه واستمع الى بلاغه الذى قاله له بصوت خفيض . ثم أخرج الرجل ساعته ونظر بسرعة الى ك وقال : كان ينبغى عليك أن تكون هنا قبل ساعة وخمس دقائق .

أراد ك أن يجيب بشيء ، ولكنه لم يجد فرصة لذلك ، إذ ما كاد الرجل يتكلم ، حتى علت همهمة عامة فى الجزء الأيمن من القاعة . وأعاد الرجل كلامه بصوت أعلى : كان ينبغى عليك أن تكون هنا قبل ساعة وخمس دقائق .

ثم خفض عينيه الى القاعة بسرعة . وفى الحال اشتدت المهمة بها ، ولم تنته الا تدريجيا ، لأن الرجل كف عن الكلام .

وخيم الآن على القاعة سكون أكثر من السكون الذى كان يخيم عليها عندما دخل لك . الا اولئك الذين وقفوا فى الدهليز لم يكفوا عن بث التعليقات . وبدا هؤلاء الناس ، على قدر ما أمكن الاستدلال فى وسط الغيام والدخان والغبار ، يرتدون ثيابا أقرب من ثياب من تحتهم . وكان من بينهم من أحضر شلثة وضعها بين رأسه وبين السقف حتى لا تصاب رأسه بجروح من فرط الضغط والاحتكاك بالسقف .

كان لك قد قرر أن يلاحظ أكثر مما يتكلم ، ولهذا صرف النظر عن أن يدفع عن نفسه تهمة التأخر المزعوم ، واكتفى بالقول : اذا صح اننى تأخرت فى الحضور ، فانا على أية حال الآن هنا .

وتبع ذلك من الجانب الأيمن ذاته تصفيق استحسان . وفكر لك : «هؤلاء أناس من السهل استمالتهم» ، ولم يقلقه الا السكون فى الجانب الأيسر من القاعة ، وهو الجانب الذى كان خلفه مباشرة والذى لم يرتفع فيه الا تصفيق فردى قليل . وفكر فيما يمكنه أن يقوله ليستميل الجميع دفعة واحدة ، أو ان لم يمكن هذا ، فليستميل الآخرين على الأقل من حين لآخر .

وقال الرجل : نعم ، ولكنى لم أعد ملتزما الآن بأخذ أقوالك . وعادت المهمة وكانت هذه المرة غير مفهومة لأن الرجل استمر وقد أشار الى الناس بالسمت .

— ولكنى سأفعل ذلك اليوم فقط على سبيل الاستثناء . ولا ينبغي أن يتكرر مثل هذا الغياب مرة أخرى . والآن تقدم ! وقفز أحدهم تاركا المنصة وبهذا أصبح فيهما مكان خال لك ، وتسلى لك اليه . ووقف ملتصقا بالمنضدة ، وكان الجمع المتراحم خلفه كبيرا حتى انه كان عليه أن يقاوم ضغطه حتى لا يقلب منضدة قاضى التحقيق بل وربما القاضى نفسه من المنصة . ولم يكن قاضى التحقيق يهتم بهذا ، بل كان يجلس مطمئنا

مرتاحا فى كرسية الوثير ويتناول ، بعد أن قال للرجل الواقف خلفه كلمة ختامية ، كراسة مذكرات هى كل ما على المنضدة . كانت هذه الكراسة من نوع كراسات المدارس ، قديمة ، لا شكل لها من شدة التقلب فيها .

وقال قاضى التحقيق : هكذا !

وقلب فى الكراسة ثم اتجه بنبرة التقرير الى ك سائلا : انت مبيض حيطان ؟

وقال ك : لا . بل انا وكيل بنك كبير .

وتبع هذه الإجابة فى حزب اليمين بالقاعة ضحك كان خالصا ندرجة أن ك اشترك فيه . واستند الناس بأيديهم على ركبهم وظلوا ينتفضون من الضحك كما ينتفض الانسان عندما تصيبه ازمان السعال . بل كان هناك من بين من فى الدهليز من اشترك فى الضحك . وحاول قاضى التحقيق ، الذى استبد به الغضب ، وبدا كأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ضد الناس فى القاعة ، أن ينتقم ممن بالدهليز ، فهب واقفا ، وهدد من بالدهليز وتدلّت فى هذه الاثناء حواجه التى لم تكن تلفت النظر عادة ، كثيفة سوداء ضخمة فوق عينيه .

وكان نصف القاعة اليسارى ما يزال ساكنا . كان الناس فيه يقفون صفوفا ، بوجهون وجوههم ناحية المنصة ، وينصتون الى الكلمات ، التى يتبادلها من فوقهم بهدوء مثل الهدوء الذى ينصتون به الى صخب الحزب الآخر ، بل ويسمحون بأن يشترك أفراد من بينهم مع الحزب الآخر من حين لآخر فى بعض التصرفات . ولعل اصحاب الحزب اليسارى ، الذين كانوا اقل عددا ، كانوا فى الحقيقة ونفس الامر مجردين من الأهمية مثلهم مثل اصحاب الحزب اليمينى ، ولكن هدوءهم فى التصرف جعلهم يظهرون اكثر أهمية . فلما بدأ ك الآن فى الكلام ، كان موقنا من أنه يتحدث فى اتجاههم . وقال ك : السؤال الذى وجهته الى ، يا سيادة قاضى التحقيق ،

هل انا مبيض حيطان - او بمبارة اصح القرار الذي قررته ، فانت لم تسال ، بل قررت ذلك من اعلا منصتك تقريراً - شيء مميز لطريقة التحقيق الذي يجرى ضدى كله . ويمكنك ان تعترض على كلامى بان هذا التحقيق ليس تحقيقاً على الاطلاق ، وستكون على حق فى هذا فهو لا يعتبر تحقيقاً الا عندما اعترف انا بانه تحقيق . وانا فى هذه اللحظة عندما اقرر بانه تحقيق لا افعل ذلك الا على سبيل الشفقة او نحو ذلك . فما يمكن ان يحس الانسيان حيال هذا التحقيق الا بالشفقة ، اذا شاء ان ياخذه فى الاعتبار . وانا لا اقول ان هذا التحقيق دنيء ، ولكنى اضع امامكم كلمة دنيء هذه لتعرفوا بانفسكم على هديها على الامر .

وقطع كلامه ونظر الى القاعة تحته . كان كل ما قاله جاداً ، اشد حدة مما كان هو نفسه ينوى ، ولكنه كان صحيحاً . وكان يستحق ان ينال استحساناً من هنا او هناك ، ولكن الجميع كانوا سكوناً ، ويبدو انهم كانوا ينتظرون البقية مشتاقين ، وربما كان هناك فى هذا السكون انفجار يتأهب ليضع لكل شيء نهاية . وفجأة حدث شيء مقلق ، فقد انفرج الباب فى نهاية القاعة ودخلت منه الفسالة الشابة التى يبدو انها كانت قد فرغت من الغسيل ، فاجتذبت نظرات البعض اليها ، رغم الحيلة التى اخذت نفسها بها . الا قاضى التحقيق ، فقد فعل ما أثلج صدره ، اذ تصرف على نحو يوحى بان الكلمات مسته فى الحال . كان حتى تلك اللحظة يستمع وهو واقف ، لان خطاب ك فاجاه ، ولم يكن قد استعد الا للدهليز واهله . اما الآن فقد بدا يجلس تدريجياً ، كأنها اراد الا يلحظ جلوسه أحد . وتناول الكراسة الصغيرة من جديد . . تناولها على ما يبدو ليهديء بها تعبير وجهه . واستمر ك فى الكلام : لن يفيدك هذا شيئاً ، حتى كراستك با سيادة القاضى تؤكد ما اقلوه .

وقد تملكك الرضا لأنه لم يكن يسمع في هذا الاجتماع الغريب سوى كلماته الهادئة ، وأخذته الجراحة فأخذ من قاضي التحقيق الكراسة ، ورفعها الى أعلى ممسكا بورقة من وسطها بإطراف أصابعه كأنما يعافها ، بحيث تددت من الجانبين الأوراق البقعة ، المصفرة الحافة ، المكتوبة كتابة ضيقة . وقال وهو يترك الكراسة تسقط على المنضدة :

— هذه هي ملفات قاضي التحقيق ! استمر في القراءة فيها يا سيادة قاضي التحقيق ما شئت ، فانا لا أخاف ، فعلا من هذا الذنب ، على الرغم من اننى لا اعرف ما هو ، ولهذا فانا لا أستطيع ان امسك صحيفته الا بأصبعين ولن امسها بيدي .

وامسك قاضي التحقيق بالكراسة الصغيرة بعد ان وقعت على المنضدة ، ورتبها ما استطاع وأخرجها ليقرا منها ، ولا يمكن ان يكون هذا الا دلالة على الاذلال العميق الذى أصابه ، او ما ينبئ ان يفهم تصرفه هذا الا على انه دلالة على الاذلال العميق .

كانت أوجه الناس في الصف الأول موجهة الى ك في شغف ، فتطلع ك اليهم هنيهة . كانوا جميعا رجلا متقدمين في السن ، وكان بعضهم ذوى لحى بيضاء . هل كان هؤلاء يا ترى هم أصحاب القول الفصل الذين يستطيعون ان يؤثروا على الجمع كله ، ذلك الجمع الذى لم يخرج حتى بعد اذلال قاضي التحقيق عن البلادة التى هوى اليها بعد خطاب ك ؟

واستمر ك في الكلام بصوت أكثر انخفاضا عن ذى قبل وهو يتفحص وجوه الصف الأمامى ليرى تأثير كلامه المتسم بشيء من الشدة فيها : ان ما حدث لى ، هو حالة فردية لا أكثر ، ولهذا فهو ليس عظيم الأهمية ، خاصة واننى لا أحمله محملا صعبا ، ولكنه مع ذلك دليل على ان الطريقة التى اتبعت معى طريقة تتبع مع كثيرين . وانا هنا اقف من أجل هؤلاء لا من أجل

ورقع لك صوته دون عمد . وصفق في مكان ما وجل رفع يديه
اثناء ذلك وصاح : احسنت ! ولم لا ؟ احسنت ، احسنت !

اما الجالسون في الصف الاول فقد مدوا اصابعهم الى لجامهم
ولم يلتفت اى منهم الى الخلف بسبب هذه الصيحة . كذلك ك
لم يطلق عليها اهمية وان كان قد ازداد بها شجاعة . واصبح الآن
لا يجد من الضروري ان يصفق الجميع له بالاستحسان . . . كان
يكفيه ان يرى ان الراي العام بدا يفكر في الموضوع وان هناك من
يمكن اجتذابه بالاقناع في بعض الاحيان لا في كلها .

وقل لك استنادا على هذه الفكرة التي طرات له : لست اريد
ان القى تجاج الخطباء ، ولعله شيء لا سبيل عندي لنبيله . والظاهر
ان السيد قاضي التحقيق يخطب احسن بكثير مني ، فهذا شيء
من صميم مهنته . ان ما اريده هو المناقشة العامة لفساد عام .
اسمعوا : لقد اعتقلت منذ نحو عشرة ايام ، وانا اضحك من واقعة
الاعتقال في حد ذاتها ، ولكن هذا الضحك شيء لا مكان له هنا . لقد
فوجئت بهجوم على وانا في الفراش في وقت مبكر ، ربما كان لدى
من اعتقلوني امر - وهذا شيء لم يعد بناء على ما قاله السيد قاضي
التحقيق مستبعدا - باعتقال مبيض حيطان لعله يرى مثلي تماما ،
فاختاروني انا . كانت الحجرة الجانبية يشغلها اثنان من الحراس
المقلاظ ، ولو كنت انا واحدا من قطاع الطرق الخطيرين ، لكان من
الواجب ان اعامل معاملة افضل من المعاملة التي عاملوني بها . لقد
كان هذان الحارسان علاوة على ذلك من الرعاع عديمي الاخلاق ،
فملا اذني بالكلام الفارغ وارادا ان اقدم لها رشوة ، وارادا ان
ياخذوا مني ملابسى بالحيلة بعد ان سردا على من الادعاءات ما سردا ،
وارادا ان يتزوا مني المال بحجة احضار افطار لي بعد ان التهما
طعام افطارى بلا حياة امام عيني . ولم ينته ما فعلوه بي عند هذا
الحد . فقد اخذوني الى حجرة فائقة لاميل امام المفتش . كانت

تلك الحجرة حجرة آنسة اقلدها جدا ، وكان على أن ارى كيف
 دنست الحجرة بسببى ، بدون ذنب منى ، نتيجة لوجودى ووجود
 الحارسين والمفتش بها . لم يكن من السهل ان يبقى الانسان
 هادئا . ولكنى تمكنت من البقاء هادئا ، وسالت المفتش بمنتهى
 الهدوء - ولو كان هنا لاكد كلامى - عن سبب اعتقالى . فيماذا
 اجاب هذا المفتش الذى اراه الآن فى مخيلتى وهو جالس فى
 الكرسى الثير الذى يخص الانسة المذكورة جلوسا يمثل به المعجزة
 السخيفة ؟ سادتى ، لم يجب فى الحقيقة بشئ ، ربما لم يكن
 بالفعل يعلم السبب ، لقد اعتقلنى ورضى باعتقالى . لا لقد فعل
 أكثر من هذا ، فقد ادخل فى حجرة هذه الانسة ثلاثة موظفين
 حقراء من البنك الذى اعلم به ، عمدوا الى لمس صور فوتوغرافية
 هى ملك الانسة ، والى احداث الاضطراب فيها . كان وجود هؤلاء
 الموظفين يرمى الى هدف آخر طبعاً . كان عليهم هم وصاحبة
 البنسيون وخادمتها أن يشيعوا خبر اعتقالى ، وأن يضروا بسمعتى
 العامة وأن يهزوا مكانتى فى البنك بصفة خاصة . ولكنهم لم
 يوفقوا فى أى شئ من هذا اقل توفيق ، حتى صاحبة البنسيون
 التى اسكن لديها ، وهم انسانة بسيطة جدا - وسأذكر اسمها
 هنا بالتشريف ، السيدة جروباخ - حتى السيدة جروباخ كانت
 من الفطنة بحيث فهمت أن هذا الاعتقال لا يعنى أكثر من تهجم
 من نوع التهجم الذى يقوم به صبية الحارة الذين لا يجدون من
 يرعاهم . أنا اكرر : ان ما حدث لى من جراء الموضوع كله لا يتجاوز
 ضروباً من الحرج والغضب العابر . أما كان من الممكن أن يؤدى
 الى نتائج انكى بكثير ؟

فلما سكنت ك هنا ، ونظر الى قاضى التحقيق الساكن ، ظن
 انه لاحظ أن القاضى اعطى بنظرة منه اشارة الى واحد فى الجمع
 المتزاحم . فابشتم ك وقال :

— والآن يمطى قاضى التحقيق وهو بجوارى واحدا منكم اشارة سرية ، وهذا يعنى ان فيكم اناس يوجهون من هنا ، يوجهون من اعلا . ولست اعرف هل ستؤدى هذه الاشارة الى عاصفة من الاستحسان او الى عاصفة من الاستنكار . وانا اتخلى عامدا بعد ان كشفت امرها من قبل أن تجرى ، عن معرفة النتيجة التى كانت ستؤدى اليها . فهذا شئ لا يهمنى على الاطلاق ، وانا اخول للسيد قاضى التحقيق علنا حق اصدار الأوامر الى موظفيه المجاورين لا باشارة سرية بل بكلمات واضحة ، بان يقول مثلا : صفروا الآن ! او يقول : صفقوا الآن ! .

وتحرك قاضى التحقيق هنا وهناك فى كرسيه الوثير ، اما عن حيرة وارتيباك واما عن فقدان صبر ، وانحنى عليه الرجل الواقف خلفه والذي كان قد تكلم معه من قبل ، مرة ثانية اما ليشجعه بصفة عامة واما ليقدم اليه نصيحة خاصة . اما الناس فى القاعة فكانوا يتحدثون بصوت منخفض ولكن بهمة ، واختلط الحزبان اللذان كان يبدو من قبل أن رأييهما مختلفان كل الاختلاف ، وأشار بعض الأفراد متفرقين الى ك باصبعهم ، وأشار البعض الآخر الى القاضى . كان الدخان المخيم كالضباب يعوق الابصار فى الحجرة الى اقصى درجة ، حتى انه كان يحول حتى دون ملاحظة دقيقة للواقفين الى بعيد . ولا بد ان هذا الدخان كان يضايق رواد الدهليز بصفة خاصة ، وكانوا مضطرين ، بالطبع وهم ينظرون مترددين متلصحين الى القاضى ، الى توجيه أسئلة بصوت منخفض الى المشتركين فى الاجتماع ، ليلموا بمعلومات أدق عن مجريات الأمور . وكانت الاجابات توجه اليهم بصوت منخفض كذلك ومن وراء الديدن المتحدثين كحاجز سائر .

وقال ك : لقد أوشكت على الختام .

وضرب بقبضته على المائدة فلم يكن هناك جرس لحفظ النظام . فتباعدت رأسا القاضى ومستشاره فى فزع ، وقال له :

— الموضوع كله لا صلة بينى وبينه ، ولذلك فانا أحكم عليه فى هدوء ، ويمكنكم اذا كنتم فى هذه المحكمة المزعومة تهتمون بشئ ، ان تفيدوا . فائدة كبيرة من الانصات الى ما اقله . اما مناقشاتكم المتبادلة فيما بينكم بخصوص ما أعرض له من امور ، فأرجوكم ان تؤجلوها الى وقت آخر ، فليس لدى وقت واريد ان انصرف بعد قليل .

وساد السكون فى الحال ، فقد تمكن له من السيطرة على الجمع المجتمع بسرعة . لم يعد هناك من يتصايحون فى اضطراب كما كانت الحال فى مبدأ الامر ، بل لم يعد هناك حتى من يصفق للاستحسان ، ولكن الناس بدوا مقتنعين أو فى طريقهم الى الاقتناع .

وقال له بصوت منخفض جدا لأن الانصات المتلف من جانب الحاضرين جميعا كان يسره ، وكان الصوت المنخفض يحدث وسط السكون حفيفا يثير حماس المتكلم أكثر مما يفعل أعنف استحسان .

— ليس من شك ، فى أن وراء تصرفات هذه المحكمة فى موضوعى اعنى وراء اعتقالى ووراء التحقيق الذى يجرى معى اليوم ، منظمة كبيرة . منظمة لا تشغل الحرس المرتشين والمفتشين والقضاة النافهين الذين قد يتصفون فى احسن الظروف بالتواضع ، فحسب بل تستعين علاوة على ذلك بقضاء عال وقضاء من أعلى درجة وحاشية ضخمة لا مفر منها ، لا يحصها العد من خدام وكتبة وعسكر ومساعدين ، وربما من الجلادين ، وأنا لا أتردد عن نطق هذه الكلمة . وما هو هدف هذه المنظمة يا حضرات السيادة ؟ هدفها يتلخص فى اعتقال الأبرياء واجراء تحقيق معهم لا معنى

له وغالبا ما يكون هذا التحقيق ، كما فى حالتى ، بلا نتيجة . .
 وكيف يمكن وقد اتسم الكل فى مجموعه بالسخف تحاشى اقبح
 فساد للموظفين ؟ هذا محال ، وما يمكن حتى لاسمى قاض ان
 يحققه فى نفسه . ولهذا يحاول الحراس ان ينتزعوا من المعتقلين
 ملابسهم من ابدانهم ، ولهذا يعتدى المفتشون على حرمان المساكين
 الغريبة ، ولهذا تخلق الجماعات السكاملة اناسا ابرياء وتفضل
 ذلك على ان تحقق معهم . ولقد تحدث الحارسان الى عن قسم
 الامانات الذى يودع فيه المعتقلون متاعهم ، وكم اود لو رايت اماكن
 الامانات تلك ، التى يتعفن فيها مال المعتقلين الذى كسبه بجهد
 جهيد ، اذا لم يكن موظفو قسم الامانات للصوص قد سرقوه .

وانطلقت صيحة من نهاية القاعة قطعت على ك كلامه ، فظلل
 عينيه يديه ليتسكن من الرؤية ، لان ضوء النهار المغم كان يصبغ
 دخان القاعة بلون ابيض ويحول دون الرؤية .

راى ك الفسالة التى تبين بعد دخولها القاعة بقليل انها تمثل
 اقلاقا جوهريا ، ولم يكن من الممكن ان يعرف الآن هل كانت هى
 المدنية ام لم تكن . كل ما رآه ك ان رجلا جلد بها الى ركن من
 الأركان عند الباب وضما الى صدره هناك . ولم تكن هى التى
 صاحت ، بل الرجل ، الذى كان يفقر فاه ، وينظر الى السقف .
 وتجمع بعض الناس فى دائرة صغيرة حول الاثنين ، وبدأ رواد
 الدهليز كأنهم متحمسين لما حدث لانه وضع حدا للجد الذى
 ادخله ك فى الاجتماع . واراد ك تحت ضغط الانطباع الاول ان
 يجرى من القاعة على الفور ، ولعل الجميع كانوا مهتمين بان
 يسود النظام وان يخرج الانسان من القاعة ، ولكن الصفوف
 الامامية قبالة ظلت جامدة ، فلم يتحرك منها أحد ، ولم يفسح
 أحد منها سبيلا امام ك . بل العكس لقد عاقوه عن الحركة ، ورفع
 كبار السن اذرعهم لحجزه ، وامتدت يد ما من الخلف ، لم يعرف

ك لمن كانت - فلم يكن لديه وقت لينظر خلفه - وامسكت بياقته . ولم يعد ك يفكر أساسا فى الرجل والمرأة ، بل كان يحس كأن حريته حذت ، كان الناس يجدون فى أمر اعتقاله ، وقفز من المنصة الى القاعة تحته دون أن يأخذ اعتبارا لآى شيء . وهكذا وقف وجها لوجه أمام الجمع المتراحم . هل أصاب فى حكمه على الناس ؟ هل نسب الى خطبته تأثيرا أكبر مما كان لها ؟ هل كان الناس أثناء كلامه قد تحوروا ، ثم سثموا التحور الآن عندما وصل الى الاستنتاجات النهائية ؟ ماهذه الوجوه المحيطة به ا عيون صغيرة سوداء تلتصص هنا وهناك ، وجنات تتدلى الى أسفل كوجنات السكرى ، لحي جامدة هزيلة لو مد الانسان أصابعه فيها ، لكان كمن يصنع المخالب ، لا كمن يدس أصابعه فى لحي . واكتشف ك تحت اللحي - وهذا هو الاكتشاف الحقيقي الذى قام به ك - شارات تلمع فوق ياقات الثياب ، شارات مختلفة الألوان والأحجام . كانوا جميعا ، على قدر ما كان الناظر يرى ، يحملون هذه الشارات . كانوا جميعا جماعة واحدة ، بالحزبين الظاهريين يمينا ويسارا . وعندما التفت ك الى الخلف فجأة رأى نفس الشارات على ياقة قاضى التحقيق الذى جلس واضعا يديه فى حجره وينظر الى أسفل بهدوء . وصاح ك : هكذا ..

ورفع ذراعيه الى اعلى ، فقصد كان الاكتشاف الجديد الذى اكتشفه يريد براحا : لقد عرفت الآن انكم جميعا موظفون ، انكم انتم العصابة الفاسدة التى كنت اهاجمها ! لقد تراختم هنا فى هيئة المستمعين المشمشمين ، وكونتم احزابا ظاهرية ، وصفق حزب منكم ليمتحننى ، لقد أردتم ان تتعلموا كيف يكون المكر بالأبرياء ! ولم يكن وجودكم هنا ، على ما آمل ، بغير فائدة ، فاما انكم تحدثتم فيما بينكم فى أن أحدا توقع منكم أن تدافعوا عن البراءة ، واما - دعنى والا ضربتك !

بهذه العبارة صاح لك في وجه شيخ مرتعد كان قد اندفع قريبا منه :

— واما انكم قد تعلمتم بالفعل شيئا . واتمنى لكم ان تسعدوا به في صنعتكم .

وتناول لك قبعته بسرعة ، وكانت على حافة مائدة هناك ، واندفع وسط سكون شامل ، وهو سكون المفاجأة الكاملة ، الى باب الخروج . ويبدو ان قاضي التحقيق كان اسرع من لك ، لانه كان ينتظره بالباب . وقال القاضي : لحظة من فضلك !

ووقف لك ولكنه لم يتطلع الى قاضي التحقيق ، بل الى الباب الذي امسك بمقبضه . وقال قاضي التحقيق :

— لم ارد الا ان الفت نظرك الى أنك اليوم ولعل هذا لم يتضح لك بعد — قد تجردت من التفوق الذي يضفيه الاستجواب على المعتقل في كل حال .

وضحك لك للباب وصاح : يا اندال ، انا متنازل لكم عن الاستجوابات كلها ! .

وفتح الباب ونزل الدرج مسرعا ، وثار بعد خروجه ضجيج في هذا الاجتماع الذي عاد الى سابق حيوته والذي كان على ما يبدو يناقش الوقائع على طريقة التلاميذ .

الفصل الثالث

• في قاعة الاجتماع الخالية • الطالب • مكاتب المحكمة

وانظر لك طوال الأسبوع التالي من يوم الى يوم ان ياتيه بلاغ جديد ، ولم يكن يستطيع ان يصدق انهم اخذوا كلمته في التنازل عن الاستجوابات بمعناها الحرفي . ولما لم يات البلاغ حتى مساء السبت ، اعتبر نفسه مدعوا في صمت للمثول في الوقت نفسه وفي المكان نفسه . ولهذا ذهب يوم الأحد الى هناك مرة ثانية ، ولم يتعثر هذه المرة لا في السلالم ولا في الأروقة . وحياته بعض الواقفين بأبوابهم ممن تذكره ولكنه لم يكن في حاجة الى السؤال والاستعلام ، بل ذهب مباشرة الى الباب المطلوب . فلما قرع الباب ، انفتح على الفور ، وأراد ان يذهب الى الحجرة المجاورة مباشرة دون ان يلتفت الى المرأة التي يعرفها والتي ظلت واقفة عند الباب . وقالت المرأة : لن تنفقد اليوم جلسة !

وسال لك وهو لا يريد ان يصدقها : ولم لا تنفقد اليوم جلسة ؟ ..

واقنعته المرأة بذلك بأن فتحت له باب الحجرة الجانبية .. كانت الحجرة بالفعل خالية وكانت تبدو وهي خالية أكثر بؤسا مما بدت يوم الأحد الماضي . ورأى لك فوق المائدة التي ظلت في

مكانها دون تغير ، بعض الكتب . وسأل ك : هل يمكن ان اشاهد هذه الكتب ؟ .

لم يسأل هذا السؤال عن فضول وانما لأنه لم يريد ان يكون قد أتى الى هنا دون ما فائدة . وقالت المرأة : لا .

واغلقت الباب وأضافت : هذا شيء غير مسموع به . فالكتب ملك لقاضي التحقيق .

فقال ك : هكذا !

واوما برأسه ثم أردف : هذه الكتب بلا شك كتب قانونية ، ويبدو ان اسلوب هذه المحكمة ليس فقط ادانة الانسان بريئا ولكن ادانته جاهلا أيضا .

وقالت المرأة دون ان تفهمه تماما : لا بد ان الأمر كذلك .

وقال ك : اذن فلاذهب الآن من حيث أنت .

وسألت المرأة : هل يجب ان ابلف السيد قاضي ان يختبئ شيئا ؟

وسأل ك : هل تعرفينه ؟

فقالت المرأة : طبعا ، فزوجي خادم بالمحكمة .

وتبين لك الآن ، والآن فقط ، أن الحجرة التي لم يكن بها في المرة الماضية سوى طست غسيل حجرة مؤنثة ، كاملة التاثيث . ولاحظت المرأة دهشته وقالت : نعم ، ان لنا سكنا مجانيا هنا ، ولكن علينا في أيام انعقاد الجلسات أن نخلي الحجرات ، ووظيفة زوجي لها كما ترى بعض العيوب . وقال لك وهو ينظر اليها غاضبا : - لست أدهش من الحجرة بقدر ما أدهش لأنك متزوجة ! .

وسالت المرأة : هل تراك تشير الى واقعة الجلسة الماضية التي عطلتك بها وأن تلقى كلمتك ؟ .

فقال لك : طبعاً ، واليوم انتهت هذه الواقعة ودارها النسيان تقريبا ، ولكنها في ذلك الوقت غاظتني غيظا شديدا . وهانتدي بقولن بلسانك أنك متزوجة .

وقالت : لم تكن مقاطعتي كلمتك آنذاك في غير صالحك . فقد كان الحكم الذي تكون فيما بعد بشأنك ضدك .

فقال لك مبعدا الانتباه عن هذا الموضوع : ربما ، ولكن هذا لا يصلح عفوا لك .

فقالت المرأة : انما يعدلني كل من يعرفوني ، هذا الرجل الذي عاتقني في ذلك اليوم ، رجل يلاحقني منذ وقت طويل . . وربما لم أكن بصفة عامة امرأة مغرية جذابة ، ولكني هكذا بالنسبة له . وليس هناك سبيل لحمايتي منه . حتى زوجي قبل هذا الوضع ، ومادام يريد أن يبقى على وظيفته ، فعليه أن يرضى به ، لأن هذا الرجل طالب ويستظر له أن يصل الى سلطة كبيرة . انه دائما يلاحقني ، حتى اليوم ، قبل أن تأتي بقليل ، كان عندي وانصرف .

وقال له : هذا شيء ككل شيء عندكم وليس فيه فزابة أو مفاجأة لى .

وسالت المرأة ببطء وتضمن : لعلك تريد أن تصلح بعض الأمور هنا ؟ ..

وكانت كأنما تقول شيئا خطيرا على ك ، خطيرا عليها ثم قالت :
- لقد استنتجت هذا من خطبتك التى أعجبتنى انا شخصيا .
على اننى لم اسمع من خطبتك الا جزءا فقط ، اذ فاتنى منها اولها ،
وفى ختامها كنت راقدة مع الطالب على الأرض .

ثم قالت بعد هنيهة : الأمور هنا منكرة !

وامسكت بيد ك ، ثم قالت : هل تعتقد انك ستوفق فى
احداث شيء من الاصلاح ؟

وابتسم ك وقلب يده قليلا فى يديها الناعمتين ، ثم قال :

- فى الحقيقة انه ليس من شأنى ان انفذ اصلاحات هنا كما
تقولين ، ولعلك لو قلت ذلك لقاضى التحقيق مثلا تلقين منه
السخرية او العقوبة . والحقيقة اننى لم ادس نفسى فى هذه الأمور
طائعا مختارا ، وما كانت حاجة هذه المحكمة الى الاصلاح لتبقى
مضجى . ولكنى اضطرت للتدخل نظرا لما زعم من اننى
معتقل - فانا كما يقولون معتقل - اضطرت للتدخل بسببى انا .
ولكنى ، اذا كنت استطيع ان افيدك بشيء ، مستعد عن طيب
خاطر لفعله . وانا لن افعل ذلك اتباعا لوصية خب الآخرين
فحسب ، ولكن لانك تستطيعين مساعدتى ايضا .

وسألت المرأة : وكيف يمكنني مساعدتك ؟

فقل : بأن تطلعيني مثلا على الكتب التي على المنضدة هناك .

فصاحت المرأة وجذبت وراءها بسرعة اشد سرعة : افصل بكل تأكيد !

كانت تلك الكتب كتباً هالكة ، وكان غلاف أحدهما في الوسط محطماً تحطيماً يوشك أن يكون كاملاً ، وكانت قطعة معلقة بعضها ببعض بواسطة خيوط .

وقال لك وهو يهر رأسه : ما أقدر كل شيء هنا !

ونظفت المرأة بمريلتها التراب من الكتب على الأقل سطحيًا قبل أن يمد لك يده اليها . وفتح لك الكتاب العلوي ، فلاح له صورة فاجرة فيها رجل وامرأة يجلسان عاريين على أريكة ، وكان هدف الرسام الدنيء واضحاً للعيان ، ولكن سوء مهارته كان من المشدء بحيث لم يظهر في الصورة سوى رجلًا وامرأة ، يبرزان منها كجسدين ، ويجلسان جلة معتدلة مفرطة في الاعتدال ، وينظر أحدهما الى الآخر في عسر شديد لخطا تصميم المنظور . لم يستمر لك في التقليب في الكتاب ، بل فتح صفحة العنوان في الكتاب التالي ، فإذا هي رواية بعنوان : « الآلام التي كان على جريته أن تعانيها من زوجها هانس » .

فقال لك : هذه هي كتب القانون التي تدرس هنا ! وهؤلاء الناس هم الذين يحاكمونني !

وقالت المرأة : سأساعدك

فقال لك : أتريدني مساعدتي ؟ هل تستطيعين فعلاً مساعدتي دون أن ترجي بنفسك في الخطر ؟ لقد قلت منذ قليل أن زوجك خاضع لرؤسائه اشد الخضوع .

فقلت المداة : ورغم ذلك فانا لا اخاف الخطر الا حيث اريد ان اخافه . تعال !

وأشارت الى المنصة ورجته ان يجلس معها على الدرجة الموصلة اليها . وقالت بعد ان جلسا وهي تنظر الى وجهه من اسفل :

— ان لك عيني سوداوين جميلتين ، والناس يقولون لي ان عيني جميلتان ايضا ، ولكن عينيك اجمل بكثير من عيني . وقد لفتا نظري على الفور عندما رايتك للمرة الاولى تدخل هنا . وكانتا هما السبب الذي من اجله عدت الى حجرة الاجتماع هنا مرة ثانية ، وهو شيء لا افعله أبدا ، لانه محرم علي على نحو ما .

وفكر ك ، هذا اذن هو كل ما عندها ، انها تعرض نفسها على ، انها فاسدة فساد الجميع هنا حوالها ، ولقد شجعت من موظفي المحكمة وهو شيء يستطيع الانسان تصوره ، ولهذا ترحب بكل غريب وتستحسن عيني . ونهض ك صامتا كما لو كان قد عبر عن افكاره بصوت عال فأوضح للمرأة بهذا موقفه . وقال : لا اعتقد انك تستطيعين مساعدتي . فمن يريد مساعدتي حقا ، لابد ان يكون علي علاقة بكبار الموظفين . اما انت فلا شك انك لا تعرفين سوى صفار الموظفين الذين يضطرب المكان هنا بأعداد كبيرة منهم . هؤلاء تعرفينهم معرفة جيدة بلا شك وتستطيعين ان تسيري لديهم بعض الأمور . هذا ما لا أشك فيه ، ولكن أعظم شيء يمكن ان يحققه المرء عن طريقهم هو بالنسبة للنتيجة النهائية للقضية شيء تافه كل التفاهة . اما انت فلا تجنبن في هذه الأثناء بسبب تدخلك هذا الا فقدان نقر من الأصدقاء . وهذا ما لا أريده . استمري على علاقتك هؤلاء الناس ، فهذا شيء لا محيص لك منه على ما يبدو لي . وأنا لا أقول هذا بلا أسى ، لأنك — وهنا أحب أن أردد لك مدحك في علي نحو ما — تعجيبينني ، خاصة عندما تتطلعين الى بحزن ، كما

تفعلين الآن ، دون أن يكون لديك سبب يدعوك الى ذلك .
انك تدخلين ضمن الجماعة التي على أن أكافحها ، ولكنك تنمين
بالوجود فيها ، بل انك تحبين الطالب ، وان لم تكوني تحبينه فأنت
على الأقل تفضلينه على زوجك . هذا شيء يسهل على الانسان
استنتاجه من كلامك .

فصاحت : لا .

ولكنها ظلت جالسة ومدة يدها الى يدك ، فلم ينتزعها منها
بأسرعة انكافية . وقالت : لا يصح أن تنصرف الآن ، لا يصح أن
تنصرف الآن وقد كونت عنى حكما خاطئا . وهل كنت تستطيع
فعلا أن تنصرف الآن عنى ؟ هل أنا فى الحقيقة عارية عن القيمة
الى درجة انك لا تريد أن تتكرم على بالبقاء معى هنيهة ؟

وقال لك : انك تخطئين فهمى . وجلس ثم اردف يقول :

— ان كنت تهتمين فعلا بأن ابقى هنا ، فانا ابقى هنا عن طيب
خاطر ، فلدى متسع من الوقت ، لانى اثبت الى هنا وأنا أتوقع
ان تكون المحاكمة قائمة . ولقد أردت بما قلته ان أرجوك الا تفعل
شيئا من أجلى فى قضيتى . ولا ينبغي أن يسوءك حتى هذا ، اذا
تصورت اننى غير مهتم بنهاية القضية مطلقا واننى سأسخر من
الحكم . هذا على فرض ان القضية ستنتهى فعلا الى نهاية حقيقية
وهو الامر الذى أشك فيه أكثر الشك . فانا أعتقد أن القضية
— نتيجة لكسل او سهو او ربما حتى نتيجة لخوف الموظفين — قد أوقفت
بالفعل او ستوقف عما قريب . على انه من الممكن بطبيعة الحال
أن يتظاهروا بالاستمرار فى القضية على أمل الحصول على رشوة
كبيرة ، ولكن أملهم سيضيع هباء ، وهذا شيء أقوله من الآن ، لانى
لا أقدم رشوة على الاطلاق الى كائن من كان . وانك لتقدمين لى
صنيعا ، إذا أنت ابلغت قاضى التحقيق أو أى شخص آخر يجب

اذاعة الاخبار الهامة ، اننى لن اقبلهم رشوة بأى حال من الأحوال ومهما كانت الحيل التى ستستعمل معي . . وما أعلم حضرات السادة بها ! يمكنك ان تقولى لهم بصراحة ان هذا شيء ميثوس منه تماما . على انهم لابد قد لاحظوا هذا من قبل ، فان لم يكن ، فانا لست مهتما اهتماما كبيرا بان يحبطوا به الآن علما . وكل ما فى الامر ، انهم عندما يعلمون هذا ، سيوفرون على انفسهم الجهد ، وسيوفرون على ضروبا من الحرج ، احب ان اخجلها على عاتقى لاننى أعلم ان كل حرج هو بمثابة ضربة مسددة لضروب الحرج الاخرى . وانا كفيل بان يصير الامر الى هذا الحد . هل تعرفين قاضى التحقيق ؟ .

فقالت المرأة : طبعا ، وقد فكرت فيه اول ما فكرت عندما عرضت عليك ان اساعدك . ولم اكن أعلم انه من صفار الموظفين ، ولكن ما دمت انت الذى تقول هذا ، فيحتمل ان تكون على حق . ومع ذلك فانا أعتقد ان التقرير الذى يرفعه الى من هم فوقه له على اية حال تأثيره . وهو يكتب تقارير كثيرة . لقد قلت ان الموظفين كسالى ، ولكنهم ليسوا جميعا كسالى بلا شك ، وبخاصة قاضى التحقيق هذا ، فانه يكتب كثيرا جدا . ففى يوم الاحد الماضى ، على سبيل المثال ، استمرت الجلسة الى ان اوشك المساء . وانصرف الجميع ، الا قاضى التحقيق فقد بقى فى القاعة ، وطلب منى مصباحا ، ولم يكن لدى سوى مصباح المطبخ الصغير ، ولكنه رضى به وبدأ على الفور فى الكتابة . وكان زوجى فى هذه الاثناء قد حضر - وكان ذلك اليوم يوم اجازته - واحضرنا الاثاث ، وفرشنا حجرتنا ، ثم جاء جيران لزيارتنا وجلسنا نتحدث فى ضوء شمعة ونسبنا القاضى وذهبنا الى الفراش ونمنا . وفجأة بالليل ، ولا بد ان الوقت كان متاخرا جدا ، صحت فاذا بقاضى التحقيق يقف بجانب السرير ويحجز بيده نور المصباح بحيث لا يقع

نوره على زوجي.. وكان هذامن جانبه احتياطا لاداعي له لان زوجي
ينام نوما عميقا لا يوقظه منه نور المصباح . وكنت فزعة لدرجة
اننى اوشكت على أن اصرخ ، ولكن قاضى التحقيق كان لطيفا جدا
اقنبنى الى الحذر، وهمس الى قائلائه ظل حتى هذه الساعة يكتب
وانه يفيد الى مصباحى وانه لن ينسى ابدا منظرى وانا نائمة .
اردت بهذا كله ان اقول لك ان قاضى التحقيق يكتب بالفعل تقارير
كثيرة وخاصة عنك ، لان استجوابك كان بلا شك موضوعا من
الموضوعات الرئيسية لجلسة يوم الاحد . وهذه التقارير المطولة
لا يمكن ان تكون عديمة المعنى والاثر تماما . ثم انك تستطيع ان
تستنتج من هذه الواقعة ان قاضى التحقيق يطلب ودى ، واننى
فى الفترة الاولى من علاقتنا - ولا بد انه لم يتنبه الى الا مؤخرا -
حيث يمكننى ان اكون ذات تأثير قوى عليه . اما انه مهتم جدا بى ،
فشيء لى عنه الآن ادلة اخرى . فقد ارسل الى امس مع الطالب
الذى يثق فيه ثقة كبيرة ويتخذه له مساعدا ، هدية من الجوارب
الحريرية ، زاعما انها مكافاة لى على تربيى حجرة الاجتماعات .
ولكن هذا الزعم ليس الا حجة ملفقة . فترتيب الحجرة عملى
وواجبى وزوجى يتقاضى عليه اجرا . والجوارب التى تلقينها
جميلة ، انظر - ومدت ساقياها ورفعت الثوب حتى الركبتين ونظرت
هى نفسها الى الجوارب - ثم راحت تقول :

- انها حقيقة جوارب جميلة ، ولكنها بالغة الرقة ولا تناسبنى..
وفجأة سكنت ووضعت يدها على يدك وكأنها تريد أن تهدئه
ثم همست اليه : صه ، ان بيرتولد ينظر الينا .

ورفع لك نظره ببطء . كان بياض حجرة الاجتماعات شاحب
واقف .. كان قصير القامة ، ذا ساقين غير مستقيمين تماما ،
يحاول ان يضفى على نفسه هيبة باتخاذ لحية قصيرة هزيلة محمرة
اللون ، لا يكف عن دس اصابعه فيها . ونظرك اليه يشغف ، لقد

كان هو الطالب الأول فى العلوم القانونية المجهولة ، الذى سبق
أن لقيه ك فى ظرف انساني نوعا ما . . كان رجلا يحتمل أن يصل
الى مناصب عالية . ويبدو أن الطالب لم يهتم بـ ك على الإطلاق ،
وأشار بأصبع واحد أخرجه من لحيته ، الى المرأة ، ثم ذهب الى
النافذة فالتحت المرأة فوق ك وهمست اليه :

— أرجوك أشد الرجاء ألا تفضب منى ، ولا تسبىء الحكم على ،
فلا بد أن أذهب الآن اليه ، الى هذا الانسان البشع . انظر الى
ساقيه على الأقل ! ولكنى سأعود حالا ، ثم سأذهب معك ، أن
شئت أن تأخذنى ، سأذهب الى حيث تشاء ، ويمكنك أن تفعل
بى ما تشاء ، فسأسمع اذا تمكنت من الابتعاد عن هنا أطول وقت
ممكن ، وليتنى أتمكن من الابتعاد عن هنا الى الأبد .

وكانت لا تزال تداعب يد ك ، حينما قفزت وعدت الى النافذة ،
ومد ك يده فى الهواء ليمسكها دون ما ارادة منه . كانت المرأة
تفريه فعلا ، وما كان رغم التفكير الطويل يجد سببا قويا يمنعه من
أن يستسلم للأغراء . طرا بباله اعتراض عابر بأن هذه المرأة ربما
تريد اصطیاده للمحكمة ، ولكنه ما لبث أن نحى عنه هذا الاعتراض
بغير جهد . فبأى وسيلة يمكنها أن تصطاده ؟ ألم يظل على الدوام
حرا طليقا ، حتى كان اقوى استطاعته أن يحطم المحكمة ، فيمسها
يخصه ، كلما شاء ؟ أما كان يستطيع أن يمنح نفسه هذا القدر
الضئيل من الثقة ؟ ثم أن عرضها عليه مساعدته كان عرضا صادقا
مخلصا وربما لم يكن عديم القيمة . ولعله لم يكن هناك انتقام من
قاضى التحقيق وبطائته أشد من أنه يجردهم من هذه المرأة وأن
نضمها اليه هو . وربما أمكن أن يحدث ذات مرة أن يعكف قاضى
التحقيق عن كتابة تقارير كاذبة عن ك ويبدل فيه الجهد الجهد
حتى وقت متأخر من الليل ثم يجد سرير المرأة خاويا . ويجده
خاويا لأنها أصبحت ملكا لـ ك ، لأن هذه المرأة الواقفة الآن عند

النافذة ، هذا الجسم انيانع البض الدافئ في هذا الثوب الاسمر
المصنوع من نسيج غليظ سميك ، قد أصبح بتمامه ملكا له
وحده .

فلما فرغ له على هذا النحو من التخلص من كل الاعتراضات
التي ثارت في نفسه ضد المرأة ، طال عليه حديث الاثنين الخفيض
عند النافذة ، فدق بجز رجله على المنضدة ثم دق عليها بعد ذلك
بتبضنه . وتطلع الطالب من فوق كتف المرأة الى ك قليلا ، ولكنه
لم يخرج عن سكونه ، بل على العكس اقترب من المرأة واحتضنها .
وخفضت المرأة رأسها بشدة كأنها تنصت اليه باهتمام ، فقبلها
عندما انشنت قبلة طبعها على رقبتها دون أن يكف عن الكلام بشكل
جوهري . ورأى له أن ذلك هو الطغيان يمارسه الطالب على المرأة
بعد شكواها اليه ، فنهض وراح يقطع الحجرة جيئة وذهابا . وفكروها
يختلس الى الطالب نظرات جانبية ، كيف يتخلص منه بأسرع
ما يمكن . ولذلك ضاق له بالطالب عندما قال له على سبيل
الملاحظة . ويبدو أن حركة ك جيئة وذهابا ، وما تجورت اليه أحيانا
من خبط الأرض ، قد أقلقته الطالب :

— إذا كان صبرك قد نفذ ، فيمكنك أن تذهب . ولو أنك ذهبت
من قبل ، لما افتقدك أحد . بل كان الواجب عليك أن تنصرف ،
خاصة عندما دخلت هنا ، وإن تنصرف بأسرع ما يمكن ! .

ربما بث الطالب في هذه الملاحظة كل ما أمكنه من غيظ ،
ولكنها كانت على أية حال تمتلئ بكل عجرفة موظف الحكمة في
المستقبل عندما يتحدث الى متهم لا يروق له . وظل ك يقف قريبا
منه وقال :

— أما اني قد نفذ صبري فهذا صحيح ، ولكن أسهل وسيلة
للتغلب على نفاذ الصبر هذا هي أن تنصرف أنت عنا . فإذا كنت

قد أتيت الى هنا بقصد الدراسة - فقد سمعت أنك طالب - فانا
افسح لك عن طيب خاطر مكانا ، وانصرف من هنا انا والمرأة .
وسيكون عليك أن تدرس كثيرا قبل أن تصبح قاضيا . وانا وان
لم اكن قد أصبحت حتى الآن علما دقيقا بالمحاكم ، اعتقد أن الانسان
لا يبلغ فيها الغاية بالخطب السمجة التي تجيد أنت تدبيجها وعلى
نحو مجرد من الحياء .

وقال الطالب وكأنه أراد أن يقدم الى ك تفسيراً لكلمته المهينة :
- ما كان ينبغي أن يتركوه هكذا حراً طليقاً ، لقد كان هذا خطأ
كبيراً ! ولقد قلت هذا لقاضى التحقيق . قلت له أنه ينبغي على
الأقل أن يحجز فى حجرته بين جلسة الاستجواب والأخرى . ولكن
قاضى التحقيق له احوال لا أصل فيها الى فهمه .

وقال ك : كلام لا طائل وراءه ! .

ومد يده ناحية المرأة وقال : تعالى ! .

فقال الطالب : هكذا ! لا ، لا ، لن تناولها !

ورفعها على ذراعه بقوة لم يكن أحد يتوقع أنها لديه ، وجرى
بها منثنى الجسم الى الباب وهو ينظر اليها بخنان . كان فى تصرفه
خوف من ك لا مرأ فيه ، ولكنه مع ذلك تجاسر على استفزازه بأن
استعمل يده الأخرى فى مداعبة ذراع المرأة وضمه اليه . وجرى
ك الى جانبه بضع خطوات وتأهب للامساك به ، وربما لخنقه اذا
دعا الأمر . وهنا قالت المرأة :

- لا جدوى من ذلك ، ان قاضى التحقيق أرسله لياخذنى اليه ،
فليس لى ان اذهب معك . فهذا الشاب الصغير البشع - ومسحت
بيدها على وجه الطالب - فهذا الشاب الصغير البشع لن يتركنى .

وصاح ك : وأنت ألا تريد أن تتحرري ؟!

روشح يده فوق كتف الطالب ، فوجه الطالب اسنانه ناحيتها
لعضها . فصاحت المرأة : لا ، لا تفعل .

ودافعت عن ك بيديها : لا ، لا لا تلجأ الى هذا ، فيم تفكر ؟!
ان هذا كفيل بأن يتسبب فى هلاكى ، دعه ، أرجوك دعه .
لا تمسه فانه انما ينفذ امر قاضى التحقيق ويحملنى اليه .

فقال ك : اذن فله ان يعدو ما شاء ، ولست أريد أن أرى
وجهك مرة أخرى أبدا .

واستبد الغضب ب ك من جراء خيبة الأمل فسدد لكمة الى
الطالب أصابته فى ظهره ، وتعرش الطالب قليلا نتيجة لها ، ولكنه
من فرط فرحته لعدم وقوعه ، زاد فى القفز الى أعلا بالحمل الذى
على ذراعه . وتبعهما ك ببطة ، وعرف أن هذه هى الهزيمة الأولى
الأكيدة التى لحقت به على يد هؤلاء الناس . ولم يكن هناك سبب
للخوف ، فما لقى الهزيمة الا لانه التمس المعركة التماسا . ولو أنه
بقى بالبيت واستمر فى حياته على النحو المألوف ، لكان أعلى من
أى واحد من هؤلاء الناس الف درجة ، ولاستطاع أن يبعده من
سبيله برفسة من قدمه . وتصور منظرا هو أشد المناظر مهزلة أن
جرى ، تصور الطالب الهزيل ، هذا الطفصل المنفوخ ، هذا
ال «أبو ذقن» ذو الساقين الملوين ، يركع امام فراش الزه ، ويمقد
يديه متوسلا اليها أن تمن عليه وتغىء عليه بحظوة . وقد أعجب
هذا المشهد ك جدا الى درجة أنه قرر أن يأخذ الطالب الى الزه مرة
إذا سنحت اية فرصة تمكنه من ذلك .

واسرع ك وقد تملكته رغبة فى الاستطلاع الى الباب ، يريد
أن يرى الى أين تحمل المرأة ، فلا يمكن أن يحملها الطالب ويعبر

بها الشارع . وتبين لك أن الطريق أقصر بكثير مما تصور . كان هناك فى مواجهة المسكن بالضبط سلم خشبى ضيق ، لعله يوصل الى غرف الكراكيب التى تتخذ فوق الأسطح ، يستقيم ثم ينحني مرة فلا يرى الناظر غايته . وحمل الطالب المرأة فوق هذا السلم صاعدا ببطء شديد وتأوه ، لأن الجرى كان قد أضعفه . وحيث المرأة كبيدها وحاولت بحركة ضم وإرسال من كتفيها أن تبين أنها بريئة من عملية الخطف هذه ، ولكن حركاتها لم تكن تعبر عن كثير من الأسف . وتطلع لك إليها بوجه مجرد من التعبير وكأنها امرأة غريبة ، فلم يشأ أن يعبر عن خيبة ولا أن يعبر عن أنه يستطيع أن يتغلب على الخيبة فى سر .

كان الاثنان قد تواريا ، وكان لك لا يزال يقف بالباب . وصار عليه أن يؤمن بأن المرأة لم تخنه فحسب ، بل وكذبت عليه كذلك عندما قالت له أنها محمولة الى قاضى التحقيق . فما يمكن أن يكون قاضى التحقيق جالسا فوق السطح ينتظرها هناك ولم يكن السلم الخشبى يفصح عن شيء مهما أطل الانسان النظر اليه . وفجأة تبين لك ورقة صغيرة معلقة عند مدخل السلم ، فذهب اليها فوجد مكتوبا عليها بخط متعثر غير مدرب كخط الأطفال « الطريق الى مكاتب المحكمة » . هنا على سطح بيت كهذا يسكنه الناس بالإيجار تتخذ مكاتب المحكمة ؟ لم يكن هذا وضعا من شأنه أن يوحى بكثير من الاحترام ، وأن كان من شأنه أن يهدىء من روع المتهم أن يتصور مدى قلة الاموال الموضوعة تحت تصرف هذه المحكمة ، حتى أنها تضع مكاتبها هناك حيث كان مستأجروا الشقق وهم أنفسهم من أشد الناس فقرا ، يلقون بكراكيبهم المملة . على أنه لم يكن من المستبعد أن يكون قد وضع تحت تصرف المحكمة ما يكفى من المال ، ولكن الموظفين انقضوا عليه قبل أن يستخدم فى غايات المحكمة . كان هذا رأى بحسب الخبرات التى أتاحت لك حتى الآن أمرا

محتملاً جداً. كان مثل هذا الحط من شأن المحكمة مهيناً لكرامة المتهم ؛ ولكنه كان في حقيقته أكثر تهديداً لنفسه مما لو كانت المحكمة إفقرته إلى المال فحسب. وفهم له الآن لماذا خجلت هيئة المحكمة من أن تستدعيه إلى مكانها فوق السطح أثناء الاستجواب الأول وفضلت أن تنغص عليه وتضايقه في مسكنه . فما أعظم الفرق بين مكان له ومكان القاضي ! في حين يجلس القاضي على السطح ، يجلس هو في البنك في حجرة كبيرة لها حجرة أمامية ذات نافذة زجاجية هائلة يطل منها على ميدان المدينة الذي يعج بالحركة والنشاط . ولكنه لا يربح أرباحاً إضافية من الرشاوى أو الاختلاسات ولا يستطيع أن يكلف خادمه بأن يحمل إليه امرأة إلى المكتب وذلك شيء كان له يجب أن ينزل عنه ، على الأقل في هذه الحياة .

وكان له لا يزال يقف أمام اللافتة الورقية ، عندما صعد أحدهم السلم ، ونظر إلى داخل حجرة المعيشة من خلال الباب المفتوح الذي كان يمكن من خلاله أيضاً التطلع إلى حجرة الاجتماعات ، وسأل الرجل في نهاية الأمر عما إذا كان رأى امرأة منذ قليل . وسأل له : أنت تخدم المحكمة ، هه ؟ .

فقال الرجل : نعم ، آه ، أنت المتهم له ، هأنذا أتعرف عليك أيضاً ، مرحباً بك ! .

ومد يده لمصافحة له ، وهو شيء ما كان له يتوقعه ، وقال الخادم لما صمت له : ولكن اليوم ليس موعد انعقاد جلسة .

وقال له : أعلم هذا .

ونظر إلى الثوب المدني الذي يرتديه خادم المحكمة والذي لم يكن يحمل من الشارات الدالة على الوظيفة إلا زرارين مذهبين إلى جانب الأزرار العادية الأخرى ، يبدو أنه اقتلعها من معطف ضابط قديم .

لقد تحدثت مع زوجتك منذ قليل . وهى ليست الآن هنا .
فقد حملها الطالب الى قاضى التحقيق .

وقال خادِم المحكمة : لقد رأيت ! انهم دائما يأخذونها منى !
واليوم هو يوم الأحد ، ولست مكلفا باداء عمل ، ولكنهم ارسلوني
بعيدا بخير لا فائدة منه ، لا لشيء الا لابعادى . ثم انهم لا يرسلوني
الى مكان بعيد جدا ، مما يجعلنى آمل فى ان اعود فى الوقت
المناسب ان عجلت الخطى . وهكذا اعدو بأقصى سرعة اقدر عليها ،
وأصيح عبر فتحة الباب الى الديوان الذى ارسلت اليه بالخبر وقد
انقطعت أنفاسى ، فلا يكاد أحد يفهم كلامى ، ثم اعود عدوا ، ولكن
الطالب يكون قد تعجل أسرع منى فطريقه أقصر من طريقى اذ ليس
امامه الا السلم ينزل عليه من السطح الى هنا . لو لم أكن خاضعا
للمحكمة الى هذه الدرجة ، لقدفت بالطالب الى الحائط وهشمته
تهشima . هنا بجانب هذه الالفة . هذا شيء لا أنفك أحلم به .
أحلم به هنا راقدا فوق الأرضية ، ملطوعا محصورا يمد ذراعيه
ويفرد أصابعه ، ويلوى ساقيه اللتويتين المدورتين ، وقد تناثرت
حواليه بقع الدماء . هذا حلم لا يزال حلما .

وسأل ك مبتسما : اليس هناك وسيلة أخرى تستعين بها ؟
فقال خادِم المحكمة : لا أعرف لى وسيلة أخرى . وها هو ذا
الامر يزداد قبحا . . كان الطالب حتى الآن يحملها الى نفسه ، أما
الآن ، وهو شيء طالما توقعته ، فهو يحملها الى قاضى التحقيق
كذلك .

وسأل ك : اليس لزوجتك شيء من ذنب فى هذا ؟
وكان على ك عند هذا السؤال ان يكره نفسه اكراها لشدة
الغيرة التى احس بها الآن .

وقال خادِم المحكمة : هذا ما لا شك فيه . بل أن ذنبها هو أكبر الذنب . فهي التي تعلقَت به . أما هو فهو يلاحق كل النساء . وقد القى به في هذا البيت وحده خارج خمس شقق كان قد تسلل إليها خلسة . ولكن زوجتي هي أجمل امرأة في هذا البيت كله ، وليس لي أنا بالذات أن أدافع عن نفسي .

فقال ك : إذا كان الأمر كذلك فليس هناك وسيلة تستعين بها على حالك ..

وقال خادِم المحكمة : ولم لا ؟ لابد من أن ينهال أحدهم على الطالب ضرباً ، وهو جبان ، عندما يحاول أن يلمس زوجتي ، فلا يعود إلى التجرؤ على هذا . ولكن ليس لي أن أفعل هذا أنا ، وليس هناك من يقدم لي هذه الخدمة ، لأن الجميع يخافون سطوته . لا يمكن أن يفعل هذا إلا رجل مثلك .

فسال ك مندهشاً : لماذا أنا إذن ؟

فقال خادِم المحكمة : لأنك متهم !

فقال ك : نعم ، ولكن هذا سبباً ادعى بي إلى أن أزيد خوفاً ، فإذا كان لهذا الطالب تأثير على نهاية القضية ، فلا شك في أن له كذلك تأثيره على التحقيق الأولي .

فقال خادِم المحكمة : نعم ، هذا شيء مؤكد .

قالها وكأنه يؤمن بأن رأى ك صائب تماماً كرايه هو ، ثم اردف : وليست عندنا في العادة قضايا مقطوعة الأمل .

فقال ك : است أرى رأيك ، ولكن هذا لا ينبغي أن يحول بيني وبين التصرف مع الطالب بما ينبغي من حين لآخر .

وقال خادم المحكمة وكأنه يقول شيئا متكلفا : سأكون شاكرا لك على منيعك معترفا لى بجميلك . وبدأ فى الحقيقة غير مصدق لامكانية تحقق أعظم أمنية له .

وأردف ك يقول : ربما استحق موظفون آخرون المعاملة نفسها ، أو ربما كلهم .

فقال خادم المحكمة وكأنه يقول كلاما طبيعيا : نعم ، نعم . ثم نظر الى ك نظرة ثقة لم ينظرها من قبل رغم كل ألود الذى اصطنعه ، ثم أضاف : ان الانسان ليجد هنا دائما ما يشير فائزته . ولاح له هذا الحديث ثقيل نوعا ما يدل على ذلك أنه قطعه وهو يقول : على الآن أن أبلغ ديوان المحكمة اننى عدت . أتريد أن تأتى معى ؟ .

فقال ك : ليس لى عمل هناك .

فقال الرجل : يمكنك أن تشاهد مكاتب ديوان المحكمة . ولن يلتفت اليك أحد .

فسال ك مترددا وقد أخذته رغبة شديدة فى الذهاب معه : - هل تستحق المشاهدة والتطلع ؟

وقال خادم المحكمة : اعتقدت أنها تهيك .

فقال ك فى النهاية : حسنا ! سأذهب معك .

وصعد السلم أسرع من خادم المحكمة .

وأوشك ك أن يقع عند المدخل فقد كانت هناك وراء الباب درجة مرتفعة . فقال : انهم لا يهتمون بالجمهور كثيرا .

فقال خادِم المحكمة : أنهم لا يهتمون بأحد على الإطلاق . انظر الى حجرة الانتظار مثلا .

كان هناك ممر طويل ، فيه أبواب مصنوعة من الخشب الخام توصل الى المكاتب المختلفة المتخذة فوق السطح . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك فتحة مباشرة لادخال الضوء ، فلم يكن الممر مظلمًا حالك الظلمة ، لأن بعض المكاتب كانت تنتمي ناحية الممر ، لا بجدار كامل من الألواح المتصلة ، بل بحاجز من قضبان متشابكة يصل الى السقف ، وينفذ من خلاله شيء من ضوء ، ويرى الناظر من خلاله بعض الموظفين متفرقين يجلسون الى مكاتبهم أو يقفون بالحاجز ويتطلعون الى الناس بالممر من بين فتحات الحاجز ذي القضبان المتشابكة . ولم يكن بالممر ، ربما لأن اليوم كان يوم الاحد ، إلا قليل من الناس . وكان هؤلاء الناس يظهرون في هيئة متواضعة جدا . كانوا يجلسون على ابعاد منتظمة الواحد من الآخر على دكتين خشبيتين طويلتين موضوعتين على جانبي الممر . كانوا جميعا مهملين عنداهم ، على الرغم من أن أغلبهم كانوا ، استنتاجا من تعبير الوجه والهيئة وشكل اللحية وغير ذلك من تفصيلات قليلة دقيقة طفيفة ، من الطبقات العالية بالمجتمع . ونظرا لأنه لم يكن هناك مشاجب لتعليق الملابس والقبعات فقد وضعوا ، وربما اتبع الواحد منهم مثل الآخر ، قبعاتهم تحت الدكة . وما أن رأى أولئك الذين يجلسون قرب الباب ك وخادِم المحكمة ، يظهران حتى هبوا واقفين للتحية ، فلما رأى الباقيون هذا ، اعتقدوا أن عليهم أن يحيا القادمين هم كذلك ، وهكذا وقف الجميع عندما مر عليهم الاثنان تحية لهما . ولم يقف هؤلاء وقفة كاملة ، بل كانوا يقفون بظهر منح وركب مثنية وكانهم متسولين . وانتظر ك خادِم المحكمة الذي كان يسير خلفه قليلا وقال له : ما اشد ذلة هؤلاء !

فقال الخادم : نعم ، انهم متهمون ، كل اولئك الذين تراهم هنا متهمون .

وقال ك : حقا ! اذن فهم زملائي .
والتفت الى اولهم وكان رجلا طويلا نحيفا يكاد شعره ان يكون اشيبا كله . وسأله ك بآداب : ماذا تنتظر هنا ؟ .

ولكن السؤال غير المتوقع أصاب الرجل بالارتباك ، وحز ذلك في نفس ك على نحو شديد ، لأن الرجل بدا له من ذوى الخبرة بأمور الدنيا يستطيع بلا شك أن يتمالك نفسه في غير هذا الظرف ، ولا يفرط بسهولة في الرفعة التي أتاحت له فوق الكثيرين . لم يستطع هذا الرجل أن يجيب هنا على سؤال بسيط هكذا ، وتطلع الى الآخرين كأنما كانوا مكلفين بواجب معاونته ، وكأنما كان من غير الممكن أن يطالبه أحد بجواب سؤال اذا امتنعت عنه هذه المعونة . عند ذاك أقبل خادم المحكمة وأقال ليهديء الرجل ويشجعه : السيد يسالك فقط عن الشيء الذى تنتظره . فاجبه .

وأدى صوت خادم المحكمة ، الذى يظهر انه كان معروفا لديه ، الى نتيجة أفضل ، وبدا الرجل يقول :

- انا انتظر ..

ثم تعثر . ويبدو انه اختار هذه البداية لينجيب بدقة على السؤال الملقى ، ولكنه لم يجد البقية . وكان عدد من المنتظرين قد اقترب وأحاط بالمجموعة ، فقال لهم خادم المحكمة :

- ابعدوا ! افسحوا الممر ! .

وتحركوا قليلا الى الخلف ، ولكنهم لم يعودوا الى أماكنهم السابقة . وفى هذه الأثناء كان الرجل الذى التى عليه السؤال قد استجمع شتات نفسه وراح يهيج حتى بإنسامة صغيرة :

ـ لقد قدمت منذ شهر طلبات اثبات خاصة بقضيتي وأنا
انتظر أن تنجز .

وقال له : يبدو انك تبذل جهدا كبيرا .

فقال الرجل : نعم . فالقضية قضيتي .

فقال له : ليس كل انسان يفكر كما تفكر ، فانا مثلامتهم أيضا ،
ولكني بحق ما أأمل في سعادة الآخرة ، لم ألتزم بطلب اثبات ، ولم
أقم بأي شيء من هذا النوع . هل تعتبر هذا ضروريا ؟

فقال الرجل وقد عاد الى الاضطراب كل الاضطراب : لا اعرف
على وجه التحديد .

ويبدو انه ظن ان له يمزح معه ، ولعله يفضل ، خشية الوقوع
في أي خطأ جديد ، أن يعيد اجابته السابقة بمرمتها ، ولكنه اكتفى
امام نظرة له المتعجلة بأن قال : انا من ناحيتي قدمت طلبات اثبات .
وسأل له : لعلك لا تصدق انني متهم ؟

وقال الرجل : آه عفوا ، بل بكل تأكيد .

ثم انتحى جانبا ، وكانت اجابته لا تمتلىء بالايمان بل بالخوف .
وسأل له : أنت اذن لا تصدقني ؟

وأمسك بذراع الرجل ، وقد استغفزه على نحو لا شعوري كيانه
التواضع المتدلل ، وكأنما أراد بامساكه اياه ان يرغمه على تصديقه .
ولكنه لم يرد أن يحدث به المأ ، واكتفى بأن تعدى عليه على نحو
رفيق جدا ، ومع ذلك فقد صرخ الرجل ، وكان له أمسكه بكماشتين
متأججتين نارا ، ولم يمسكه باصبعين . وسئمه له نهائيا نتيجة
لهذا الصراخ المضحك . اذا لم يكن الناس يصدقون انه متهم ،
افلا بأس . بل ربما كان الرجل يخاله من القضية . وأمسك له بالرجل

الآن مسكة قوية فعلا ليودعه ، ودفعه الى المقعد واستأنف سيره .
وقال خادم المحكمة : غالبية المتهمين حساسون على هذا النجس
الذي رأيت .

والى الخلف منهم كان المنتظرون قد تجمعوا كلهم تقريبا . جول
الرجل الذى كان قد كف عن الصراخ ، ويظهر أنهم راوا يستجوبونه
عن تفصيلات الحادثة ويدققون فى السؤال . وأقبل على ك حارس
غرف ك أنه حارس لأنه كان يتخذ سيفاً ، غمده ، على ما يبدو على
الأقل من لونه ، مصنوع من الألومنيوم . ودهش ك لذلك بل ومد
يده نحوه . وسأل الحارس الذى أقبل بسبب الضياح ، عما
حدث . واجتهد خادم المحكمة فى تهدئته بكلمات ، ولكن الحارس
أعلن انه يريد أن يستوضح الأمر بنفسه ، وألقى بحية واستأنف
السير بخطوات سريعة جدا ، قصيرة جدا ، ويبدو أن مرضا فى
مفاصله كان يفرض عليه سعة معينة للخطوة .

ولم يطل ب ك الاهتمام بهذا الرجل والجماعة الواقعة بالمر ،
خاصة وأنه رأى عند منتصف الممر تقريبا امكانية الانعطاف الى
يمين من خلال فتحة غير ذات باب . وتفاهم مع خادم المحكمة فى
أمر هذه الطريق وهل هى الطريق الصحيحة ، فأوما خادم المحكمة
بالموافقة ، وانعطف ك فعلا فى هذا المنعطف . كان ك يستثقل أن
يسير دائما قبل خادم المحكمة بخطوة أو بخطوتين ، فقد أوشك هذا
أن يبدو ، على الأقل تلى هذا المكان ، وكأنه يساق به متهما . ولهذا
كان كثيرا ما ينتظر خادم المحكمة ، ولكن خادم المحكمة كان لا يلبث
أن يعود الى تأخره . وأخيرا قال ك لينهى ما به من حرج :

— لقد رأيت ما هنا وأريد الآن أن أنصرف .

وقال خادم المحكمة بدون أدنى ارتباك : ولكنك لم تر كل شيء
بعد .

افقال لك وكان قد بدأ بالفعل يحس بالتعب : لا أريد أن أرى كل شيء ، أريد أن أنصرف ، كيف يصل الانسان الى المخرج ؟

وسال خادم المحكمة مندهشاً : عسى الا تكون قد تهت هنا بهذه السرعة ؟ اذهب حتى المنعطف ثم اتجه يميناً بطول الممر دون حيد فتصل الى الباب .

وقال لك : تعال معى . ارنى الطريق ، فسوف أخطئه ، وما أكثر الطرق هنا .

وقال خادم المحكمة وقد اصطنع الآن لهجة اللوم : انها الطريق الوحيدة . ولا يمكننى أن أسير معك ، فلا بد أن أحمل البلاغ الى غايته ، ولقد فقدت بسببك حتى الآن وقتاً كثيراً .

وأعاد لك الكلام بلهجة أكثر حدة وكأنما أبسك خادم المحكمة متلبساً بكذبة : تعال معى !

وهمس اليه خادم المحكمة قائلاً : لا تصح هكذا ! فهنا مكاتب فى كل مكان . اذا لم تكن تريد أن تعود بمفردك ، فسر معى شيئاً من طريقي أو انتظر هنا حتى أفرغ من مأموريتى فأعود بك عن طيب خاطر .

وقال لك : لا ، لا ! لن أنتظر ، ولا بد أن تأتى معى الآن .

ولم يكن لك دار ببصره فى المكان الذى بلغه الآن ، فلما انفتح باب من الأبواب الخشبية الجانبية الكثيرة تطلع الى داخله . وأنت من الباب فتاة لا بد أنها خرجت نتيجة لصياح لك ، وسألت :

— ماذا يرغب السيد ؟

وفى ظلمة خلفها غير حالكة ظهر رجل على بعد يقترب . وتطلع لك الى خادم المحكمة . كان خادم المحكمة قد قال له انه لن يلتفت

اليه فى الديوان احد ، ولقد اقبل اثنان الآن ، ولن يمر الا وقت قليل وتنبه اليه جماعة الموظفين كلها وتلمس منه تفسير الوجوده . والتفسير الوحيد المقبول هو انه منهم . وانه يريد ان يعرف موعد جلسة التحقيق القادمة . ولكن هذا التفسير هو بالضبط التفسير الذى لم يكن يريد ان يقدمه ، خاصة وانه غير مطابق للحقيقة ، فهو انما اتى بدافع الفضول ، او بدافع الحاجة . وهو ما لا يمكن تقديمه كتفسير . الحاجة الى تبين ان هذه المحكمة منفرة من داخلها بقدر ما هى منفرة من خارجها . واستصوبك التقدير الاخير ، فهو لم يرد ان يستمر فى التوغل الى الداخل ، وقد كفاه الضيق مما قد رآه حتى الآن ، ولم يكن فى تلك اللحظة بالذات فى حالة نفسية تسمح له بان يتقدم ناحية كل موظف عظيم يمكن ان يبرز من وراء كل باب . كان يريد ان ينصرف ، اما بمصاحبة خادم المحكمة ، او بمفرده ان احتاج الامر .

ولكن وقوفه صامتا صمت الأخرس لابد قد لفت اليه الأنظار ، وبالفعل تطلعت اليه الفتاة وتطلع اليه خادم المحكمة على نحو يكاد يوحي بأن تغيرا عظيما سيطرأ عليه حتما وأنهما يريدان ملاحظته حتى لا يفلت منهما . وها هو ذا الرجل ، الذى كان قد رآه على بعد منذ برهة يقف بالباب المنخفض ، ويتعلق بالعرق الخشبى بالسقف اعلاه ويتأرجح قليلا فوق اصابع قدميه كمتفرج نفسه صبره . وتبينت الفتاة قبل الآخرين ان تصرفك يرجع الى وعكة خفيفة ألمت به ، فأتته بكبرى ذى مساند وسألته : ألا تريد ان تجلس ؟

وجلسك فى الحال وأسند كوعيه على المسندين حتى يتمالك نفسه . وسألته الفتاة : لقد أصابتك دوخة خفيفة ، اليس كذلك ؟

كان وجهها الآن قريبا منه . وتبين لك انه يحمل تعبيرا قاسيا كالذي تحمله أوجه غير قليل من النساء فى ريعان الصبا . وقالت

له : لا تشغل بالك ، فما ألم بك ليس بالشئ غير المألوف هنا ، فكل انسان تقريبا يصاب بمثل هذه الدوخة عندما يأتي الى هنا لأول مرة . هل انت هنا للمرة الاولى ؟ اذن فما بك ليس بالشئ غير المألوف . فالشمس هنا تسطع حارة على هيكل السقف فيسخن الخشب ، والخشب الساخن هو الذي يجعل الهواء ثقيلًا مقبضًا . والمكان لهذا السبب مكان لا يصلح لمكاتب الديوان ، وان كان يتميز بميزات عظيمة ، اذا غضضنا النظر عن هذا العيب . اما فيما يتعلق بالهواء ، فهو في فترات نزاحم المتقاضين ، وهو شئ يوشك أن يتكرر كل يوم ، غير صالح للتنفس تقريبا . فاذا أخذت في اعتبارك ان الفسيل كثيرا ما يعلق هنا ليحجف - فما يمكن أن يحظر على المستأجرين حظرا باتا أن يعلقوا غسيلهم ليحجف - فلاءجب أن بصيكت قليل من الدوخة . ولكن الانسان يعود بمضى المدة على هذا الهواء تمودا جيدا جدا . فاذا عدت الى هنا للمرة الثانية او الثالثة فان تحس ما بالهواء من ثقل . هل تحسنت الآن ؟

ولم يجب لك بشئ ، فقد ساءه أن يسلمه هذا الضعف المفاجيء الى هؤلاء الناس ، وأحس بحالته تزداد سوءا ، ولا تتحسن بعد ان علم أسباب وعكته . وقد أحسبت الفتاة بذلك على الفور ، وتناولت عصا ملنوية كانت مستندة الى الحائط وخبطت بها النافذة الصغيرة التي كانت فوقك مباشرة وكانت تطل على العراء ، حتى تدخل شيئا من الهواء الطلق ينعشك ولكن سناجا (١) كثيرا جدا دخل من النافذة جعل الفتاة تقفل النافذة من جديد على الفور ، واضطرت الى تنظيف يديك بالمنديل ، لأنك كان من التعب بحيث لم يستطع أن يقوم بذلك بنفسه . ولعلك كان يرحب بالبقاء في هذا المكان

الى ان ينال من القوة ما يكفي للانصراف ، ولكن هذا الانصراف كان ينبغي ان يتعجل بقدر قلة الاهتمام به .

وقالت الفتاة : لا يمكن ان تبقى هنا ، فانت هنا تعوق المرور .
وسأل ك بعينيه عن المرور الذى تعنى انه يعوقه .

وقالت الفتاة لـ ك : اذا شئت فانا آخذك الى حجرة المرضى .

ونظرت الى الرجل الذى بالباب والذى اقترب وقالت : ساعدنى من فضلك .

ولكن ك لم يقبل الذهاب الى حجرة المرضى ، لقد كان الشيء الذى اراد ان يتحاشاه هو ان يؤخذ الى بعيد ، فكلما أبعد ، كلما زاد حنقه . لهذا قال : انا الان أستطيع المشى .

ووقف يرتعش لأن الجلوس اللين كان قد عوده على الراحة .
ولكنه لم يستطع ان يقيم بدنه ، فقال وهو يهز راسه : لا أستطيع .

وعاد الى الجلوس وهو يطلق الزفرات . وتذكر ك خادم المحكمة الذى كان على أية حال يستطيع ان يخرج به الى الخارج بسهولة ، ولكن خادم المحكمة لابد قد انصرف منذ مدة طويلة ، وتطلع ك بين الفتاة والرجل وكانا يقفان أمامه ، ولكنه لم يستطع ان يجد خادم المحكمة .

وقال الرجل ، الذى كان يلبس ثيابا انيقة يلفت النظر منها جاكete رمادية تنتهى بطرفين مديبين : اعتقد ان دوخة السيد سببها الجو ولهذا فان الأفضل والمستحب الا نأخذ به الى حجرة المرضى
اولا ، بل ان نخرجه خارج الديوان كله مباشرة .

وصاح ك : هو ذاك ! .

وأوشك من شدة فرحه أن يقطع على الرجل كلامه ، وأردف يقول : ستتحسن حالتي على الفور بلا شك ، وأنا لست على ما قد يبدو على من الوهن ، إنما أحتاج الى من يسندني قليلا تحت ابطي ، ولن يكون في ذلك تعب عليه ، خاصة وأن الطريق ليست طويلة . خذوني الى الباب ، وسأقعد قليلا على الدرج حتى أسترده قواي ، فانا لا أعاني من أزمات الدوخة بتاتا ، وإن ما ألم بي الآن ليدهشني كل الدهشة . وأنا موظف أنا أيضا ومعتاد على جوال المكاتب ولكن يبدو أنه هنا فظيع جدا كما قلتكم انتم بانفسكم . فهل تنكرون باقتيادي قليلا ، فقد استبد بي الدوار ، وكلما نهضت وحدي أحسست بدوخة .

ورفع كتفيه ليسهل على الاثنين مهمة سنده من تحت ابطيه .

الا أن الرجل لم يستجب للالتماس ، بل أبقى يديه في جيبى البنطلون وضحك بصوت عال . وقال للفتاة : اترين ، لقد أصبت المراد . ما بالسيد ضيق من هنا فقط ، لا ضيق عام .

وابتسمت الفتاة ، وقرعت الرجل بأطراف أصابعها برفق فوق ذراعه كأنما سمح لنفسه بمزاح شديد مغرط في الشدة مع ك . ولكن الرجل قال وهو لا يزال يضحك : لكن ما ظنك ، في أنني سأأخذ السيد فعلا الى الخارج .

فقال الفتاة وهي تخفض رأسها الرقيق لحظة : اذن فخير .

وعادت الفتاة تقول له الذي تملكه الحزن وراح يحمق أمامه ويلوح كأنه في غير حاجة الى تفسير : لا تعلق على هذا الضحك أهمية فائقة ، فهذا السيد - اظن أن لي أن أقدمك ؟ - (وسمح لها السيد بحركة من يده) - هو المختص بالاستعلامات . أنه يقدم للمتقاضين المعلومات التي يحتاجون إليها ، ولما كانت محكمتنا غير

مشهورة جدا بين الاهالى ، فان الاستعلامات المطلوبة كثيرة . انه يعرف الجواب على كل سؤال ، ويمكنك ان احببت ان تجزيه فى هذا . وليست هذه الميزة هى ميزته الوحيدة ، فله ميزة ثانية هى الهدام الانيق . وقد رأينا ، اعنى نحن الموظفين ، ذات مرة ان موظف الاستعلامات الذى يتعامل مع الجمهور دائما والذى هو اول من يحتك بهم لابد ان يعطى انطبعا اولاً كريماً فالبسناه هنداما انيقا . اما نحن ، بقية الموظفين ، فنحن كما ترى فى حالتى ، نلبس للأسف الملابس القبيحة جدا التى تقادم عهدا . على انه ليس هناك فائدة كبيرة فى انفاق شئ على الملابس، لاننا نظل فى المكاتب هنادون انقطاع تقريبا ، فنحن ننام هنا . ولكننا ، كما قلت ، رأينا من الضرورى ان يكون موظف الاستعلامات حسن الهدام . ولما لم يكن من الممكن الحصول على ملابس جميلة له من الادارة ، لأنها غريبة المسلك فى مثل هذه الامور ، جمعنا المال نحن ، واسهم المتقاضون بشئ ، واشترينا له هذه الملابس الجميلة وغيرها . وبهذا يكون لديه ما يلزم لاعطاء انطباع طيب . ولكنه يتلف كل شئ بضحكه ويفزع الناس .

وقال السيد ساخرا : هو ذاك ! ولكننى يا آنسة لا افهم لماذا تقصين على السيد كل خصوصياتنا ، او على الأخرى لماذا تفرطينها عليه ، فهو لا يريد ان يحيط بها علما على الاطلاق . انظرى اليه كيف يجلس مشغولا بأموره هو .

ولم يكن لدى ك حتى مجرد الرغبة فى الاعتراض ، وربما كانت نية الفتاة طيبة ، وكانت تتجه الى الترويح عنه ، او تمكينه من استجماع نفسه ، ولكن الوسيلة التى توصلت بها كانت مخطئة .

وقالت الفتاة : لابد ان اشرح له معنى ضحكك . فقد كان ضحكك مهينا .

وقال : اعتقد انه سيصفح عن أهانات أشد من هذه ، اذا أنا
أخذه في النهاية الى الخارج .

ولم يقل لك شيئا ، بل لم يرفع بصره الى أعلا وقبل أن يتحدث
الاثنان عنه كأنهما يتحدثان عن شيء من الأشياء ، بل كان ذلك هو
أحب أمر الى نفسه . وفجأة أحس بيد موظف الاستعلامات على
أحد ذراعيه ويد الفتاة على الآخر .

وقال موظف الاستعلامات : هيا اذن ، أيها الرجل الضعيف !

وقال له وقد أخذه فرح مفاجيء : أشكركما شكرا جزيلا ! .

ونفض ببطء وساق هو اليدين الغريبتين الى الموضعين اللذين
يحتاج فيهما الى أكثر المساندة .

وقالت الفتاة هامسة في أذن له ، عندما اقتربوا من المر :

— لقد بدا لك الأمر كأنى كنت مهتمة اهتماما خاصا بوضع
موظف الاستعلامات في ضوء مسراف في الخير ، ولكنى أرجو أن
تصدقنى ، فما أردت الا أن أقول الحقيقة . ان قلبه غير قاس .
وليس من واجبه أن يأخذ المتقاضين المرضى الخارج ، ومع ذلك
فهو يأخذهم كما ترى . وربما لم يكن بيننا أحد قاسى القلب ،
وربما أردنا جميعا أن نعين الناس عن طيب خاطر ، ولكننا كموظفين
فى المحكمة نكتسب بسهولة مظهر من قست قلوبهم وصدوا عن
معونة الناس . اننى أعانى من هذا وأتألم منه .

وسأل موظف الاستعلامات : أما تريد أن تجلس هنا قليلا ؟

وكانوا عندذاك فى المعرامام المتهم الذى كان له قد كلمه من قبل ،
وخجل له منه أو أوشك أن يخجل منه . كان من قبل يقف امامه
قائما شيطا ، أما الآن فقد سنده اثنان . . وراح موظف الاستعلامات

يُرجح قبعته على أصابعه المفرقة المشددة ، واضطربت تسريحة شعره وتدلج الشعر على جبينه الملبل بالعرق . ولكن المتهم لاح كانه لم يلحظ شيئا من هذا ، ووقف ذليلا امام موظف الاستعلامات الذى تجاوزه ببصره ، وحاول ان يعتذر من وجوده فقال :

— اننى اعلم ان البت فى طلباتى لن يتم اليوم ولكنى مع ذلك اتيت ، لأننى فكرت اننى استطيع ان انتظر هنا ، فالיום يوم الأحد ، ولدى وقت ، ولست اقلق أحدا .

وقال موظف الاستعلامات : لا عليك ان تلتمس عذرا لذلك بهذا النحو الشديد ، وان اهتمامك لشيء جدير بالمدح والتقدير . حقيقة انك تشغل مكانا هنا بلا جدوى ولسكنى مع ذلك ، ومادام الأمر لن يثقل على ، لن أمنعك من متابعة سمر قضيتك بدقة . وان الانسان عندما يكون قد رأى كيف يهمل البعض واجبهام على نحو معيب ، يتعلم ان يتدبر مع أمثالك بالصبر . اجلس .

وهيست الفتاة فى اذنك : يا لقدوته على التفاهم مع أصحاب القضايا !

وأوما لك برأسه ، ولكنه ما لبث أن انتفض عندما عاد موظف الاستعلامات يسأله : الا تريد أن تجلس هنا ؟

وقال ك : لا ، لا أريد أن أستريح .

قال ك هذا باكثر ما استطاع من اصرار ، والحقيقة انه لو جلس لاستراح ولتحسنت حالته . وكان ك كالمصاب بدوار البحر ، يظن نفسه فوق سفينة تضرب على بحر عاصف . كان يحس كأن الماء يرتطم بالجدران الخشبية ، وكان لجة فوارة تندفع من أعماق المنصر مثل الماء المرتد، وكان المر يتأرجح عرضا قيصدا أصحاب القضايا المنتظرون ويهبطون . وما كان أشد غموض هدوء الفتاة والرجل

الذين فاداه وأصعبه على فهمه ! كان قد استسلم لهما ، ولوتركاه ،
 لاقلب كاللوح . كانت عيونهما الصغيرة تغلق نظرات حادة هنا
 وهناك ، وكان له يحس بخطواتهما المنتظمة دون أن يشارك فيها ،
 لأنهما كانا يحملانه من خطوة الى خطوة . وفي النهاية لاحظ أنهما
 يتكلمان ، ولكنه لم يفهمهما ، كان لا يسمع الا الضوضاء التي ملأت
 كل شيء والتي نغدت خلالها نفمة عالية غير مفهومة تدوى كأنها من
 تغير .

وهمس ك : ارفعا صوتكما .

وخفض رأسه وخجل من نفسه لأنه عرف أنهما كانا يتكلمان
 بصوت عال بما فيه الكفاية وان استحال عليه الفهم . وأخيرا هل
 عليه تيار من الهواء المنعش ، كان الجدار أمامه انشق ، وسمع جانبه
 صوتا يقول :

— انه يريد أن يخرج ، وها نحن أولاء نقول له مائة مرة: هذا هو
 الباب الخارجى وهو لا يتحرك ! .

ولاحظ له أنه أمام الباب الخارجى وان الفتاة فتحته . وأحس
 كان اقوته كلها عادت اليه دفعة واحدة . وأراد أن ينال جرعة أولى
 يتدوقها من الحرية ، فتقدم الى درجة من درجات السلم فورا ،
 وودع مرافقيه الذين كانا ينظران اليه من اعلا. وكرر عبارة: «شكرا
 جزيلا»، وكرر مصافحتهم، ولم يكف عن ذلك الا عندما اعتقد انه
 رأى ، انهما وقد تعودا على هواء المكاتب ، لم يحتللا الهواء النقي
 نسبيا الذى اتى من ناحية السلم . لم يستطع الاثنان الاجابة او كادا
 الا يستطيعان الاجابة ، واوشكت الفتاة ان تنقلب ، لو لم يجعل ك
 بقفل الباب بغاية السرعة . ووقف ك لحظة ساكنا ، وأصلح شعره
 مستعينا بمرآة صغيرة كانت فى جيبه ، ووضع قبعته على رأسه ،
 وكانت على أول بسطة للسلم — ولابد أن موظف الاستعلامات قدف
 بها الى هناك — ثم نزل السلم مسرعا ، نشيطا يقفز قفزات طويلة ،

حتى أوشك أن يخاف من خفته . لم تكن حالته الصحية الجيدة قد عودته من قبل على أزمت مباغتة من هذا النوع قط . فهل أراد جسمه أن يشور عليه وأن يعد له قضية جديدة ، وهو لم يحتمل القديمة إلا بشق الأنفس ؟ ولم يرفض كالفكرة التي خطرت له بأن يذهب في أقرب فرصة إلى طبيب ، ثم أنه أراد على أية حال - وهذا أمر كان يكفيه فيه أن يشاور نفسه - أن يستخدم صباح أيام الإحاد القادمة على نحو أفضل .

الفصل الرابع

• صديقة الأنسة بورسترن

استحال على ك في الفترة التالية أن يكلم الأنسة بورسترن حتى أقل الكلام . ولقد جرب بطرق مختلفة أن يقترب منها ، ولكنها كانت دائما تعرف كيف تردده . كان يأتي الى البيت بعد أن يفرغ من المكتب ، فيبقى بالحجرة دون أن يضيء النور ، ويجلس على الأريكة فلا يشتغل الا بشيء واحد هو مراقبة الحجرة الامامية . فاذا مرت الخادمة واغلقت باب الحجرة التي تظنها خالية ، انتظر هنيهة وفتح الباب من جديد . وكان في الصباح ينهض قبل موعد نهوضه بساعة ، عله ان يلقي الأنسة بورسترن وحدها وهي خارجة الى المكتب . ولكن هذه المحاولات فشلت جميعها . فكتب اليها خطابا ارسله الى المكتب وآخر ارسله الى المسكن ، حاول فيه أن يبرر موقفه ، وعرض فيه استعداداه لاصلاح الامر بأي شيء ترضاه ، ووعداها بالآ يتجاوز معها ابدا الحدود التي ترسمها له ، ورجاها أن تمنحه شيئا واحدا فقط هو امكانية الحديث اليها ، خاصة وانه لا يستطيع أن يفعل شيئا لدى السيدة جروباخ دين

(١) لا يتفق النقاد على مكان هذا الفصل ، بعضهم يجعله الرابع ، وبعضهم يؤخره . وقد وضعناه في هذا المكان اتباعا للنسخة التي ترجمنا عنها .

[المترجم]

ان يكون قد تشاور معها من قبل ، وختم خطابه بقوله انه سيكون يوم الأحد القادم في الحجرة طوال النهار ينتظر اشارة منها تجعله يؤمل في تحقيق رجائه او توضح له على الأقل ، لماذا لا تستطيع أن تحقق رجاءه رغم وعده بالالتزام بكل ما يطلبه . ولم يرجع البريد الخطابين اليه ، ولكنه لم يحمل اليه ايضاً رداً . أما في يوم الأحد فقد أتت اشارة تحمل من الوضوح الشيء الكافي . فقد لاحظك في وقت جد مبكر بالنظر من خلال ثقب المفتاح ان هناك غريبة في الحجرة الامامية ، ما لبثت ان اتضحت . كانت هناك مدرسة لغة المانية تنتقل بمتاعها للسكنى في حجرة الانسة بورستنر ، كانت تلك المدرسة المانية وتدعى مونتياج ، وكانت فتاة ضعيفة البنية شاحبة الوجه ، تمرج قليلاً ، وكانت تسكن في حجرة خاصة بها حتى ذلك الوقت . وراها ك تجر قدميها ساعات طوال في الحجرة الامامية . كانت دائماً تتذكر قطعة من ملابس او مفرشاً صغيراً او كتاباً نسيته ، فتعود لتحضره خاصة وتحمله الى السكن الجديد .

فلما احضرت السيدة جروباخ طعام الافطار - وكانت منذ اغضبتك غضباً شديداً لا توكل الى الخادمة اقل خدمة - لم

يستطيع ك أن يمنع نفسه من التحدث إليها لأول منذ خمسة أيام .
سألها وهو يصب القهوة : ماهذا الصخب اليوم فى الحجرة
الإمامية ؟ أما يمكن أسكاته ؟ هل ينبغى أن ينظم المتاع فى الحجرات
فى يوم الأحد بالذات ؟ .

وعلى الرغم من أن ك لم يرفع بصره الى السيدة جروباخ ، فقد
احس بانها التقطت انفاسها كأنما انزاح عن صدرها شيء ثقيل . .
اذ انها حملت هذه الأسئلة رغم فسوتها على انها صفح ! وبداية محاوره
تنتهى الى الصفح . وقالت : ليس هناك متاع ينظم يا سيد ك ،
بل ان الأنسة مونتاج تنتقل للسكنى مع الأنسة بورسترن ، وهى
تحمل أشياءها الى هناك .

ولم تضيف شيئاً بل انتظرت لترى كيف يقبل ك كلامها ، وهل
يسمح لها بالاسترسال فى الحديث . ولكن ك ابتلاها باختبار
وراح يقلب القهوة بالملعقة مستغرقاً فى التفكير ، وصمت . ثم رفع
بصره اليها وقال : هل نحيث عنك شكك القديم فى الأنسة
بورسترن ؟ .

وصاحت السيدة جروباخ التى كانت تنتظر هذا السؤال دون
عيره وبسطت يديها الى ك : يا سيد ك ، لقد تشددت فى تأويل
ملاحظة يسيرة ، عابرة ، قلتها لك اخيراً . وأنا لم أفكر ولا من أبعد
بعد ، فى أن أسئلك أو الى أى انسان آخر . وانك لتعرفنى
يا سيد ك منذ وقت طويل ، يكفى لتكون مقتنعا بهذا . وانت لاتعلم
مدى الألم الذى تألمته فى الأيام الأخيرة ! أنا اتقول على سكانى !
وانت ، تقول ان على أن اندرك بالاخلاء ! اندرك انت بالاخلاء !
واختنق هتافها الأخير بالدموع ، ورفعت مريثتها الى وجهها
وهى تولول .

وقال ك : لا تبكى يا سيدة جروباخ .

ونظر من النافذة الى الخارج ، ولم يكن يفكر الا فى الانسة
بورسترن وفى انها ادخلت فتاة اجنبية الى حجرتها . وعاد ك
يقول عندما دار الى الحجرة ورأى السيدة جروباخ مستمرة فى
البكاء : لا تبكى . كذلك انا لم اقصد فى ذلك الوقت الى العنف .
اذن فكلانا فهم صاحبه على نحو خطأ . وهذا شيء يمكن ان يحدث
بين الاصدقاء القدامى مرة .

وانزلت السيدة جروباخ الميلة تحت عينيها قلبلا لترى هل
ضفاك لها فعلا . وقال ك : نعم ، هذا ما يحدث !

وتجرا الآن . استنتاجا من هيئة السيدة جروباخ الدالة على
ان الضابط لم يكشف لها شيئا ، على ان يضيف : اتعتقدين فعلا
اننى قد اعاديك بسبب بنت غريبة ؟ .

وقالت السيدة جروباخ : هذا هو لب الموضوع يا سيد ك .

لقد كانت تلك مصيبة السيدة جروباخ . كانت اذا احست
بنفسها على نحو ما اكثر حرية وانطلاقا، تقول على الفور شيئا يفترق
الى الفطنة . وأردفت : كنت دائما أسأل نفسى : لماذا يهتم السيد
ك بالانسة بورسترن الى هذه الدرجة ؟ لماذا يتشاجر بسببها
معى ، على الرغم من أنه يعلم ان كل كلمة غضب منه تنفى النوم
كل النوم عن عيني ؟ وانا لم اقل على الانسة الا ما رأيته بعيني
راسى .

ولم يقل ك شيئا عن هذا ، كان الاخرى به ان يطردها من
الحجرة عند اول كلمة ، ولكن هذا هو الشيء الذى لم يكن يريد
واكتفى بان شرب القهوة وجعل السيدة جروباخ تحسن بانها
كالزيادة غير المرغوب فيها . وتناهى الى الاسماع من الخارج مرة
اخرى صوت خطى الانسة مونتاج وهى تجر قدميها عبر الحجرة

الامامية من اولها الى آخرها . وسأل ك وهو يشير الى الباب :
اتسمعيها ؟ .

وقالت السيدة جروباخ وهي تتنهد : نعم . لقد أردت أن
اساعدها ، وأن أكلف الخادمة بمساعدتها ، ولكنها عنيده وتريد
أن تنتقل بنفسها . وأنا مندهشة للآنسة بورسترن . اننى كثيرا
ما استثقل وجود الآنسة مونتاج عندى مستأجرة ، وهي تضمها
اليها الى حد اقتسامها معها حجرتها !

وقال ك وهو يفتت بقايا السكر فى الفنجـان : ما ينبغي أن
يقلقك هذا . هل تلحق بك نتيجة لهذا خسارة ؟

وقالت السيدة جروباخ : لا ، بل أن الأمر فى حد ذاته حبيب
الى نفسى تماما ، لأننى بهذا أنال حجرة خالية أسكن فيها ابن
أختى الضابط . ولقد ظلت مدة طويلة أخشى أن يكون قد
أفلقك خلال الأيام التى اضطرت فيها الى اعطائه حجرة المقيمة
المجاورة لينام فيها . فهو لا يولى الآخرين الكثير من الاكتراث .
وقال ك وقد نهض واقفا :

— ما هذه المخاطر المعجبية ! هذا امر لا أتكلم فيه مطلقا .
ويبدو أنك تخاليننى مغرط الحساسية ، لأننى لا أحتمل تجولات
الآنسة مونتاج — ها هى ذى الآن تعود .

وتصورت السيدة جروباخ نفسها عاجزة وقالت :

— هل ينبغي على ، يا سيد ك ، أن أقول لها أن تؤجل نقل ما
بقى من متاعها الى يوم آخر ؟ أن أردت هذا ، فعليه على الفور .
وقال ك :

— ولكنها ستنتقل الى حجرة الآنسة بورسترن . وقالت السيدة
جروباخ :

- نعم .

ولم تفهم تماما ما قاله لك . . وعاد لك يقول :

- اذن فلا بد ان تنقل حاجياتها الى الحجرة .

واكتفت السيدة جروباخ بان اومأت برأسها . واثارت حيرتها الصامتة، التي لم تبد في ظاهرها مختلفة عن العناد، اثارته ك اشارة اشد وطأة . وراح يقطع الحجرة من الشباك الى الباب جيئة وذهابا وحال بذلك بين السيدة جروباخ وبين امكانية الابتعاد ، ولعلها - لو لم يفعل - كانت قد ابتعدت .

وكان لك قد بلغ الباب مرة عندما قرعه قارع . كانت الخادمة تحمل الى لك خبرا هو ان الانسة مونتاج تود ان تقول له كلمتين وانها لذلك ترجوه ان ياتي الى حجرة المائسة حيث تنتظره . وانصت لك باهتمام وتفكير الى الخادمة ، ثم التفت بنظرة توشك ان تكون ساخرة الى السيدة جروباخ وقد تملكها الرعب . ولاحظت هذه النظرة كأنها تقول ان لك تنبأ منذ وقت طويل بهذه الدعوة وانها تناسب اعظم التناسب مع التعذيب الذي تحتم عليه ان يعانيه صباح هذا الاحد من سكان السيدة جروباخ . ورد الخادمة باجابة هي انه سيأتي فورا ثم ذهب الى دولاب الملابس ليغير ثوبه، ولم يوجه اجابة الى السيدة جروباخ، التي كانت تشكو بصوت خفيض من الانساعة المقلقة، الا رجاء بان تحمل آنية الافطار الى بعيد . وقالت السيدة جروباخ: انك تكاد لا تكون قد مسست من الافطار شيئا .

وصاح لك : خذها من هنا .

واحسن كأن كل شيء قد امتزج على نحو ما بالانسة مونتاج واصبح لهذا السبب مقبلا .

فلما سار خلال الحجرة الامامية تطلع الى باب حجرة الانسة بورستش المقل . ولكنه لم يكن مدعوا الى هذه الحجرة ، بل الى حجرة المائدة ، التي فتحت بابها عنوة دون ان يعرف .

كانت تلك الحجرة حجرة طويلة جدا ، ولكنها كانت ضيقة ، وكان لها شباك واحد . ولم يكن بهامش المكان الا ما كفى لوضع دولابين على جانبي الباب في الركنين بميل ، بينما ابتلعت مائدة الطعام الطويلة بقية المكان كله ابتلاعا فكانت تبدأ من قرب الباب وتصل الى الشباك الكبير فتلمسه تقريبا وتجعل من العسر على الناس بلوغه . وكانت المائدة معدة بصحون وفضيات لأربعة أشخاص لان غالبية السكان كانوا يأكلون فيها يوم الأحد .

وعندما دخل ك اقبلت الأنسة مونتاج من ناحية النافذة اليه تسير بطول المائدة . وتبادلا تحية صامتة ، ثم قالت الأنسة مونتاج وقد أقامت رأسها أكثر مما اعتادت : لا أعرف هل تعرفني .

وتطلع ك اليها محذقا وقال : بكل تأكيد ، انك تسكنين منذ مدة طويلة عند السيدة جروباخ .

وقالت الأنسة مونتاج : ولكنك ، على ما اعتقد ، لا تشغل بالك كثيرا بالنسيون .

وقال ك : لا .

وقالت الأنسة مونتاج : الا تريد أن تجلس ؟

وسحب الاثنان في صمت كرسيين وثيرين على طرفي المائدة البعידين ، وجلسا أحدهما في مقابلة الآخر . ولكن الأنسة نهضت في الحال مرة أخرى لأنها كانت قد نسيت حقيبة يدها الصغيرة على قاعدة الشباك وذهبت لاحضارها . وهكذا جرت قدميها من أول الحجرة الى آخرها . فلما عادت بالحقيبة تهزها هذا رفيقا ، قالت : أريد أن اتكلم كلمتين بتكليف من صديقتي . ولقد كانت تريد أن تأتي بنفسها ، ولكنها أحست اليوم بوعكة بسيطة ، وترجوك أن تقبل قدرها وأن تسمعني بدلا منها ، وقد كلفتني بأن

اقول لك انها ما كانت ستتحدث اليك باكثر مما سأحدث به اليك
وانا على العكس ، اعتقد اننى أستطيع ان اقول لك اكثر منها ،
لانى الى حد ما لست طرفا فى الموضوع . . الا ترى هذا الراى
انت ايضا ؟ .

واجاب ك : وما الخبر ؟ .

وقد تعب من ان عيني الانسة مونتاج كانتا موجهتين باستمرار
الى شفتيه . لقد كانت بهذا تفترض سيطرة على ما سوف يقوله .
وقال : يبدو ان الانسة بورسترن ترفض المقابلة الشخصية التى
رجوتها أن تمنحني اياها .

وقالت الانسة مونتاج : هذا صحيح ، او على الاخرى ، ليس
صحيحا ، فقد استعملت عبارة شديدة الحدة . والمألوف هو ان
مقابلات التصافى لا تجرى بموافقة ، ولا يحدث فى امرها عكس
هذا . ولكن الذى يمكن ان يحدث هو ان يعتبر المرء مقابلات
التصافى غير ضرورية ، وهذه هى الحال هنا . . والآن ، بعد
ان سمعت ملاحظتك ، يمكننى ان أتكلم معك بصراحة . لقد
رجوت صديقتى ، تحريريا او شفويا بأن تسمح لك بلقاء . .
وصديقتى - وهذا شيء اقل ما أقوله عنه اننى استنتجت -
تعلم الموضوع الذى طلبت له هذا اللقاء ، ولهذا فهى ، لأسباب
لا أعلمها ، مقتنعة بأنه لن يكون من المفيد لأحيد ، ان يتم
هذا اللقاء فعلا . . . وهى قد حكى لى بالأمس فقط ، وبطريقة
عابرة جدا عن هذا الموضوع ، وقالت لى ، انك انت ايضا لا يمكن
ان تكون مهتما على اية حال اهتماما كبيرا بهذا اللقاء ، لأنها تعتقد
انك لاشك قد فكرت هذه الفكرة بطريق المصادفة المحضة ، وانك
ستتجنب بدون حاجة الى تفسير او توضيح خاص ، ان لم يكن الآن
فعما قريب ، ان الموضوع كله لا معنى له فى مجموعه . وقد اجبت
انا عليها قائلة ان هذا الكلام قد يكون صحيحا ، ولكننى أرى

ان من المفيد ان تبلفك برد صريح يوضح الامر اكمل وضوح .
وعرضت عليها أن أقوم أنا بهذه المهمة ، وقبلت بعد شيء من
التردد . وكل ما أرجوه ان اكون قد تصرفت بما يتفق مع وجهة
نظرك . فانا اعلم ان ادنى ريبة في اتفه امر من شأنها ان تورق
الانسان على الدوام ، فاذا ما تمكن الانسان ، كما في هذه الحالة
من القضاء عليها بسهولة ، فالأفضل ان يفعل في الحال .
وقال لك من فوره : اشكرك .

ونهض مبظنا وتطلع الى الانسة مونتاج ثم عبر ببصره فوق
المائدة ونفذ به الى خارج الشباك - وكان البيت المقابل غارقا
في ضوء الشمس - ثم ذهب الى الباب . . وتبعته الانسة مونتاج
بضعة خطوات وكأنها لا تثق فيه تماما . فلما كانا امام الباب
اضطرا كلاهما الى أن يتراجعا ، لأنه انفتح ، ودخل منه الضابط
لاتنس . كان لاتنس رجلا طويل القامة في نحو الأربعين من عمره
ذا وجه كثير اللحم تكسوه السمرة . . وانحنى انحناء خفيفة ،
للانسة ولك ايضا ، ثم اتجه الى الانسة مونتاج وقبل يدها تعبيراً
عن الاحترام . كان هذا الرجل بارعا في اصطناع مثل هذه
الحركات . وقد برز تادبه مع الانسة مونتاج واضحا جليا بمقارنته
بالمعاملة التي لقيتها من ك . ومع ذلك فلم يظهر على الانسة مونتاج
انها غضبت من ك ، لانها ارادت ، كما خيل الى ك فلم يكن في
حالة تسمح له بأن يكون على درجة ما من اللطف مع الضابط أو
مع الانسة مونتاج . وقد أدت القبلية التي تلقنها الانسة مونتاج
من الضابط لاتنس الى تكوين حزب منهما ، يريد تحت ستار
البراءة المفرطة والإيثار الشديد أن يحول بين ك وبين الانسة
بورستتر . واعتقد ك أنه لم يتبين هذا فحسب ، بل أنه تبين
أيضا أن الانسة مونتاج اختارت وسيلة جيدة لتحقيق غايتها وان
كانت وسيلة ذات حدين . . فقد بالفت في معنى وأهمية العلاقة

بين الأنسة بورستنز و ك ، وهولت قبل كل شيء آخر في أهمية اللقاء الذي التمسبه ، وحاولت في الوقت نفسه أن تغلب الموضوع فنصورت ك كأنه هو الذي يبالي في كل شيء . لقد أخطأت الأنسة مونتاج ، فما أراد ك أن يبالي في شيء ، لأنه كان يعلم أن الأنسة بورستنز بنت صغيرة تكتب على الآلة الكاتبة وأنها لا تستطيع أن تقاومه مقاومة طويلة ، وتعتمد في هذا إلا بفعل حسابا لما سمعته من السيدة جروبباخ عن الأنسة بورستنز . كل هذا قلبه ك في فكره وهو يخرج من الحجرة وهو لا يكاد يحس أحدا . وأراد أن يدخل حجرته على التو ، ولكن ضحكة صغيرة من الأنسة مونتاج سمعها من ورائه ، أوحى اليه بفكرة هي أنه ربما استطاع أن يفاجيء الاثنين ، الضابط والأنسة مونتاج من حيث لا ينتظران . فالتفت حواليه وأنصت ليتبين هل يمكن أن يصدر عن حجرة من الحجرات المحيطة شيء قد يعرقله أو يعطله . كان السكون يعم المكان كله ، ولم يكن يصل الى السمع إلا حديث حجرة المسائدة وصوت السيدة جروبباخ المنبعث من الممر الموصل الى المطبخ . كانت الفرصة تلوح سائحة ، فذهب ك الى باب حجرة الأنسة بورستنز وقرع برفق . فلما لم يتحرك ساكن عاد يدق ، فلم تات اجابة . هل كانت نائمة ؟ أم هل كانت فعلا متوعدة ؟ أم هل كانت تنكر نفسها لسبب واحد هو أنها كانت تتوقع أن يكون ك ولا احد غيره هو الذي يقرع الباب برفق على هذا النحو ؟ وأخذ ك بأنها انما تنكر نفسها ، فاشتد في الدق على الباب ، فلما لم يجد الدق، نفعا فتح الباب بحذر وبدون أن يتجرد من الشعور بأنه يفعل شيئا لا حق له فيه ، لا ترجى منه فائدة . لم يكن بالحجرة أحد . ولم تكن الحجرة تذكر الآن بالحجرة كما عرفها ك . كان بالحجرة عند الحائط سريران وضع احدهما تلو الآخر ، وثلاثة كراسي وثيرة قرب الباب عليها تلال من الملابس الخارجية والداخلية والبياضات ، ودواليب مفتوح . والظاهر أن الأنسة بورستنز كانت قد خرجت بينما كانت

الآنسة مونتاج تتكلم مع ك في حجرة المائدة . ولم يبتس ك بهذا
لأنه كاد الا يتوقع أن يلتقى بالآنسة بورسترن بسهولة ، وما حاول
هذه المحاولة الا على سبيل معاندة الآنسة مونتاج . . وما كان
اشد خجله عندما رأى ، وهو يقفل الباب الذي فتحه ، الآنسة
مونتاج والضابط بباب حجرة المائدة المفتوح يتحدثان . . ربما
كانا يقفان به ، منذ فتح ك الباب ، ولكنهما تحاشيا الظهور بأى
مظهر اقد يوحى بأنهما كانا يراقبانه ، بل تحدثا بصوت منخفض
وتابعا حركات ك بنظراتهما على النحو الذي يصطنعه الناس عندما
يجولون ببصرهم تائهين سارحين أثناء الحديث . ولكن هذه
النظرات ثقلت على ك فأسرع يسير ملتصقا بالحائط الى حجرته .

اقول لك انها ما كانت ستتحدث اليك بأكثر مما سأحدث به اليك
وأنا على العكس ، أعتقد اننى أستطيع ان اقول لك أكثر منها ،
لأننى الى حد ما لست طرفا فى الموضوع . . الا ترى هذا الراى
انت أيضا ؟ .

ـ وأجاب لك : وما الخبر ؟ .

وقد تعب من أن عيني الأنسة مونتاج كانتا موجهتين باستمرار
الى شفتيه . لقد كانت بهذا تفترض سيطرة على ما سوف يقوله .
وقال : يبدو أن الأنسة بورسترن ترفض المقابلة الشخصية التى
رجوتها أن تمنحنى اياها .

وقالت الأنسة مونتاج : هذا صحيح ، أو على الأحرى ، ليس
صحيحا ، فقد استعملت عبارة شديدة الحدة . والمألوف هو أن
مقابلات التصافى لا تجرى بموافقة ، ولا يحدث فى أمرها عكس
هذا . ولكن الذى يمكن أن يحدث هو أن يعتبر المرء مقابلات
التصافى غير ضرورية ، وهذه هى الحال هنا والآن ، بعد
أن سمعت ملاحظتك ، يمكننى أن أتكلم معك بصراحة . لقد
رجوت صديقتى ، تحريريا أو شفويا بأن تسمع لك بلىقاء . .
وصديقتى - وهذا شيء أقل ما أقوله عنه اننى أستنتجته -
تعلم الموضوع الذى طلبت له هذا اللقاء ، ولهذا فهى ، لأسباب
لا أعلمها ، مقتنعة بأنه لن يكون من المفيد لأحد ، أن يتم
هذا اللقاء فعلا وهى قد حكى لى بالأمس فقط ، وبطريقة
عابرة جدا عن هذا الموضوع ، وقالت لى ، أنك أنت أيضا لا يمكن
أن تكون مهتما على أية حال اهتماما كبيرا بهذا اللقاء ، لأنها تعتقد
أنك لاشك قد فكرت هذه الفكرة بطريق المصادفة المحضة ، وأنك
ستتبع بدون حاجة الى تفسير أو توضيح خاص ، أن لم يكن الآن
فعما قريب ، أن الموضوع كله لا معنى له فى مجموعه . وقد أجبث
أنا عليها قائلة ان هذا الكلام قد يكون صحيحا ، ولكننى أرى

الجلاد .

عندما مررت في أمسية من الأمسيات التالية بالمر الذي يفصل مكتبه بالبنك عن السلم الرئيسى - وكان في هذه المرة آخر العائدين إلى منازلهم تقريبا ، اذ لم يكن هناك سوى اثنين من الخدم في قسم الشحن كانا لا يزالان يعملان في مجال ضوئى صغير لصباح كهربائى - سمع وراء باب ، كان دائما يعتقد أن وراءه حجرة مهملات لم يحدث قط أن رآها ، آهات وأنات .. فوقف مندهشا وانصت مرة أخرى ، حتى يتبين ما اذا كان قد أخطأ السمع - وساد السكون هنيهة ، ثم عادت الأنات مرة أخرى .. وإراد بادى ذى بدء أن يستدعى واحدا من الخادمين ، إفر بما احتاج إلى شاهد ، ولكن فضولا هائلا عارما تملكه ، ففتح باب الحجرة من فوره عنوة ، فاذا بالحجرة كما تصور ، حجرة مهملات . كانت وراء عتبة الباب مطبوعات قديمة مهملة وزجاجات مداد فخارية فارغة مقلوبة .. أما الحجرة ذاتها فكان فيها رجال ثلاثة يقفون منحنيين في هذا المكان ذى السقف المنخفض .. وكانت هناك شمعة مثبتة على راق تلقى عليهم بعض الضوء . وسأل ك بصوت منخفض يتسم بالندفاع يصل إلى حد الاضطراب : ماذا تفعلون هنا ؟ .

كان الرجل الذى بدا مسيطرا على الآخرين ، والذى كان اول من لفت النظر اليه ، مندسا فى ثياب جلدية سوداء ، لا تغطى الرقبة الى جزء عميق من الصدر وتدع الذراعين عازيين . لم يجب هذا الرجل بشئ . أما الاثنان الآخرا ففقد صاحبا :

- يا سيد .. لقد حكم علينا بالجلد لانك شكوتنا الى قاضى التحقيق ..

هنا تبين له ان الاثنين هما الحارسان لفرانتس وفيليم ، وتبين ان الثالث يمسك بيده عصا ليجلدهما . وقال له وهو يحمق فيهما :

- ولكنى لم اتقدم بشكوى ، بل رويت ما حدث بمسكنى فحسب . وانتما لم تتصرفا على اية حال على نحو لا يشوبه عيب . وقال فيليم بينما راح فرانتس يحاول على ما يبدو ان يختبئ وراءه من الرجل الثالث :

- يا سيد ، لو انك علمت ضالة الأجر الذى نحصل عليه ، لغيرت حكمك علينا . أنا عندى أسرة أقوم عليها وفرانتس يريد أن يتزوج . وكل واحد منا يحاول أن يشرى بأية طريقة ، ولكننا لا نصل الى الشراء بالعمل ، حتى ولو كان هذا العمل أشد الأعمال

اجهادا ومشقة . ولقد أغرتنى ملابسك الداخلية الرقيقة .
والاستسلام لمثل هذا الاغراء شيء ممنوع على الحراس . . كان
كان مافعلناه مجانيا للحق ، ولكن التقاليد جرت على أن تؤول
الملابس الداخلية الى الحراس ، هكذا كانت التقاليد وهكذا
بقيت ، صدقنى . ثم أن هذا امر يديهى ليس من الصعب فهمه .
فما فائدة هذه الاشياء بالنسبة لشخص حل به النحس واعتقل ؟
أما اذا هو تكلم عن هذا الامر علنا وكشفه على الملأ ، فالنتيجة هى
عقاب الفاعلين .

— أنا لم اكن أعلم بما تقولانه ، وأنا لم اطلب معاقبتكمسا على
الاطلاق ، كان الشيء الذى اهتمت به وحرصت عليه هو المبدأ .
والتفت فيليم الى الحارس الآخر وقال : يافرانتس ، ألم اقل
لك ان السيد لم يطالب بمعاقبتنا ؟ وهانذا تسمع منه أنه لم يكن
يعلم مجرد العلم اننا سنعاقب حتما .

وقال الثالث لـ ك : لا تدع مثل هذا الكلام يؤثر عليك ،
فالعقاب عادل بقدر ما هو محتوم .
وقال فيليم : لا تسمع له .

وقطع كلامه ليرفع يده بسرعة الى فمه بعد أن تلقى ضربة من
الجلاد عليها . ثم استأنفه قائلا : إقنعن انما نعاقب لأنك شكوتنا .
ولو لم تفعل لما حدث لنا شيء ، حتى ولو علموا بما فعلناه . .
وهل يمكن أن يسمى هذا عدلا ؟ لقد اثبتنا كلاتا ، وبخاصة أنا ،
كفاءتنا الشديدة منذ وقت طويل كحارسين . . حتى انت لا بد أن
تعترف بأننا من وجهة نظر السلطات قد قمنا فى حالتك بمهمة
الحراسة جيدا — وكنا نأمل فى أن نتقدم ولعلنا كنا على وشك
الترقى الى جلادين مثل هذا الجلاد الذى كان من حسن حظنا أن
أخذنا لم يشكو منه ، فمثل هذه الشكوى نادرة جدا . لقد ضاع
الآن كل شيء يا سيد ! لقد انسد سبيل الترقى أمامنا ، وسيكون

علينا أن نضوم بأعمال أقل درجة بكثير من عمل الحراسة ، وعلاوة على ذلك تتلقى هذا الجلد الفظيع الاليم .

وسأل ك : هل يمكن أن تحدث العصا مثل هذه الآلام ؟ .

وفحص ك العصا ولوح الجلود بها أمامه . وقال فيلليم :

— علينا الآن أن نتعمى تماما .

فقال ك : آه ! هكذا .

وتطلع الى الجلود وفحصه ، فإذا هو رجل لفحته سبكرة كسرة البحارة ، وله وجه غض شرس . وسأله ك : هل هناك امكانية لتخليص الانين من الجلد ؟ .

وقال الجلود وهو يهز رأسه مبتسما : لا .

وامر الحارسين : اخلعا ملابسكما .

ثم قال ك : لا ينبغي أن تصدقهما في كل ما يقولان ، فقد اصابهما شيء من العته نتيجة لخوفهما من الجلد . فما قاله هذا — وأشار الى فيلليم — عن امكانية التقدم في الوظيفة كلام مضحك جدا . . انظر اليه كم هو مكتنز البدن ! . . ان الجلودات الأولى لتختفى تماما في شحمه ! اتعلم لماذا اكتنز جسمه الى هذه الدرجة ؟ لأنه اعتاد أن يأخذ من المعتقلين طعام افطارهم ويلتهمه هو التهاما . ألم يلتهم طعام افطارك أنت أيضا ؟ وأعود لما بدأت به . . ان رجلا له مثل هذا الكرشي لا يمكن أن يصبح بحيال من الأحوال جلادا . هذا محال .

وفال فيلليم وكان قد فرغ لتوه من حل حزام ينظرونه :

— بل هناك جلادون في مثل حالي ؟ .

فقال الجلود : لا .

وضربه بالعصا على رقبتة حتى اضطره الى ان ينكمش مدخلا
راسه بين كتفيهما استطاع، ثم قال له: ليس لك ان تنصت الى الكلام،
بل عليك ان تخلع ملابسك .

وقال ك : سأعطيك جائزة سخية اذا تركتهما وشأنهما .
وأخرج، بدون ان ينظر مرة أخرى الى الجلاد حافظة نقوده.. فمثل
هذه الصفقات يحسن عقدها وقد اسبل الطرفان عيونهم .
فقال الجلاد : يظهر أنك تريد ان تقدم في أنا أيضا شكوى ،
وتسبب لى أيضا فى الجلد ! لا ! لا !

وقال ك : بل كن عاقلا ، لو اننى كنت قد أردت ان ينال
الاثنان العقاب لما تقدمت الآن لأشترى خلاصهما منك بمالى .
كان فى امكاني ان أقفل الباب وأكف عن السمع والنظر وأذهب
الى البيت . ولكنى لا أفعل هذا ، بل يهمنى مخلصا ان أخلصهما
ولو انى كنت قد توقعت أنهما سيعاقبان أو على الأقل أنهما يمكن
ان يعاقبا ، لما ذكرت اسميهما بتانا . فانا لا اعتبرهما مذنبين ..
المذنب هو المنظمة ، المذنب هم كبار الموظفين .

وصاح الحارسان : هو هذا .

وتلقيا على الفور ضربة على ظهريهما العاريين .

وقال ك : لو كنت تنزل بهذه العصا على قاض كبير لنا
منعتك من الضرب .

وجذب اثناء كلامه عصا الجلاد الى اسفل وكان الجلاد قد
رفعها مرة أخرى وأضاف : بل لكنت اعطيتك مالا لا قوتك على
تأدية هذا العمل العظيم .

وقال الجلاد : هذا الذى تقوله كلام له نفمة الضدق ، ولكنى
لا أقبل ان يرشبنى احد .. لقد عينت لأجلد ، لهذا فانا أجلد .

وتقدم الحارس فرانتس ، الذى ربما كان يتوقع نهاية طيبة
لتدخل ك فالتزم التحفظ ، الى ناحية الباب ، ولم يكن عليه من
ثيابه سوى البنطلون ، وتعلق فى ذراع ك راكعا وهمس اليه :

— اذا لم تكن تستطيع ان تخلصنا جميعا ، فجرب على الأقل
ان تخلصنى أنا . . فيليب اكبر منى سنا ، وهو من كل ناحية اقل
حساسية منى ، وقد تلقى منذ عدة اعوام عقوبة جلد خفيفة ،
اما انا فلم ازل حتى الآن عقوبة تنتقص من الشرف ، ولم افعل
ما فعلته الا بتحريض فيليب ، الذى هو بمثابة معلمى فى الخير
والشر . وخطيبتى المسكينة تقف فى الشارع امام البنك تنتظر
ماينتهى اليه امرى ، وانا خجلان خجلا مشينا .

واستعان بثوب ك فى تجفيف وجهه الذى فاضت عليه
دموعه . وقال الجلال : لن انتظر !

وتناول العصا بكلتا يديه وهوى على فرانتس بينما تكور فيليب
فى ركن وراح ينظر سرا دون ان يجرؤ على لفنة راس . وهنسا
انطلقت صرخة من فم فرانتس متصلة متجانسة ، ولاحت كأنها
لم تصدر عن انسان بل عن آلة معتدبة ، ودوى بها الممر كله ،
ولا بد ان المبنى كله سمعها .

وصاح ك : لا تصرخ .

فلم يستطع ازاء الصرخة ان يتمالك نفسه ، وبينما اتجه
بصره الى الناحية التى سيأتى منها الخادمان ، اصطدم بفرانتس
صدمة خفيفة ولكن الصدمة كانت من القوة بحيث قلبته . كان
فرانتس قد فقد الشعور فراح يتلمس موضع الأرض تلمس العاجز .
ولكنه لم يفلت من الضربات ، فقد تبعته العصا الى الأرض ،
وبينما راح يتلوى تحتها ، راح طرفها يتأرجح بانتظام جيئة وذهابا .

وبدا احد الخادمين آتيا من بعيد ، وبدأ بعده بعدة خطوات الخادم الآخر . واقفل لك الباب بسرعة واتجه الى النافذة المطلة على الفناء وفتحها . كان الصراخ قد انتهى تماما . وأراد ان يحول بين الخادمين وبين القدوم فقال بصوت عال : انا هنا .

وعاد صوت يقول : مساء الخير يا حضرة الوكيل . هل حدث شيء ؟

وأجاب ك : لا . لا . لقد عوى كلب بالفناء .

ولما لم يتحرك الخادمان أضاف : يمكنكما الرجوع الى عملكما .

وانحنى من النافذة الى الخارج حتى لا يكون عليه ان يدخل في حديث مع الخادمين ، ولما عاد بعد هنية ينظر في المر ، تبين أنهما قد انصرفا . وبقي ك عند الشباك ، لم يجسروا على العودة الى حجرة المملات وكذلك لم يشا ان يعود الى البيت . كان الفناء الذي أطل عليه فناء صغيرا مربعا حواليه مسكاتب ، وكانت النوافذ الآن كلها مظلمة ، الا النوافذ العلوية فكانت تمكس ضوء القمر . وحاول ك بجهد جهيد ان ينفذ ببصره في ظلمة بركن الفناء قد اخلت فيها مجموعة من عربات اليد . كان ك يتألم لانه لم يوفق الى الحيلولة دون جلد الرجلين ، ولكن الذنب لم يكن ذنبه في فشل جهده ، فلو لم يكن أحدهما قد صرخ . . ولا بد ان الضرب بلا شك قد آلمه ايلاما شديدا ، ولكن على الانسان رغم كل شيء ان يتمالك نفسه في اللحظات الحاسمة - لو لم يكن قد صرخ ، لتمكن ك ، أو لكان من المحتمل جدا ان يتمكن ك ، من ايجاد وسيلة لاقناع الجلاد . واذا كانت طبقة الموظفين السفلى كلها من الرعاع ، فلماذا يكون الجلاد بالذات حالة استثنائية وهو الذي يقوم بأكثر الوظائف تجردا من الانسانية ؟ ولقد لاحظ جيدا

كيف لمعت عيناه عندما رأى الورقة المالية ، والظاهر انه اصطنع الجدل بالجلد ليزيد مبلغ الرشوة قليلا . وما كان له ليقصد في هذا السبيل ، فقد كان حريصا بالفعل على تخليص الحارسين ، ومادام قد بدا يكافح فساد هذه المحكمة فقد كان من الطبيعي ان يسلط هجومه على هذه الناحية كذلك . ولكن كل شيء انتهى بطبيعة الحال عندما بدا فرانتس يصرخ . فما كان يمكن ان يسمح له بان ياتى الخادمان وربما ياتى كذلك من يعلم ومن لايعلم من الناس ، فيفاجئونه وهو يتفاوض مع الجماعة بحجرة المهملات . وتلك تضحية ليس هناك انسان يمكن ان يطلب من له القيام بها . ولو ان له كان قد نوى على التضحية فعلا ، لكان الامر اكثر يسرا . اذن لخلع ملابسه ولقدّم نفسه للجلاد ليضربه بدلا من الحارسين . . على ان الجلاد لم يكن بلا شك سيقبل هذه النيابة لانه لم يكن سيفيد منها شيئا ، بل كان سيتجاوز فيها واجبه تجاوزا شديدا ، بل تجاوزا مضاعفا ، لان له ، طالما استمرت اجراءات مقاضاته ، كان حتما بالنسبة لموظفي المحكمة شخصا لا يصح التعدي عليه . الا انه لم يكن من المستبعد ان تطبق هنا اوامر خاصة . المهم ان له لم يستطع ان يفعل شيئا اكثر من ان يقفل الباب ، وان لم يكن هذا يعنى ان الخطر كل الخطر قد بعد عن له تماما نتيجة لها العمل . اما انه قد قد صدم فرانتس في النهاية صدمة قلبته فشيء يؤسف له وليس له من مبرر الا الانفعال الذي تملكه .

وسمع له وقع خطى الخادمين على بعد . فاقفل الشباك لكي لا يلفت نظريهما اليه واتجه ناحية السلم الرئيسى . ووقف عند باب حجرة المهملات قليلا وانصت . كان الهدوء يخيم على المكان تماما ، ربما كان الرجل قد جلد الحارسين حتى ماتا ، فقد كانا في قبضته لا يفلتان . ولقد مد له يده الى مقبض الباب ليفتحه ،

ثم ردها ثانية ، فما كان يستطيع الآن أن يعين أحدا ، وكان الخادمين يوشكان على الحضور ، فنوى أن يعود الى الحديث في الموضوع مرة أخرى وأن يعاقبهم العقاب الرادع ما استطاع الى ذلك سبيلا . وهبط له الدرج الخارجى الفسيح للبلك وتفحص أثناء ذلك المادة بدقة ، فلم يجد قريبا ولا بعيدا فتاة يمكن أن تكون منتظرة قدوم أحد . وهكذا تأكد له كذب فرائس عندما قال له ان عروسة تنتظره ، وان رأى فيها كذبه يصح التماس العفو والصفح عنها ، لأنها كانت تهدف الى إثارة مزيد من الشفقة .

وأتى اليوم التالى ولم يفارق الحارسان مخبئه . كان له تأنها أثناء العمل ، واضطر الى البقاء فى مكتبه فترة أطول من اليوم السابق لينجز العمل ، ولما عبر بحجرة المهملات وهو فى طريق عودته الى البيت ، فتحها وكان تلك عادته ، وبدلا من أن يرى فيها ظلما دامسا ، رأى ما لم يستطع تمالك نفسه حياله ! كان كل شيء على حاله لم يتغير ، كان كما وجده فى المساء السابق عندما فتح الباب ، المطبوعات وزجاجات الحبر وراء العتبة مباشرة ، الخلال والعصا فى يده ، الحارسين وقد تجردا تماما من ثيابهما ، الشمعة فوق الرف ، وبدا الحارسان فى الشكوى فصاخا : يا سيد ! ..

فاغلق له الباب عنوة وضرب فوقه بقبضتيه وكان ذلك يزيد اقفاله احكاما .. وجرى وهو يكاد يبكى الى الخدم وكانوا يعملون هادئين على آلة النسخ فكفوا عن العمل مندهشين وصاح فيهم :

— لابد ان تنظفوا حجرة المهملات ، فقد طال تركها على هذه الحال القدره . اننا نفرق فى القدرة !

وكان الخدم على استعداد للقيام بهذا العمل في اليوم التالي
إذ لما ك براسه موافقا . ولم يكن ك يستطيع ان يضطرهم الى
القيام بهذا العمل في هذا الوقت المتأخر من المساء ، وان كان قد
قصد الى ذلك من مبدا الامر . وجلس هنيهة ، ليبقى الخدم على
مقربة منه قليلا ، وخلط بعض النسخ بعضها في بعض ، وهو
يعتقد انه بهذا يدفع الخدم الى تصور انه يفحصها ، ثم انصرف
لأنه فهم ان الخدم لم يتجزأوا على الانصراف معه في الوقت
نفسه ، وذهب الى البيت تعبانا مجردا من الأفكار .

• العم • لسيني

فى عصر يوم من الأيام - وكان ك مشغولا جدا قبل الانتهاء من انجاز البريد- اندس بين خادمين ، كانا يحتملان الى ك بعض الرسائل ، عمه كارل ، وهو من صفار الملاك ، ودخل المكتب عليه . وأخذ ك دعر اقل من الدعر الذى كان يأخذه منذ وقت طويل عندما يتصور مقدمه . كان قدوم العم فى هذه المرة شيئا مقررًا يعرفه ك يقينا منذ نحو شهر . ولقد تخيل ك عمه فى ذلك الوقت وهو يدخل عليه منحنيا قليلا ، حاملا القبعة الخوص المطبقة فى يسراه ، ماذا اليه يمناه من بعيد ، دافعا اياها بسرعة لاتعبأ بشيء فوق المكتب ، قالبا كل شيء يصادفه فى طريقه رأسا على عقب . كان العم دائما على عجل ، لأن ثمة فكرة تعسة كانت تطارده وتصور له أن عليه أن يتمكن من قضاء كل مطالبه فى أثناء اقامته بالعاصمة ليوم واحد وألا يدع الى ذلك أية مكالة أو صفقة أو متعة تعرض له مصادفة دون أن ينتهزها . وكان ك ملتزما حيالة عمه بالتزام من نوع خاص لأن هذا العم كان فيما مضى الوصى عليه فكان يحس أن عليه أن يساعده فى كل أمر ممكن وأن يستضيفه فى حجرته لقضاء ليلته . واعتاد ك أن يسميه « شبيح الريف » .

وما كاد العم يفرغ من التحية - ولم يكن لديه وقت ليجلس فى الكرسى الوثير الذى دعاه ك الى الجلوس اليه - حتى رجا ك أن ينفردا

ويتحدثنا معا حديثا قصيرا . وقال وهو يبلع ريقه بصعوبة : هذا شيء ضرورى ، ضرورى لتهدئتي !.

وصرف ك الخدم جميعا من الحجرة فى الحال وأمرهم بالآ يدعو كائنا من كان يدخل عليه . وصاح العم عندما أصبحا وحدهما وقد جلس فوق المنضدة ووضع تحته، ليحسن جلسته، أوراقا مختلفة لم ينظر اليها : ما هذا الذى سمعته ، يا يوزف !؟.

وصمت ك فقد كان يعلم ما سيأتى به العم ، ثم ارتاح فجأة من العمل المجهد ، ولكنه استسلم لبلادة لطيفة وتطلع من خلال النافذة الى جانب انشارع المقابل ، فلم ير منه من مجلسه الا قطعة صغيرة مثلثة الشكل عبارة عن حائط غير ذى نوافذ قائم بين شرفتين من شرفات المحلات . وصاح العم رافعا ذراعيه : أنت تنظر من الشباك؟ أجبنى يا يوزف ، بحق السماء ! هل صحيح ما سمعت ؟ هل يمكن أن يكون صحيحا ؟

وقال ك وقد انتزع نفسه من تشتت الفكر انتزاعا : يا عمى العزيز ، أنا لا أعرف ماذا تريد منى .

وقال العم محذرا : يا يوزف ! لقد كنت على قدمي أعرف عنك تقول الصدق دائما . فهل ينبغى أن أفهم كلماتك الأخيرة على أنها علامة على تغير سىء أصابك ؟

وقال لك طيعا : اننى أتوقع واخمن ماتريد منى ، فالظاهر أنك سمعت عن قضيتى .

وأجاب العم وهو يومئ برأسه بطيئا : هو هذا . لقد سمعت عن قضيتك .

وسأل ك : ومن سمعت ؟

فقال العم : لقد كتبت (ارنا) (١) الى بهذا الخير ، وهم لم تعد بالطبع على علاقة بك ، وأنت لا تهتم بها كثيرا للأسف ، ومع ذلك فقد علمت بالخبر . ولقد تلقيت الخطاب اليوم وأتيت الى هنا بطبيعة الحال على الفور . هكذا أتيت وليس لحضورى سبب غير هذا ، ولكنه يبدو سببا كافيا . ويمكننى أن أتلو عليك من الخطاب الجزء الذى يخصك . وأخرج الخطاب من حافظة نقوده وقال : هاهو ذا الخطاب، انها تقول فيه: «لم أر يوسف منذ مدة طويلة ، وقد ذهبت فى الاسبوع الماضى الى البنك ولكن يوسف كان مشغولا الى درجة أنهم لم يسمحوا لى بالدخول اليه ، وانتظرت ما يقرب من الساعة ثم اضطررت الى الذهاب الى البيت لأحضر حصة العزف على البيانو . ولكم كنت أود أن أتحدث اليه ! وربما أتاحت لى عما قريب فرصة لذلك . وفى يوم عيد ميلادى أرسل الى علبة شوكولاته كبيرة ، وهذا شئ لطيف جدا منه . ولقد نسيت أن أكتب لكم عن الشوكولاته فى الخطاب الماضى ، ولقد تذكرت الآن عندما سألتمنى عنها . وينبغى أن تعلموا أن الشوكولاته تختفى فى البنسيون بسرعة ، فما يكاد الانسان يشعر بأنه قد تلقى شوكولاته كهدية حتى تكون قد اختفت . أما يوسف ، فقد كنت أريد أن أقص عليكم شيئا من نبأه . وقد سبق أن ذكرت أنهم فى البنك لم يسمحوا لى بالدخول عليه ، لانه كان فى ذلك الوقت بالضبط يتفاوض مع بعض الناس . وبعد أن انتظرت

(١) بكسر الالف .

فترة من الزمن هادئة، سألت أحد الخدم هل ستطول المفاوضات، فقال
 ان هذا محتمل ، لأنها على ما يبدو تدور حول القضية القائمة ضد
 السيد الوكيل . فسألته عن القضية ما أمرها ، وعما اذا كان
 لا يخطيء، فقال انه لا يخطيء، وقال انها قضية، بل وقضية شديدة،
 ولكنه لا يعرف من أمرها أكثر من هذا . وقال انه شخصيا يود ان
 يساعد السيد الوكيل ، فهو رجل طيب وعادل ، ولكنه لا يعرف
 وسيلة الى ذلك ، وقال ان كل ما يتمناه هو ان يهتم جماعة من
 اصحاب النفوذ بالأمر ، وانه متأكد من أن هذا سيحدث ، ومن أن
 الموضوع سينتهي الى نهاية طيبة . ولكن الموضوع - استنتاجا من
 مزاج السيد الوكيل - لا يسير على ما ينبغي . وبطبيعة الحال لم
 اعلق أهمية كبيرة هل هذا الكلام، وحاولت ان اهدى الخادم الساذج،
 ومنعته من أن يتحدث أمام آخرين به ، وقلت له انني اعتبر الموضوع
 كله من ثروة الثرثارين . ومع ذلك ، فانه من الخير ، يا أبى
 العزيز، أن تهتم بالموضوع فى أثناء زيارتك القادمة ، وسيكون من
 السهل عليك أن تلم بمعلومات دقيقة وأن تتدخل فى الموضوع
 بمعونة معارفك الكثيرين ذوى النفوذ اذا احتاج الأمر . فاذا لم
 يحتج الأمر ، وهذا هو ما أراه أقرب الى الاحتمال ، فستكون زيارتك
 فرصة على الأقل تتمكن فيها ابنتك من معانقتك وما أسعدها
 بذلك» . وقال العم بعد أن فرغ من التلاوة وجفف الدموع من
 عينيه : انها بنت طيبة . وأوماً ك برأسه ، وكان ك قد نسي ارتنا
 تماما نتيجة للاضطرابات المختلفة التى توالى عليه فى الآونة
 الأخيرة ، بل أنه نسى حتى عيد ميلادها ، ويبدو أنها اخترعت حكاية
 الشوكولاته لحمايته من عمه وزوجة عمه . هذا تصرف مؤثر منها ،
 لن تجزيه تذاكر المسرح التى فكر فى أن يرسلها اليها من الآن
 فصاعدا ، ولكنه أحس أنه لا يصلح لزيارتها فى البنسيون وتجاذب
 أطراف الحديث معها، وهى تلميذة صغيرة السن فى الثامنة عشرة .

وسأل العم : وماذا تقول الآن ؟

ونسى كل الاضطراب والانفعال نتيجة للخطاب ، وبدأ كأنه يقرأ مرة ثانية .

وقال ك : نعم يا عمي . هذه هي الحقيقة .

وصاح العم : الحقيقة ؟ ما هذا الذي يعتبر حقيقة ؟ كيف يمكن أن يكون هذا حقيقة ؟ وما هي هذه القضية ؟ هل هي قضية من قضايا العقوبات ؟

وأجاب ك : قضية عقوبات !

وصاح العم وقد استمر صوته يعلو ويعلو : اتجلس هنا هادئاً ، وهناك قضية عقوبات تثقل كاهلك ؟

وقال ك وقد تملكه التعب : كلما زاد هدوئي ، كلما كان ذلك خيراً بالنسبة لنهايتها . لا تخش شيئاً !

وصاح العم : هذا ما لا يمكن أن يهدئني . يا يوسف ! يا عزيزي يوسف ! فكر في نفسك ، فكر في أقربائك ، فكر في اسمنا الطيب . لقد كنت حتى الآن شرفاً لنا ، وما يليق أن تصبح عاراً علينا . موقفك هذا - ونظر الى ك مميلاً رأسه - لا يعجبني ، ليس هكذا يتصرف المتهم البريء الذي ما زال متمالكا قواه . قص على الان بسرعة موضوع القضية حتى أستطيع أن أساعدك . لاشك أن موضوعها هو بطبيعة الحال البنك ؟

وقال ك وقد نهض واقفاً : لا ! ولكنك تتكلم بصوت مرتفع جداً يا عمي العزيز ، والظاهر أن الخادم يقف بالباب وينصت . وهذا شيء بسوء نية . ليس الأفضل أن نذهب . سمعاً أحب علم كل أسئلتك في الخارج على أحسن ما أستطيع . وأنا أعلم تماماً أنني مسئول أمام العائلة .

وصاح العم : هذا صحيح ! هذا صحيح جدا ! هيا يا يوسف ،
تعجل ، أسرع !

وقال ك : لابد أن أصدر أولا بعض التعليمات قبل أن تنصرف .
واستدعى ك نائبه تلفونيا ، فدخل بعض لحظات قليلة ، وأشار
اليه العم ، فى خضم انفعاله ، بيده بما يفيد أن ك هو الذى استدعاه ،
وهذا شيء ما كان يمكن أن يعلق به أدنى شك . ووقف خلف
مكتبه ، وشرح لنائبه الشاب ، بصوت خفيض مستعينا ببعض
الأوراق ، ما ينبغي أن يتم اليوم فى غيابه . وكان نائبه هذا ينصت
اليه ببرود ولكن بانتباه وقد أقلقهما العم أولا بوقوفه فاتحا عينيه
بجوارها ثم بعضه شففيه بطريقة عصبية بعد ذلك . لم يكن ينصت
الى كلامهما بطبيعة الحال ، ولكن منظره الموحى بذلك كان يقلقهما
بما فيه الكفاية . ثم مالبت بعد ذلك أن تحرك يقطع الحجرة جيئة
وذهابا ، وكان يقف تارة هنا وتارة هناك أمام نافذة أو صورة ،
ويطلق أثناء ذلك صيحات مختلفة مستمرة مثل : هذا شيء لا
أستطيع أن افهمه على الإطلاق ! أو والآن قولوا لى عن النتيجة التى
يصير اليها هذا الموضوع ! وتظاهر الشاب بأنه لا يلاحظ شيئا ،
وانصت الى أوامر ك الى النهاية ، ودون مذكرات عن بعض الأشياء
ثم انصرف بعد أن انحنى أمام ك وأمام العم السدى كان فى تلك
اللحظة مديرا اليه ظهره ، يطل من النافذة وقد مد يديه وكور
الستائر تكويرا . وما كاد الباب يفلق حتى صاح العم : لقد انصرف
هذا الخليع أخيرا ، ويمكننا أن ننصرف نحن كذلك ! أخيرا !

لم تكن هناك وسيلة لحمل العم على أن يكف عن توجيه أسئلة خاصة
بالقضية وهما يسيران فى القاعة الأمامية التى تجمع فيها نفر من
الموظفين والخدم والى اجتازها الآن نائب المدير . وبدأ العم كلامه
بينما راح يجيب على انحناءات المحيطين به بانحناء خفيفة : والآن
يا يوسف ، قل لى بصراحة ، ما هى هذه القضية ؟

وقال ك كلاما لا يحمل أى معنى ، بل وضحك قليلا ، حتى بلغا السلم فقال لعمه انه لم يحب أن يتكلم بصراحة أمام الناس .

فقال العم : أصبت ! والآن تكلم .

واخذ ينصت الى ك وهو يميل برأسه ، ويدخن سيجارا بنفثات قصيرة سريعة .

وقال ك : القضية ، يا عمى ، هي أولا وقبل كل شيء آخر قضية تختلف تماما عن القضايا التى تعرض أمام المحكمة العادية .

فقال العم : هذا شيء قبيح !

وقال ك وهو يتطلع الى العم : كيف ؟

واعاد العم كلامه : اما أن هذا شيء قبيح ، فهذا هو ما أراه . وكانا الآن يقفان على السلم الكبير المنحدر الى الشارع ، ولما لاح البواب وكأنه يرهف السمع ، جذب ك عمه الى الشارع ، وابتلعهما المرور الكثيف . ولم يعد العم ، الذى تعلق بك ، يسأل عن القضية بالحاج ، بل لقد سارا فى الطريق مسافة صامتين لا يقولان شيئا . وأخيرا سأل العم وقد وقف فجأة مما اضطر السائرين خلفهما الى الالتفاف مذعورين : ولكن كيف حدث هذا ؟ مثل هذه الأمور لا تانى فجأة ، انما تتطور تطورا طويلا قبل أن تحدث ، ولابد أنه كانت هناك دلائل على ذلك ، فلماذا لم تكتب لى ؟ انك تعلم اننى افعل من أجلك كل شيء فانا لا أزال على نحو ما الوصى عليك ولقد كنت الى يومنا هذا فخورا بوصايتى عليك . وانا بطبيعة الحال سأساعدك ، ولكن أمر مساعدتك قد أصبح الآن ، بعد أن بدأت القضية ، شيئا صعبا جدا . وأفضل شيء يمكن أن تفعله الآن هو أن تأخذ اجازة قصيرة وتأتى الى الريف عندنا . ولقد لاحظت الآن أنك نحفت وعجفت بعض الشيء ، والاقامة فى الريف كفيلة بأن تجعلك تسترد قواك ، وهذا

شيء له قيمته ، فهناك بلاشك جهود تنتظرك . كذلك سيؤدي ذهابك الى الريف الى انك ستكون على نحو ما بعيدا عن المحكمة . فالمحكمة لها هنا كل وسائل السلطة الممكنة وهي ستستعملها ضدك تلقائيا اذا دعت الى ذلك ضرورة . أما عندما تكون في الريف ، فسيكون على المحكمة أولا أن توفد اليك ممثليها أو أن تحاول التأثير عليك بطريق البريد والبرق والتليفون . وهذا من شأنه أن يضعف المفعول بطبيعة الحال ، وأن يدعك تلتقط أنفاسك وان لم يطلق سراحك .

وقال ك - وكان حديث العم قد جذبته قليلا الى طريق تفكيره : في استطاعه المحكمة أن تمنعني .

ورد العم مفكرا مهتما : لا اعتقد أنها ستفعل هذا . فان ما ستفقد من نفوذ بسبب رحيلك ليس من الضخامة بحيث يتعين عليها أن تمنعك .

فقال ك وقد أمسك بالعم من تحت ذراعه ليمنعه من الوقوف : لقد كنت أعتقد أنك ستجعل للموضوع كله من الأهمية أقل مما جعلت أنا له ، وهاتذا تهتم له أكثر مني .

وصاح العم : يوزف ! - وحاول أن يغلت منه لكي يستطيع الوقوف ولكن ك لم يتركه - يوزف ! لقد تغيرت ! لقد كنت دائما ذا قدره صائبة على الفهم ، فهل تخلت عنك الآن قدرتك هذه ؟ هل تريد أن تخسر القضية ؟ اتعرف ما يعنى هذا ؟ ان هذا يعنى انك ستمحى تماما ، وأن الأقارب جميعا سيجرون الى المصير نفسه أو على الأقل الى الذلة ، الى أسفل سافلين . يوزف ، استجمع قواك . ان بلادتك توشك أن تفتك بعقلي فتكا . وان الانسان عندما يتطلع اليك ، يوشك أن يصدق الحكمة القائلة : من عالج قضية له على هذا النحو ، فهذا معناه انه قد خسرها !

وقال ك : أى عمى العزيز ! لا فائدة من الانفعال ، والانفعال يشملك أنت الآن ، ولكنه قد يملكنى أنا كذلك . مثل هذه القضايا

لا يكسبها المرء بالانفعال ، ثقب في خبراتي مرة ، كما احترمت أنا خبرائك - مهما بدت لي غريبة - احتراما يخالجنى الآن كذلك. ولما كنت ترى أن القضية ستجر إلحائية أيضا الى انويل والشبور - وهذا شيء أنا شخصيا لا أفهمه على الإطلاق ، ولكن فهمي هذا موضوع ثانوي - فأنني أحب أن اتبعك في كل امر . الا ان اجازة الريف لا تبدول ، حسب تفكيرك ، أنت ، ذات فائدة ، لأنها ستحمل معنى الهرب والشعور بالاثم . هذا بالإضافة الى انني هنا ، وان صح انني أتعرض لملاحقة أكثر ، أستطيع أن أدفع بموضوعي الى الأمام أكثر مما لو كنت في مكان آخر .

وقال إليهم بلهجة توحى بأنهما تقاربا أخيرا : هذا صحيح . ولقد اقترحت عليك هذا الاقتراح ، لانني تصورت أن الموضوع ، اذا بقيت أنت هنا ، سيتعرض للضرر بسبب تهاونك فيه ولذلك استحسننت أن أقوم أنا بالعمل بذلك . أما اذا كنت تريد أن تقوم بالعمل بكل ما أوتيت من قوة ، فهذا بطبيعة الحال افضل بكثير . فقال لك : اذن فنحن متفقان في هذا الموضوع . فهل لديك الآن اقتراح فيما يجب أن عمله بادىء ذي بدء ؟

فقال لهم : لابد أن أفكر في الموضوع بطبيعة الحال ، وينبغي الا يغيب عن ذهنك أنني أقيم في الريف منذ عشرين عاما بلا انقطاع تقريبا ، وأن حاسة الاستشعار تضعف حدتها اذا لم تعمل في هذه الاتجاهات زمنا طويلا هكذا . ولقد ضعفت صلوات مختلفة هامة كانت تربطني بشخصيات قد تعرف في هذا الموضوع أكثر مما أعرف ، وتفككت من تلقاء ذاتها . فانا في الريف كالمهجور كما تعلم . والانسان لا يلاحظ هذا الا عندما تطرأ ظروف من هذا النوع ثم ان موضوعك أثناني على غير انتظار، وان كنت، وهذا شيء غريب، قد توقعت شيئا من القبيل بعد أن قرأت خطاب (ارنا) ، ثم عندما رايتك اليوم عرفته معرفة توشك أن تكون أكيدة . ولكن هذا مالا

أهمية له . الشيء الذي يتسم بالأهمية أعظم الأهمية الآن هو عدم
تضييع الوقت . وكان العم وهو ما يزال يتكلم قد هب على أطراف
أصابعه وأشار إلى سيارة وجذب ك خلفه إلى داخلها وألقى في الوقت
نفسه إلى سائق السيارة بعنوان . وقال : سنذهب الآن إلى المحامي
هولد ، وقد كان زميلا لي في المدرسة . ولاشك في أنك تعرف
الاسم أنت أيضا ؟ هذا شيء عجيب !! فهو رجل مشهور بمرافعاته
وبأنه محامي الفقراء . وأنا أثق فيه كإنسان ثقة كبيرة .

وقال ك :

— أنا أرحب بكل ما تقوم به .

قال هذا على الرغم من أن الطريقة المتعجلة المألحة التي راح
العم يعالج بها الموضوع ، كانت تسبب له الضيق . فلم يكن من
المفرح جدا أن يذهب وهو متهم إلى محامي الفقراء . وقال :

— لا أعرف إن الإنسان في مثل هذه الحالة يستطيع أن
يلتمس أحد المحامين .

فقال العم : بل هذا شيء طبيعي ، هذا شيء بديهي . ولم لا ؟
والآن قص على كل ما جرى حتى أكون على علم دقيق بالقضية .
وبدأ ك في الحال يسرد القصة ولا يخفي شيئا على الإطلاق ،
وكانت صراحته التامة هي الاحتجاج الوحيد الذي استطاع أن يسمح
لنفسه بتوجيهه إلى رأى العم التمثيل في أن القضية عار كبير .
وأشار ك إلى الأنسة بورسترن مرة واحدة فقط وعلى نحو عابر ،
ولكن هذا لم ينتقص من الصراحة التي أرادها ، فلم تكن للأنسة
بورسترن أية صلة بالقضية . وبينما استغرق في الرواية كان
يطل من النافذة ويلاحظ أنهم يقتربون من تلك الضاحية التي كان
بها ديوان المحكمة فلفت نظر العم إلى هذا ، فلم يجد العم صلة لذلك
بالموضوع تستحق الاهتمام . ووقفت السيارة أمام بيت أغبر . ودق

العم من فوره الجرس في الدور الأرضي على أول باب رآه هناك .
وكشر عن أسنانه الكبيرة مبتسما أثناء انتظارهما وهمس : الساعة
الآن الثامنة ، وهذا موعد غير مألوف لزيارة أصحاب القضايا . ولكن
هولد لن يستاء مني لذلك . وظهرت في طاقة الباب عينان كبيرتان
سوداوان تطلعتا هنيهة الى الضيفين ثم اختفتا . ولكن الباب لم
ينفتح . وأكد العم و ك بعضهما لبعض واقعة مشاهدتهما عينين .

وقال العم : انها خادمة جديدة تخشى الغرباء . ودق من جديد
وظهرت العينان مرة أخرى ، وكان من الممكن في هذه المرة أن يتبيننا
أنهما توشكان أن تكونا حزينتين ، وربما كان هذا تقدير خاطيء
بسبب شعلة الغاز المفتوحة التي كانت تحترق قريبا من رأسيهما
محدثا الكثير من الاصطكاك وباعثة القليل من الضوء . وصاح
العم وهو يضرب الباب بقبضته : افتحي ، نحن صديقا السيد
المحامي . وسماهما من خلفهما : السيد المحامي مريض . كان
هناك في نهاية الممر الصغير رجل يقف بباب ويرتدي معطف البيت
هو الذي نطق بهذا الجيز وبصوت منخفض مسرف في الانخفاض .

والتفت العم الذي كان الفيظ قد استبد به من جراء الانتظار
الطويل ، التفت حوله فجاء وصاح : مريض ؟ تقول انه مريض ؟ ،
واتجه الى الرجل يوشك أن يهدده وكأنما كان هو المرض بعينه .

وقال الرجل : «لقد فتح الباب» . وأشار الى حجرة المحامي ثم لم
اذيال معطفه وتواري . كان الباب قد فتح فعلا ، وظهرت بنت
صغيرة - وتعرف ك على العينين السوداوين الجاحظتين قليلا -
كانت ترتدي مريلة طويلة بيضاء ، وقفت في الحجرة الامامية وكانت
تحمل في يدها شمعة .

وقال لها العم بدلا من التحية : في المرة القادمة عليك أن تسرعي
بفتح الباب ، فانحنيت البنت بالتحية انحناءة صغيرة . ثم قال ك
الذي كان يدفع نفسه قليلا قليلا ناحية البنت : تعال يا يوسف !

وقالت البنت عندما رأت العم يسرع الى باب دون أن ينتظر .
السيد المحامي مريض ! وكان ك لا يزال يتطلع الى البنت باعجاب
بينما كانت هي قد لفت لتقفل باب حجرة المعيشة من جديد . كانت
البنت ذات وجه مستدير يشبه فى شكله وجه العرائس ، ولم تكن
الوجنتان هما وحدهما المدورتان ، بل كان الفودان وحواف الجبهة
أيضا كذلك .

وصاح العم من جديد : يا يوسف ! ثم سأل البنت : هل هو
مرض القلب ؟

فقالت البنت : أعتقد ذلك ، وكانت قد وجدت شيئا من الوقت
لتتقدمهما وتفتح باب الحجرة . وفى ركن من الحجرة لم يكن ضوء
الشمعة قد نفذ اليه بعد ، ارتفع فى سرير وجه له لحية طويلة .
وسأل المحامي وكان ضوء الشمعة قد بهره فلم يتبين الضيف :
يا ليني ، من الذى جاء ؟

وقال العم : أنا ألبرت ، صديقك القديم .

وقال المحامي : آه ألبرت ، ثم هوى من جديد فوق المخدات ،
وكأنما لم يكن بحاجة الى التصنع فى هذه الزيارة .

وسأل العم : هل حالتك فعلا سيئة الى هذا الحد ؟ وجلس على
حافة السرير ، وأردف : أنا لا أعتقد هذا ، فما بك أزمة من أزمات
مرض القلب وستمر عابرة كالسابقات .

وقال المحامي بصوت منخفض : جائز . ولكنها أحد من كل
الازمات التى طرأت على من قبل . نفسى ثقيل ، ونومى محال
وقوتى تهن يوما بعد يوم .

وقال العم : هكذا ! - وكبس قبعته اللينة على ركبته بيده
الضخمة - وأردف يقول : هذه أنباء سيئة ! ولكن قل لى ، هل
تلقى الرعاية الكافية ؟ فالجو هنا حزين جدا ، حالك جدا . ولقد

مروقت طويل منذ كنت هنا للمرة الأخيرة، وكان الجو هنا قد لاج آنذاك أكثر انشراحا . كذلك آنستك الصغيرة لا تبدو شديدة المرح، أولعها تتصنع . وكانت البنت لا تزال تقف بالشمعة قريبا عند الباب . وكانت على قدر ما بينت نظرتها غير المحددة ، تنظر الى ك أكثر مما كانت تنظر الى العم ، حتى عندما بدأ العم يتحدث عنها . وارتاح ك في كرسى وثير دفعه على مقربة من البنت .

وقال المحامي : عندما يكون الانسان مريضا الى درجة مرضى ، فلا بد له من الراحة . ولكنى لست حزينا . وصمت لحظة ثم عاد يقول : واينى ترعانى جيدا ، فهى طيبة مجدة .

ولكن هذا الكلام لم يتمكن من اقناع العم ، الذى بدأ عليه التحيز ضد الممرضة ، وهو ان لم يكن قد رد على المريض بشئ ، فقد لاحق الممرضة بنظرات قاسية ، عندما اتجهت الآن الى السرير ، ووضعت الشمعة على المنضدة الصغيرة ثم انحنت فوق المريض وهيمت اليه بشئ وهى تنظم الوسائد . وأوشك العم أن ينسى كل اعتبار للمريض ، فهب واقفا وسار وراء الممرضة هنا وهناك ، ولو أن العم أمسكها من اخلف بملابسها وجرها الى الخارج، لما اندهش ك لذلك . أما ك فقد راح يتطلع الى هذا المشهد كله هادئا ، بل وهو يرحب بمرض المحامى كل ترحيب . لم يكن ك قد استطاع أن يصمد للتحمس الذى اصطنعه عمه حيال قضيته ، ولهذا فقد تلقى بالترحاب النكسة التى أصابت هذا التحمس ، دون أن يضيف هو اليها أى شئ من ناحيته ، وقال العم ، ربما وهو يعمد الى اهانة الأنسة : يا آنسة . . دعينا هنية وحدنا ، فلدى مسألة شخصية. أريد أن اناقشها مع صديقى .

وزادت الممرضة من انحنائها على المريض وهى تبسط الملاء بيدها عند الحائط ولقت رأسها وقالت بهدوء شديد ، فكان

كلامها آية على الفرق الواضح بين هدوئها وبين غضب العم الذي كان يتعثر في الكلام تارة ثم ينطلق في أسراف تارة أخرى :
- انك ترى أن السيد مريض ، وأنه لا يستطيع أن يناقش مسائلك الشخصية .

والظاهر أنها كررت كلمات العم على سبيل التبسيط ولكن الإنسان ، حتى إذا لم يكن على صلة بالموضوع ، يمكنه أن يحمل هذا التكرار محمل التهكم . وثار العم بطبيعة الحال وكأنه أصيب بوخزة أو ضربة : يا ملعونة !

انطلقت هذه الكلمة في شهقة الانفعال المنفجر على نحو غير مفهوم تماما ، وفزع لك ، على الرغم من أنه كان يتوقع شيئا من هذا القبيل ، وهرع الى عمه ، وهو ينوي نية مؤكدة أن يسد فمه بكلتا يديه . ولكن المريض نهض لحسن الحظ من وراء البنت - وكان العم عابس الوجه يبدو كأنه يتلع شيئا بشعا . . وقال هادئا : اننا لم نفقد العقل بعد بطبيعة الحال ، وإذا لم يكن ما أطلبه ممكنا ، ما كنت طلبته ، من فضلك انصرفي الآن !

وقفت المريضة قائمة عند الفراش ، ووجهها في وجه العم ، وراحت - وهكذا اعتقد لك - تداعب يديها يد المحامي . وقال المريض بلهجة لاشك تحمل الرجاء الملح : يمكنك أن تقول أمام ابني كل شيء .

فقال العم : ولكن المسألة لا تخصني أنا ، ليس السر سري أنا .

والتفت خلفه ، كأنه ينوي ألا يدخل في أية محادثات ، أو كأنه يمنح نفسه فترة تفكير صغيرة . وسأل المحامي بصوت محتضر وعاد يراقب حيث كان : مسألة من اذن ؟

فقال العم : ابن أخي ، ولقد أحضرته معي .

وقدمه قائلا : الوكيل يوزف له .

فقال المريض وقد ازداد حيوية ومد يده لمصافحة له :

— آه ، لا تؤاخذنى ، اننى لم الاحظ قط انك هنا . اذهبى

يا لبنى .

كانت عبارته الاخيرة موجهة الى المرضة ، التى لم تمتنع هذه المرة ، ومد المحامى اليها يده لمصافحتها وكأنه يودعها لوقت طويل . وقال للمم وقد اقترب منه ناسيا ما جرى : انك اذن لم تأت الى لتعودنى ، بل أتيت فى عمل .

وبدا الأمر كأنما كان تصور المحامى الزيارة على انها عيادة له هو الذى أصابه بالشلل ، لانه لاح الآن وافر القوة ، يستند على كوعه بلا انقطاع وهو مالا يقدر عليه الا ذو القوة واخذ يشد من حين لحين فى خصلة بوسط لحيته . وقال المم :

— انك تبدو أكثر صحة ، منذ ابتعدت هذه الشيطانة .

ووقف عن الكلام ليهمس : اراهن انها تتصنت علينا .

وهب المم قافزا الى الباب ، ونظر ، ولكنه لم يجد وراء الباب احدا ، فعاد ذون أن يصاب بالخيبة ، لأن عدم تصنتها لاح له ذنبا أعظم درجة . وبدا على أية حال مغضبا . وقال المحامى :

— انك تخطئ الحكيم عليها .

ولم يدافع عنها بأكثر من هذه العبارة ، ولعله اراد بهذا أن يعبر عن أنها ليست بحاجة الى أن يدافع عنها أحد . ثم أردف يقول بلهجة أكثر عطفًا : أما فيما يختص بمسألة السيد ابن أخيك فأننى سأعتبر نفسى من السعداء إذا كفت قوتى لمعالجة هذه المهمة التى تتسم بصعوبة بالغة . والشئ الذى أخشاه ، هو أن قوتى قد لا تكفى ، ومع ذلك فلن أنصرف عن المحاولة . على

انه اذا حدث ولم اتمكن من الوفاء بها ، فمن الممكن الالتجاء الى شخص آخر . واريد ان اكون صريحا معك واقول ان القضية تهمنى جدا الى درجة اننى لا استطيع ان اقرر صرف النظر عن الاشتراك فيها . واذا لم يتحمل قلبى مشقتها فانه على الاقل سيجد فيها فرصة كريمة يتوقف فيها عن الحياة .

وظن ك انه لم يفهم كلمة واحدة من هذه الخطبة كلها ، وتطلع الى العم يلتمس تفسيرا ، ولكن العم كان جالسا حاملا الشمعة فى يده على المنضدة الصغيرة التى كانت احدى زجاجات الدواء قد وقعت من فوقها وتدرجت على السجادة ، يومئ براسه موافقا على كل شيء قاله المحامى ، وكان من حين لآخر ينظر الى ك ويدعوه الى اصطناع الموافقة نفسها . هل كان العم قد قص على المحامى من قبل شيئا عن القضية ؟ ولكن هذا محال ، فكل ما حدث من قبل ، ينقض هذا الاحتمال . ولهذا قال :

— لست افهم ! ..

وسأل المحامى مندهشا محتارا مثل ك : هه ، هل يحتمل ان اكون قد اسأت فهمك ؟ اولعلى اكون قد عجلت بالامر قبل ان اتلقاه . فيم تريد اذن محادثتى ؟ لقد كنت اعتقد ان الموضوع هو قضيتك .

وقال العم : طبعا .

ثم قال موجها الكلام الى ك : ماذا تريد ؟ .

فقال ك : نعم . ولكن من أين عرفت شيئا عنى وعن قضيتى ؟

فرد المحامى مبتسما : آه . أنا محام ، وأنا اختلف الى الدوائر القضائية ، واسمع الناس هناك يتحدثون عن قضايا

مختلفة ، واحفظ في ذاكرتي منها القضايا الملفتة للنظر ، خاصة
إذا كانت تخص ابن أخ صديق . ليس في هذا ما يدعسو
للاستغراب .

وعاد العم يسأل ك : ماذا تريد اذن ؟ انك قلق .

وسأل ك : انت تختلف الى دوائر تلك المحكمة ؟

فقال المحامي : نعم .

وقال العم : انت تسأل كالأطفال

وأضاف المحامي : وإلى من اختلف اذن اذا لم اختلف الى
اناس من العاملين في اختصاصي ؟

وكان للجملة نبرة توحى بانها لا تقبل النقض .. فسكت ك
ولم يرد بتاتا . كان يريد أن يقول له : انت تعمل في المحكمة التي
يسراى العدالة ، لا في المحكمة التي فوق السطح .

ولكنه لم يستطع أن يكره نفسه على النطق بذلك فعلا ..
واستمر المحامي في الكلام بلهجة تعني انه يشرح شيئا بديهيا
بكلام اضافي ولا داعي له : ولا تنس اننى بمخالطة هذه الدوائر
أحقق فوائد كبيرة لزبائني ، في اتجاهات كثيرة ، لا يصح أن يكثر
الانسان الكلام فيها ، وأنا بطبيعة الحال نتيجة لمرضى الآن معوق
بعض الشيء ، ولكنى مع ذلك ألتقى زيارات خيرة أصدقائى فى
المحكمة وأعرف منهم بعض الاخبار . بل اننى أعزف اخبارا أكثر
من آخرين من ذوى الصحة الممتازة ممن يقضون يومهم فى
المحكمة كله . وأنا على سبيل المثال ألتقى الآن زيارة لطيفة .
وأشار الى ركن من أركان الحجرة مظلم . وسأل ك بلهجة توشك
أن تكون غليظة من هول المفاجأة : أين ؟ . وراح ك ينظر

حواليه محتارا ، فلم يكن ضوء الشمعة الصغيرة يصل الى الحائط المقابل أو يقترب منه . واذا بشيء يبدأ هناك في الحركة . ورفع العم الشمعة عاليا فظهر رجل متقدم في السن يجلس في ذلك الركن . لا بد انه لم يكن يتنفس مطلقا ، فلم يلحظ وجوده احد طوال هذه المدة الطويلة . وهم الرجل بالوقوف متثاقلا ، ويبدو انه كان غير راض على أن المحامي قد لفت الأنظار اليه . وبدأ عليه كأنه يريد أن يصد بيديه ، التي كان يحركها كالجناحين القصيرين ، كل المقدمات والتحيات ، وكأنه لا يريد أن يقلق الحاضرين بوجوده يرجو ملحا العودة الى الظلام وإلى نسيان وجوده . ولكن هذا شيء لم يعد من الممكن اتاحته له . وقال المحامي على سبيل الشرح : لقد فاجأنا بحضوركما .

ولوح اثناء هذا الى السيد مشجعا اياه على التقدم ، فتقدم هذا ببطء وتردد وهو يدور ببصره في المكان ولكن بنوع ما من الوقار .

وعاد المحامي يقول :

— السيد مدير الديوان .. آه .. معذرة ، فأنال أقدمكم بعضكم لبعض .. هذا هو صديقي البرت ك ، وهذا هو ابن اخيه ، الوكيل يوزف ك ، وهذا هو السيد مدير ديوان المحكمة .

كنت أقول ان السيد مدير المحكمة تكرم بزيارتي . ولا يستطيع تقدير قيمة هذه الزيارة الا العليم بالامور ، الذي يعرف ضخامة عمل السيد مدير ديوان المحكمة . ولكنه رغم ذلك اتى الى ، وقد تحادثنا وديا ، على قدر ما سمح به ضعفي ، ونحن لم نمنع ليني من ادخال الضيوف علينا ، لأننا لم نكن نتوقع اقدوم ضيوف . لقد كنا نريد ان نبقى وحدنا وجاءت لكلمات قبضتك على الباب يا البرت ، فتأخر السيد مدير الديوان بكرسيه وبالمنضدة الى الركن ، وما دنا

الآن ، اعنى اذا كانت هناك رغبة فى ذلك ، نناقش مسألة عامة مشتركة فيحسن ان نجلس معا بعضنا قريبا من البعض . السيد مدير الديوان !

وقال المحامى العبارة الأخيرة بانحشاء من الرأس وابتسامة متواضعة وهو يشير الى كرسى وثير بجوار السرير .

وقال مدير الديوان بلهجة ودية : لن استطيع للاسف ان ابقى الا بضع دقائق .

ثم جلس على الكرسى الوثير ونظر الى ساعته ، وراح يقول : فالاعمال تناديني ، ولكنى مع ذلك لا أريد أن افوت فرصة التعرف على صديق لصديقى دون أن أنتهزها .

وانحنى براسه قليلا ناحية العم الذى بدا مسرورا بالمعرفة الجديدة ، والذي لم يكن بطبيعته يستطيع أن يعبر عن مشاعر الخضوع ، فأطلق مع كلمات مدير الديوان ضحكة حائرة ولكن عالية . منظر قبيح !

ويمكن لك من ملاحظة كل شيء بهدوء لأن احدا لم يكن يهتم به . لقد خرج مدير الديوان من مكمنه إفمك ناصية الحديث وكانت تلك ، على ما بدا لك عاداته . وراح المحامى ، الذى بدا ضعفه السابق كأنما كان ضعفا متعمدا ليطرد به الزوار الجدد ، يسمع باهتمام ، وأضعا كفه خلف أذنه . أما العم فكان حامل الشمعة - كان يضع الشمعة على فخذه قائمة ، وكان المحامى يكثر من النظر اليه قلقل كان قد تخلص مما ألم به من ارتباك وأصبح فى غاية البهجة ، سعيدا بطريقة رئيس الديوان فى الكلام ، سعيدا بحركات يده اللطيفة الموجهة التى كان يصاحب كلامه بها . وأما لك ، الذى كان مستندا الى عمود السرير ، فقد أهمل رئيس الديوان ربما أهمالا تاما متعمدا ،

وأصبح دوره مع الشيخ المسن دور المستمع . على أن ك لم يكن يعلم الا قليلا بالموضوع الذى دار حوله الحديث ، فما لبث أن فكرتارة فى المرضة . وفى المعاملة السيئة التى نالتها على يد العم ، وتارة فى مدير الديوان وهل سبق له أن رآه ذات مرة ، ربما فى الاجتماع عند جلسة التحقيق الأولى . وحتى اذا كان ك قد أخطأ فى التذكر ، فان مدير الديوان بشكله كان ينسجم مع شكل المشتركين فى الاجتماع ، الجالسين فى الصف الأول ، أولئك الرجال ذوي اللحي الهزيلة ، انسجاما ممتازا .

وأنت ضجة من الحجرة الامامية ، كأنها صوت تحطم آنية من الصينى ، جعلت الجميع يرهفون السمع .

ووقال ك : سأذهب لأرى ما حدث .

وخرج ببطء ، وكأنه يريد أن يعطى الآخرين إفرصة ليطلبوا اليه أن يعود .

وما كاد يدخل الحجرة الامامية ، ويسمى لتلمس الطريق وسط الظلام ، حتى جطت يد صغيرة على يده التى كان لا يزال يمسك بها الباب واقتلت الباب بهدوء .

كانت تلك هى المرضة . وهمست اليه : لم يحدث شيء ، لقد قدفت بصحن الى الحائط حتى أخرجك .

وقال ك مترددا مرتابا : لقد فكرت أنا كذلك فيك .

فقالت المرضة : عظيم جدا ! تعال !

وسارا بضعة خطوات بلقا بعدها بابا من زجاج معتم فتحتة المرضة أمام ك . وقالت : ادخل .

كانت تلك الحجرة مكتب المحامى . وعلى قدر ما بدا منها فى ضوء القمر ، الذى كان يضيء مربعا صغيرا على الأرض عند كل نافذة من نوافذها الكبيرة ، كانت الحجرة مؤثثة بأثاث قديم ثقيل .

وقالت الممرضة : هنا .

وأشارت الى صندوق مظلم يتخذ كاريكة له مسند خشبى مزخرف بزخارف محفورة فيه . وعاد ك يدور فى الحجرة بصره عندما جلس . كانت الحجرة حجرة عالية ، كبيرة ، ولابد أن زبائن المحامى كانوا يحسون فى هذا المكان بأنهم ضالين ضائعين . واعتقد ك أنه يرى الخطوات الصغيرة التى يخطوها الزبائن الذين يزورون المحامى متقدمين ناحية المكتب الهائل . ثم نسى هذا ولم يعد له سوى عينان يرى بهما الممرضة التى جلست بجواره تلتصق به وتكاد تضغطه الى مسند الأريكة الجانبى . وقالت : لقد ظننت أنك ستخرج الى من تلقاء ذاتك ، دون أن احتاج الى أن أناديك . شئ عجيب ! . فى أول الأمر عندما دخلت تطلعت الى ولم تبعد عنى بصرك ، ثم بعد ذلك تركننى انتظر . نادنى باسمى لىنى .

وجاءت الجملة الأخيرة سريعة مباشرة وكان الممرضة لم تكن تريد أن تضيع لحظة دون أن تستغلها لقى هذه المحادثة .

وقال ك : على الرحب والسعة . أما الغرابية ، يا لىنى ، فأمرها سهل الشرح . فقد كان على أولا أن أنصب الى ثرثرة الشيخ المسن ولم أستطع أن أنصرف بدون سبب ، ثم اتنى ، ثانيا ، لست جريئا ، بل خجولا ، هذا بالإضافة الى اتنى لم أر فيك ما يجعلنى أعتقد أنه من السهل نيلك بقفزة واحدة .

وقالت : ليس هذا صحيحا .

ووضعت ذراعها على المسند ونظرت الى ك ثم قالت :

— ولكنى لم أعجبك ، ويبدو اننى الآن ايضا لا أعجبك .
وقال ك وكأنه يتفادى شيئا : الاعجاب كلمه اقل بكثير !
فقالت مبتسمة : آه .

وأصابت لبنى نتيجة للملاحظة ك ولهذا الهتاف تفوقا عليه .
ولهذا صمت لحظة . وتعود ك على ظلام الحجرة ، فتمكن من
اكتشاف تفصيلات مختلفة فى الاثاث . ولفت نظره بصفة خاصة
صورة كبيرة كانت معلقة على يمين الباب فانحنى الى الامام ليراها
على نحو افضل . كانت الصورة تمثل رجلا فى ثوب القاضى ، يجلس فوق
كرسى عرش عال ، كان تذهيبه يبرز من الصورة فى اكثر من
موضع . اما الشيء الغريب فى الصورة ، فهو ان هذا القاضى لم
يكن جالسا فى سكون ووقار ، بل كان يضغط ذراعه الايسر
بقوة الى المسند الخلفى والمسند الجانبي ، تاركا ذراعه الايمن طليقا
تماما ، فلم يكن يمسك المسند الجانبي الاخر الا بالكف فقط ،
وكانه كان يريد فى اللحظة التالية ان يقفز بحركة عنيفة وربما ثائرة
ليقول شيئا حاسما او ربما لينطق بحكم . وكان من الممكن ان يتصور
الانسان ان المتهم يقبع عند قدميه عند السلم الذى ظهرت درجاته
العلوية فى الصورة مغطاة بسجادة صفراء .

وقال ك وهو يشير باصبع الى الصورة : ربما كان هذا هو
القاضى الذى يقاضينى .

وقالت لبنى وهى ترفع بصرها الى الصورة :

— انا اعرفه ، فهو كثيرا ما ياتى الى هنا . والصورة من ايام
صباه ، ولكنه لا يمكن ان يكون قد شابه الصورة فى اى وقت
من الاوقات ، لانه رجل قصير جدا يوشك ان يكون قزما . ومنع
ذلك فقد جعل المصور يمثله فى الصورة الى هذا الحد ، فهو

مغرور جدا غرورا جنوبيا ، مثله فى ذلك مثل الجميع هنا ،
وانا كذلك مغرورة ، ولست مسرورة على الاطلاق لاننى لم عجبك .

واجاب لك على ملاحظتها الأخيرة بأن عانقها وجذبها اليه
فأسندت رأسها هادئة فوق كتفيه . أما بقيصة كلامها فقد
ردك عليه بقوله : ما هى رتبته ؟

فقلت : انه قاضى تحقيق .

وأمسكت بيدك التى كان يطوقها بها وراحت تعبت بأنامله .

وقال لك خائبا : انه هو أيضا لا يزيد رتبة عن قاضى التحقيق .
كبار الموظفين مختلفون . ولكنه يجلس على كرسى عرش .

وقالت لىنى وهى تميل بوجهها فوق يدك : كل هذا تخريف .
وهو فى الحقيقة يجلس فوق كرسى مطبخ عليه برودة حضان قديمة
مطبوقة . ولكن هل ينبغى أن تفكر فى قضيتك بلا انقطاع ؟

كانت تلك جملة أضافتها الى ما سبق ببطء .

فقال لك : لا ، بتاتا ، بل انه يلوح اننى لا أفكر فيها الا اقل من
القليل .

فقلت لىنى : ليس هذا هو الخطأ الذى تتورط فيه . انما انت
لا تلين ، على قدر ما سمعت عنك .

وسأل لك : من هذا الذى قال عنى ذلك ؟

وأحس بجسمها على صدره ونظر الى شعرها الكثيف الأسمر
المضفور . وأجابت لىنى : اننى اذا أجبت على هذا السؤال ، اكون
قد كشفت عن الكثير المفرط من الأسرار . لا تسأل من فضلك عن
أسماء . والأفضل أن تتخلص من عيبك ، ولا تكن صارما لا تلين

لأنما يستطيع انسان أن يدافع عن نفسه أمام هذه المحكمة ، بل ينبغي أن يقدم الانسان اليها اعترافا . فاعترف في أول فرصة . عند ذلك تناح امكانية الافلات ، وعند ذلك فقط . على أن هذا الافلات لا يمكن دون معونة آخرين ، ولا ينبغي أن يخيفك أمر هذه المعونة ، إفسأقدمها أنا اليك .

وقال له : انك تفهمين الكثير من أمر هذه المحكمة ومن أمر الوان الفس اللزمنة لها .

ورفعها الى حجره لما رآها تضغط نفسها اليه ضغطا مفرطا . وقالت : هذا حسن !

واعتمدت في جلستها على حجره وسوت جونيلتها وأصلحت وضع بلوذتها . ثم تعلقت بكلتا يديها في رقبته مدة طويلة ، ثم مالت الى الخلف وتطلعت اليه طويلا .

وسال له على سبيل التجربة : واذا لم اعترف ، إفلا يمكنك أن تعاونينني ؟

وفكر وهو يوشك على الدهشة : اننى ألقى المعاونات ، الواحدة بعد الأخرى ، أولا الأنسة بورسترن ، ثم زوجة خادم المحكمة ، وأخيرا هذه الممرضة الصغيرة ، التى تبدو فى حاجة الى لا أعرف السبيل الى فهمها . انها لتجلس على حجرى وكأنه مكانها الصحيح الوحيد !

وأجابت لىنى : لا .

وهزت رأسها ببطء ثم أضافت : لن أستطيع عند ذلك مساعدتك . ولكنك لا تريد معاونتى ، وانت لا تهتم بها مطلقا ، فأنت عنيد لا تقتنع .

فقال ك : بلى ، فانا لا ارجع فى كلامى .

فقالت لبنى : لقد تكون عشيقتك ، ولكنك لن تحس بوحشة اليها اذا انت فقدتها ، او اخذت اخرى ، انا مثلا ، بدلا منها .

فقال ك مبتهما : بلا شك ، هذا غير مستبعد ، ولكنها ممتازة عليك بميزة كبيرة ، لهى لا تعرف شيئا عن قضيتى ، وحتى لو عرفت عنها شيئا ، فلن تفكر فيها . ولن تحاول ان تغربنى باللين .

لفقالت لبنى : هذه ليست ميزة . واذا لم يكن لديها ميزات اخرى ، فلن افقد الامل . هل بها اى عيب جسمانى ؟

فسأل ك : عيب جسمانى ؟

فقالت لبنى : نعم ، فانى بى مثلا هذا العيب ، انظر !

ويسطت الاصبع الوسطى والبصر ليدىها اليمنى وباعدت بينهما ، فاذا غشاء يربطهما الى العقلة العليا من الاصابع القصيرة . ولم يتبين ك فى الظلام على الفور ما ارادت ان تربه اياه ، لهذا اخذت يده الى الموضع ليتحسسه .

فقال ك : يا للعة الطبيعة !

ثم اُضاف بعد ان رأى اليد كلها : ما اجمل هذا المخاب !

ونظرت لبنى فى شئ من الفخر والزهو الى ك وهو يباعد مندهشا بين الاصبعين ويضمهما ، وينتهى فى النهاية بتقبيلهما عابرا وتركهما . فصاحت على الفور : آه ، لقد قبلتنى !

وتسلقت بسرعة على ركبها الى حجره وقد افتحت فخما . وتطلع ك اليها وهو يوشك ان يكون مذهولا ، فعندما اقتربت منه الى هذه الدرجة فاحت منها رائحة مريرة مشيرة كالفلفل ، وتناولت رأسه

وانحنى عليه وعضت وقبلت رقبتة ، وعضت حتى شعره . وكانت
من حين الآخر تصيح : لقد استبدلتنى ، لقد استبدلتنى الآن !

وزلت ركبته فأوشكت وهى تصيح صيحة صغيرة أن تقع على
السيجارة ، فضمها ك ، ليسندها إلا تقع ، فأنحدر إليها .

فقالت : أنت الآن لى .

وقالت : اليك هذا المفتاح ، مفتاح البيت ، تعال منى أردت .

كانت تلك كلماتها الأخيرة ، وأصابته قبلة منها غير محددة
الهدف ، أصابته على ظهره ، وهو لقى طريق الانصراف . فلما خرج
من باب البيت ، كانت الدنيا تمطر مطرا خفيفا . وأراد أن يذهب
الى منتصف الشارع ربما ليرى لى فى الشباك ، فإذا بالعم يرتدى
من سيارة كانت تنتظر أمام البيت ولم يلحظ ك وجودها لشروود
الفكره ، وأمسكه العم من ذراعيه وخبطه فى باب البيت وكأنه كان
يزيد أن يسمره فيه ، وصاح :

— يا ولد ! كيف أمكنك أن تفعل هذا ؟! لقد أفسدت قضيتك
افسادا فظيعا وكانت سائرة فى طريق طيبة . أتتوارى مع بنت صغيرة
قلدة ، ربما كانت على ما يبدو عشيقة المحامى وتظل ساعات طوال
بعيدا عنا ؟! وليتك التمسيت حجة ملفقة ، أو ترددت ، لا ! لقد
خرجت إليها بلا استخفاء ، وبقيت معها . وكنا فى هذه الأثناء
نجلس معا ، العم الذى يدلل الجهود من أجلك ، المحامى الذى
نريد كسبه لك ، وقبل هذا وذاك رئيس الديوان ، هذا الرجل
المظيم الذى له السيطرة التامة على قضيتك فى هذه المرحلة .
كنا نريد أن نتشاور فى كيفية مساعدتك ، وأنا أضطر الى معاملة
المحامى بخدر ، والمحامى يضطر الى معاملة مدير الديوان بخدر .
كان هناك من الأسباب ما يكفى ليكون عليك أن تساعدنى ! ولكنك

بدلاً من أن تفعل ذلك انصرفى الى بعيد . وما أصعب التستر على
فعلتك كفعلتك !

ولكن الرجلين كانا مهذبين محنكين ، فلم يتكلما بل ترفقا بى ،
ولكنهما فى النهاية لم يستطيعا السيطرة على أنفسهما الى الأبد .
ولما لم يستطيعا أن يتكلما فى الموضوع ، فقد لاذا بالصمت . وهكذا
جلسنا دقائق صامتتين نرهف السمع عليك أن تعود . ولكن بلا
جدوى . وأخيراً وقف مدير الديوان الذى كان لقد بقى مدة أطول
مما كان يريد ، وودعنى وبه أسى على واضح للعيان ، فلم يتمكن
من مساعدتى . ثم انتظر مدة بالباب فى لطف لا سبيل الى فهمه ،
وأخيراً انصرف . وكنت بطبيعة الحال سعيداً لانصرافه ، لأن نفسى
كان قد انقطع من فرط ما ألم بى . واثراً هذا كله على المحامى المريض
على نحو أكثر شدة ، فلم يستطع الرجل الطيب أن يتكلم اطلاقاً عندما ودعته
لأنصرف . والظاهر أنك أسهمت بنصيب لقى انهياره التام وأنت
بما فعلت إنما تعجل بموت رجل نحن فى حاجة ماسة اليه . أما
أنا ، عمك ، فقد تركتني هنا فى المطر - جنس الى أى جد تبللت
ملابسى - تركتني ساعات طوال أعذب نفسى بألوان القلق .

الفصل السابع

محام . رجل صناعة . مصور .

فى صباح يوم من أيام الشتاء - كان الثلج يتساقط فى الخارج فى ضوء عكر - كان ك يجلس فى مكتبه متعبا أشد التعب على الرغم من أن الساعة كانت مبكرة . وأعطى الخادم أمرا بالآ يدخل عليه احدا نظرا لاشتغاله بعمل كبير ، حتى يحمى نفسه على الأقل من صغار الموظفين . ولكنه بدلا من أن يعمل ، أخذ بدور بكرسيه الوثير ، ودفع ببطء بعض الأشياء الموضوعة فوق المنضدة ، ثم أسند ذراعه كله ممدودا على قرصة المنضدة دون علم منه ، وظل جالسا بلا حراك، وهو يميل برأسه الى أمام .

لم يعد التفكير فى القضية يتركه . وكثيرا ما فكر فيما اذا كان من الأفضل أن يؤلف مرافعة تحريرية ويقدمها للمحكمة . وكان يريد أن يضمنها وصفا موجزا لحياته ويشرح فيه عند كل واقعة تتسم بشئ من الأهمية الأسباب التى من أجلها تصرف هذا التصرف أو ذاك ، ويبين ما اذا كانت طريقة التصرف تلك مقبلة أو حميدة حسب تقديره الحالى مع ذكر الأسباب المؤيدة أو المعارضة . كانت ميزات مثل هذه المرافعة التحريرية بالقياس الى المرافعة العادية على يد محام - له بطبيعة الحال عيوبه - ميزات لاشك فيها .

ولم يكن ك يعلم شيئا عما فعله المحامى، ولكن ما فعله لم يكن على

اية حال كثيرا ، فلم يستدعه اليه منذ شهر بكماله وتمامه ، كذلك لم يحس ك فى الحادثات السابقة معه ان هذا الرجل يمكنه ان يفعل من اجله الكثير . فالحامى اولا وقبل كل شىء لم يستفهم منه تقريبا عن الموضوع . وكان الموضوع يحتمل الكثير من الاستفهام والسؤال . بل ان الاستفهام كان هو الأمر الاساسى فيه . وكان ك يحس كأنه يستطيع هو بنفسه ان يضع جميع الأسئلة التى يتطلبها هذا الموضوع . أما الحامى ، فبدلا من ان يسأله ، كان يحكى له أو يجلس أمامه صامتا ، وينحنى ، على ما يبدو بسبب سماعه الضعيف ، الى الامام فوق المكتب قليلا ، ويشد فى خصلة شعر من بين خصلات لحيته ، وينظر الى أسفل حيث السجادة ، ربما الى الموضع الذى رقد فيه ك ولبنى . وكان من حين لآخر يعطى ك تنبيهات فارغة من نوع التنبيهات التى قد تصلح للأطفال . وكانت تلك التنبيهات سخيفة مثلها مثل خطبه المطولة المملة ، وكان ك مصمما على الا يدافع ثمنا لها اطلاقا عندما يتحاسب مع الحامى فى النهاية .

وبعد ان ظن الحامى انه قد اذل ك بما فيه الكفاية ، بدأ يشجعه قليلا ، وكانت تلك عادته ، فحكى له عن قضايا كثيرة مشابهة كسبها كليا أو جزئيا . قضايا ان لم تكن فى الحقيقة فى

مثل صعوبة قضية ك ، فانها تبدو في ظاهرها مثلها ميئوسا منها . وكان لديه ، كما قال ، قائمة بهذه القضايا في الدرج - وعندما قال هذا خبط على درج من ادراج المكتب - ولكنه لا يستطيع أن يريه الأوراق فهي من أسرار المحكمة . ومع ذلك ، فان الخبرة الكبيرة التي نالها في هذه القضايا ، تفيدك بطبيعة الحال . وقال انه بدأ في الحال العمل في القضية ، وانه أوشك على الفراغ من المذكرة الأولى . وقال ان المذكرة الأولى بالغة الأهمية لان الأثر الأول الذي يحدث في المرافعة ، هو الذي يحدد في أكثر الأحوال اتجاه القضية كلها . ثم انه لفت نظرك الى انه يحدث للأسف أحيانا الا تقررا المذكرات الأولى على الإطلاق . وانها تضم بكل بساطة الى الملفات ويقال عند ذاك ان استجواب المتهم ومراقبته أكثر أهمية ، من كل المذكرات المكتوبة . وموظفوا الديوان يقولون ، اذا ألح السائل في السؤال ، انهم قبل اتخاذ حكم في القضية ، يفحصون كل الأوراق عندما تكتمل وتكون مترابطة بالطبع بعضها مع البعض ، ومن بينها اذن المذكرة الأولى . ولكن هذا الكلام للأسف ليس صحيحا في الغالب ، لان المذكرة الأولى تنوه عادة أو تضيع تماما ، وحتى اذا بقيت للنهائية ، فانها لا تكاد تجد من يقرأها ، على قدمها علم المحامي عن طريق إشاعات وصلته لا أكثر . كل هذا شيء يؤسف له . ولكنه لا يقتصر تماما الى السند ، فما ينبغي أن يفعل ك أن الاجراءات ليست علنية ، وان كان من الممكن أن تكون علنية ، اذا ما زات المحكمة ضرورة ذلك ، ولكن القانون لا يفرض العلنية . ويستتبع هذا أن جميع أوراق المحكمة ، وخاصة صحيفة الاتهام ، لا يسمح للمتهم ولا للدفاع بالاطلاع عليها ، ولهذا فالمحامي في المعتاد لا يعرف ، أو على الأقل لا يعرف على وجه الدقة ، ما ينبغي أن تنقضه المذكرة الأولى ، وينبئ على هذا انها لا يمكن أن تشمل على كل شيء يهم القضية الا بطريق المصادفة

البحثة . اما المذكرات الصالحة ذات الأدلة الفعلية فلا يمكن تصنيفها الا فيما بعد ، عندما تتضح نقاط الاتهام وأسبابها او عندما يمكن تخمينها في أثناء استجابات المتهم .

والمرافعة في هذه الظروف بطبيعة الحال عمل صعب عسير . ولكن هذا بدوره أمر مقصود . فالدفاع عن المتهمين ليس مسموحا به قانونا بمعنى الكلمة ، وموظفو المحكمة يحتملونه ، وان كان نص القانون الذي يؤخذ منه ان الدفاع عن المتهمين يصح احتماله ، نص عليه خلاف . فاذا أردنا الدقة الدقيقة ، قلنا انه ليس هناك محامون تعترف بهم المحكمة ، والمحامون الذين يترافعون امام هذه المحكمة هم جميعا في الحقيقة من حثالة المحامين أصحاب الحيل . وهذا شيء له أثر مهين جدا على طبقة المحامين كلها . وقال المحامي ، ان ك يستطيع ان يمر على حجرة المحامين ليري ذلك بعينه ، عندما يذهب عما قريب الى مكاتب الديوان ، ولعله عندما يرى الجماعة المجتمعة في تلك الحجرة ان يصاب بالفرع . فالحجرة الضيقة ذات السقف المنخفض التي خصصت لهم تبين مدى امتهان المحكمة لهؤلاء الناس فهي تستمد النور من نافذة صغيرة مرتفعة ارتفاعا شديدا حتى انه اذا اراد أحد المحامين ان يطل منها ، تحتم عليه أن يرجو أحد الزملاء أن يحمله فوق ظهره . . . هذا الى أن هناك مدخنة تجلب دخانا يركم الأنف ويسود الوجه . وبأرضية هذه الحجرة - وهذا مثل آخر أسوقه على هذه الأحوال خرق منذ أكثر من عام ، وهو ليس من الكبر بحيث يسقط منه الانسان ، ولكنه يكفي لكي تنفذ منه الساق . وحجرة المحامين في الدور الثاني ، فاذا نفذت الساق من هذا الخرق ، تدلت الى الدور الأول ، وعلى وجه التحديد ، الى الممر الذي ينتظر فيه أصحاب القضايا . وهكذا فان ما شاع في دوائر المحامين من وصف هذه الظروف بأنها مخزنة شيء لا مبالغة فيه . ولم تؤد

الشكاوى التى وجهها المحامون الى الادارة الى اقل نجاح ، بل لقد حظر على المحامين حظرا شديدا أن يغيروا شيئا فى الحجرة ولو كان ذلك على نفقتهم الخاصة . على أن معاملة المحامين على هذا النحو لها هى أيضا ما يبررها . فالمحكمة ترى على قدر الامكان الغاء الدفاع وترى أن يكون كل شيء مركزا على المتهم نفسه . وهذا رأى ليس رديئا فى أساسه ، على أنه ليس هناك شيء أكثر خطأ من أن يتصور الانسان استنتاجا من هذا أن المحامين فى هذه المحكمة لا ضرورة لهم بالنسبة للمتهمين . على العكس فليست هناك محكمة للمحامين فيها ضرورة أشد من هذه المحكمة . فالاجراءات القضائية هنا لا تكتفى على الجمهور فحسب ، بل على المتهم كذلك . ويتم هذا الكتمان بالطبع فى حدود الامكان ، وما اكبرها ! . المحكمة لا تسمح للمتهم بالاطلاع على أوراق القضية ، ومن الصعب جدا أن يستنتج الانسان من الاستجابات ما هى الأوراق التى اعتمدت عليها . والمتهم خاصة لا يستطيع هذا لأنه يكون مرتبكا محملا بالوان من القلق تجعله شارد الذهن . وهنا تبرز ضرورة الدفاع .

والمحامي لا يسمح له بصفة عامة أن يحضر الاستجابات ، ولهذا يتحتم عليه أن يسأل المتهم بعد الاستجواب ، عند باب حجرة التحقيق أن أمكن ، عما قاله ، ويستخلص من كلامه المضطرب اشد الاضطراب ما يفيد فى المرافعة . ولكن الشيء الذى يتسم بالأهمية البالغة ليس هذا ، فليس من الممكن أن يستخلص المحامي الكثير بهذه الوسيلة ، وان كان المحامي الماهر بطبيعة الحال يستطيع أن يستخلص أكثر من غيره . الشيء الذى يتسم بالأهمية البالغة هو العلاقات الشخصية للمحامي ، ففيها القيمة الأساسية للدفاع . ولقد تبين لك من خبراته الشخصية أن المستويات الدنيا للمحكمة لا تنصف بالكمال ، ففيها موظفون يهملون واجبههم ويرتشون ، وهذا من شأنه أن يحدث

في التكوين الدقيق للمحكمة ثغرات . ومن خلال هذه الثغرات ينفذ
 اكثر المحامين ، فتارة يرشون وتارة يتجسسون ، بل لقد
 حدثت ، على الأقل قديما ، حالات سرقة ملفات القضايا . وليس
 هناك سبيل لانكار ما تتيحه هذه الطريقة حاليا من الوصول الى
 نتائج مفيدة باهرة ، وهذا شيء يزهو به صفار المحامين ويجتذبون
 به زبائن جدد . ولكن هذا المسلك لا يعتبر شيئا او لا يعتبر شيئا
 طيبا بالنسبة لبقية ادوار القضية . الشيء الوحيد الذي له قيمة
 حقيقية هو العلاقات الشخصية الشريفة ، التي تربط المحامي
 خاصة بكبار الموظفين ، اعني بكبار موظفي الدرجات الدنيا في
 ديوان المحكمة . هذه العلاقات هي التي تؤثر على مجرى القضية ،
 ربما على نحو غير ملحوظ في بادئ الامر ، ولكنه يظهر بوضوح
 متزايد بعد ذلك . وهذا شيء لا يقدر عليه الا قلة المحامين بطبيعة
 الحال ، وهنا يتضح حسن اختيارك لمحاميه جليا . هناك غير
 الدكتور هولد واحد او اثنان غيره لهم مثل هذه العلاقات . هؤلاء
 لا يهتمون بالجماعة المضطربة في حجرة المحامين بل ولا شان لهم
 بها . انهم يهتمون باقامة علاقات اوثق بموظفي ديوان
 المحكمة . حتى انه لم يعد من الضروري أن يذهب الدكتور هولد
 الى المحكمة دائما وان ينتظر في الاروقة أن يظهر قضاة التحقيق
 مصادفة وان يحصل بحسب مزاجهم على نجاح ظاهري في الغالب
 او لا يحصل على نجاح اطلاقا . لا ، لقد رأى ك بعينيه ، أن
 الموظفين ، ومن بينهم كبار حقا ، يأتون اليهم بأنفسهم ، ويقدمون
 اليه راغبين ببيانات ومعلومات اما صريحة أو سهلة التأويل ،
 ويناقشون مجرى القضية ، بل ويقتنعون برأيه في بعض الحالات
 ويقبلون الرأي منه وهو الغريب عليهم . على أنه لا ينبغي أن يثق
 الانسان في هؤلاء الموظفين ثقة كبيرة فيما يختص بالنقطة الأخيرة ،
 فمهما عبروا عن نية جديدة أكيدة في صالح الدفاع ،
 فقد يذهبون بعد ذلك مباشرة الى الديوان ويصدرون

حكما ليعملن في اليوم التالي ، يكون العكس على خط مستقيم . أو ربما أشد قسوة على المتهم مما كانوا قد بيتوا النية عليه من قبل ، وأعلنوا أنهم قد صرفوا النظر عنه تماما . وهذا شيء لا يستطيع الدفاع أن يفنده أو يدراه ، فما قالوه له في السر ، هو سر بين اثنين ، ولا يمكن أن يكون له نتيجة علنية ، حتى إذا لم يكن الدفاع قد سعى للحصول على حظوة لدى السيد القاضي .

ومن ناحية أخرى فإنه من الصحيح أن السادة القضاة لا يتصلون بالدفاع ، وبطبيعة الحال بالمحامين ذوي الخبرة الفنية ، بدافع من المحبة الانسانية أو المشاعر الودية ، بل لأنهم على نحو ما معتمدون عليه . وهنا يتضح سوء نظام محكمة يقوم حتى في بدايته على أساوب المحكمة السرية . فالموظفون في ديوان المحكمة هذه يفتقرون الى الصلة بالأهالي . ولا يظهر أثر هذا في حالات القضايا العادية والمتوسطة التي يقضون فيها بسهولة ويسر ، حتى أن القضية من هذا النوع توشك أن تنزلق من تلقاء ذاتها في مسارها ولا تحتاج الا الى دفعة هنا وهناك . أما في حالات القضايا المفرطة في البساطة وكذلك القضايا المفرطة في الصعوبة فغالبا ما تستبد بهم الحيرة ، فهم لالتزامهم قيود القانون ليلا ونهارا ، يفتقرون الى الوعي الصحيح بالعلاقات الانسانية ، وما أشد حاجتهم الى هذا الوعي في مثل هذه الحالات ! عند ذاك باتون الى المحامي يلتمسون نصحه ، وخلفهم خادِم يحمل الملفات التي يكتنفها السر عادة . وكم تتابع على هذه النافذة رجال ما كان أحد يتوقع ذلك منهم الا أبعد التوقع . كانوا يتطلعون بأبصارهم حيرى الى الحارة ، بينما المحامي يجلس الى مكتبه يدرس الملفات ، ليقدم اليهم النصيحة الصحيحة . ويستطيع الانسان في مثل هذه المناسبات أن يرى كيف يحمل هؤلاء السادة مهنتهم محل الجهد الشديد وكيف أنهم عندما يلقون

عراقيل لا قدرة لهم على قهرها ينحدرون الى يأس شديد ، على ان مركزهم مركز ليس بالمركز السهل ، ولا ينبغي على الانسان ان يظلمهم ويعتبره سهلاً هيناً . فترتيب الرتب في المحكمة سام لا نهاية له ولا سبيل حتى للعلم به الى رؤية نهايته . والمحاكمات الدائرة امام المحاكم تظل سرا مغلقا حتى على صغار الموظفين عامة ، ولهذا فانهم لا يستطيعون مطلقا متابعة القضايا التي يشتغلون بها الى مراحلها التالية متابعة كاملة . القضية اذن تعرض لهم دون ان يعلموا من اين أتت ، ثم تسير سبيلها ، دون ان يعلموا الى اين تسير . ونتيجة ذلك انهم لا يصيبون المعرفة التي يفتربها الانسان من دراسة مراحل القضية والحكم النهائي والحيثيات . على هؤلاء الموظفين ان يشتغلوا بجزء معين من القضية حدده لكل منهم القانون ، ولا يعلمون في الغالب عما عداه ، أى عن نتائج عملهم ، الا ما يقل عما يعمله الدفاع لأنه يظل عادة متصلا بالمتهم حتى نهاية القضية . الدفاع اذن يحيط بما لا يحيطون به ويستطيع ان يمددهم بما يتسم بالقيمة والأهمية . فهل يدهش لك الآن وقد أخذ هذا كاله في اعتباره ، من سرعة غضب الموظفين ، وهو الشيء الذي يتخذ أحيانا حيال المتقاضين - وكل واحد مر بهذه الخبرة - صورة مهينة الى أقصى حد؟! كل الموظفين عصبيون حتى اذا ظهروا بظهور الهادئين . وصغار المحامين بطبيعة الحال يعانون من ذلك الكثير المفرط . وقد حكى بعضهم هذه القصة التي تلوح حقيقية الى درجة كبيرة جدا :

كان احد الموظفين ، وهو رجل متقدم في السن ، هادئ الطبع ، يشتغل بقضية صعبة زادتها مذكرات المحامي تعقيدا ، وعكف على دراستها يوما وليلة بلا انقطاع - وهؤلاء الموظفين مجربون حقا حقيقيا وليس هناك من يفوقهم في هذا المضمار . ولما أصبح الصبح على الموظف بعد عمل استمر أربع وعشرين ساعة ، يبدو

انه لم يثمر ، ذهب الى باب المدخل ، ووقف هناك متربصا ، واخذ يلقي الى اسفل الدرج بكل محام يحاول الدخول . وتجمع المحامون على عتبة السلم وتشاوروا فيما ينبغى عليهم فعله ، فهم من ناحية ليس لهم حق واضح فى الدخول ، ولهذا فلا يستطيعون اتخاذ شئ ضد الموظف فى الناحية القانونية ، وليس من صالحهم كما سبق الذكر ان يثيروا جماعة الموظفين ضدهم . ومن ناحية اخرى كان كل يوم لا يقضونه فى المحكمة يوما ضائعا ، وكانوا لذلك يهتمون بالدخول . واخيرا اتفقوا على ان يتعبوا الرجل المسن الى حد الاعياء ، فكانوا يرسلون المحامى منهم تلو الآخر ، فيصعد الدرج ويدع الموظف يقذف به ولا يقاوم الا مقاومة سلبية ما أمكنت السلبية ، فيتلقفه زملاؤه . واستمر هذا نحو ساعة، عند ذاك خارت قوى الموظف المجزؤ - وكان العمل بالليل قد أنهك قواه من قبل - وعاد الى الديوان . على أن المحامين الواقفين اسفل الدرج لم يصدقوا ان الموظف قد عاد الى الديوان نهائيا ، وارسلوا احدهم لينظر وراء الباب ويتأكد من أنه ليس هناك . عند ذاك دخلوا ولم يتجاسروا فى الغالب على التملل . لان المحامين - واصفرهم يستطيع ان يبصر بالظروف كليا أو على الاقل جزئيا - لا يستطيعون مطلقا أن يدخلوا أو ينفذوا اصلاحات فى المحكمة ، بينما يستطيع - وهذا شئ له دلالة - كل متهم تقريبا ، حتى البسيط الساذج ان يفكر عند أول بداية للقضية فى مقترحات اصلاحية ، ويضيع بذلك فى الغالب من الوقت والقوة ما كان ينبغى عليه ان يحسن استخدامه . ان الراى الصائب الوحيد هو قبول الظروف الراهنة كما هى . حتى اذا كان من الممكن اصلاح بعض التفاصيل - وهذه خرافة جنونية - فهذا الاصلاح يعنى على أحسن الاحتمالات ، اصلاحا ينطبق على حالات قادمة ، واضراراً بالذات اضرارا بليغا يتمثل فى اثاره انتباه الموظفين التواقين الى الانتقام . ينبغى بصفة خاصة أن

يتحاشى الانسان اثارة الانتباه ، وان يلزم الهدوء حتى عندما تسيطر الأمور على غكس ما يفكر تماما، وأن يحاول فهم أن هذا الكيان العضوى الضخم للمحكمة يهيم على نحو ما فى الهواء ، وأن الإنسان وهو فى مكانه اذا غير شيئا من تلقاء نفسه ، يضيق الأرض التى تحت قدميه ويوشك أن يهوى بنفسه ، بينما الكيان العضوى الضخم يجد لنفسه بسهولة ما يعادل الاضطراب الطفيف فى مكان آخر — فاطرافه كلها مترابطة معا — ويظل كما هو لم يتغير ، الا اذا ازداد استغلاقا وحدة وقسوة وشرا . . . وهو شيء محتمل جدا . ولهذا فينبغى أن يترك المتهم العمل للمحامى، وألا يحدث فيه اضرابا . واللوم لا يجدى نفعا كثيرا وبخاصة ان كان الانسان لا يستطيع أن يبرره تماما ويجعل أسبابه مفهومة فى كامل معناها . على أنه ينبغى أن يقال ان ك أضر بقضيته بتصرفه حيال مدير الديوان ، اضرارا بليغا . لقد أدى هذا التصرف الى أنه أصبح من قبيل المحتم حذف اسم هذا الرجل ذى النفوذ من قائمة أولئك الذين كان يمكن اللجوء اليهم لفعل شيء فى صالح ك . فقد أصبح يعتمد اعتمادا واضحا عدم الانصات الى الاشارات حتى العابرة الى قضية ك . والموظفون فى بعض شئونهم كالاطفال .

وكثيرا ما تؤدى الأمور البسيطة البريئة ، وليس تصرف ك للأسف منها ، الى جرحهم واثارتهم الى درجة أنهم يكفون حتى عن الحديث الى خيرة الاصدقاء ، وينصرفون عنهم اذا لا قوهم ويعملون ضدهم فى كل شيء . ثم يحدث فجأة وبدون سبب خاص أن يرددهم الى الوفاق مزاج بسيط يكون الانسان قد سمح لنفسه به معهم وقد تصور أن كل شيء أصبح مجردا عن الأمل ، فاذا به يضحكهم ويردهم الى الوفاق . ولهذا فإن التعامل معهم سهل وصعب فى وقت واحد ، ولا تكاد توجد لهذا التعامل معهم أسس . وربما كان لك أن تعجب وتدهش اذا وجدت ان حياة انسان متوسطة الطول كفت لفهم ما يلزم للعمل هنا بنجاح . وقد تمر على الواحد منا ساعات ، من نوع

الساعات التي تمر على كل انسان، يعتقد فيها انه لم يبلغ اقل شيء ، ويتصور فيها أن القضايا التي انتهت الى نهاية طيبة هي القضايا التي كانت نهاية طيبة مقدرة لها من البداية ، وأن تلك النهاية أتت دون أن يكون للمساعدة فضل فيها ، وأن القضايا الأخرى كلها قد خسرت برغم كل المحاولات وضروب التحايل والجهود وبرغم ما كان يبدو له فيها منبئاً بشيء من الكسب والنجاح ، فرح به . ثم لا يجد الانسان ما يلوح له مؤكداً ، ولا يستطيع ، رداً على بعض الأسئلة ، أن ينكر أن معاونة المحامي هي بعينها التي انحرفت الى الخسارة بقضايا كانت تبدو في جوهرها رابحة . وهذا امر يمس الثقة في النفس ، ولكن الثقة في النفس هي الشيء الوحيد الذي بقي للمرأة .

هذه الازمات - وما هذه الأمور في حقيقتها بطبيعة الحال الا ازمات - يتعرض لها المحامون ، عندما تؤخذ من ايديهم فجأة قضية كانوا قد تقدموا فيها الى بعيد وعلى نحو مرضي . والقضية لا يأخذها منهم المتهم ، كما قد يظن البعض ، فالتهم الذي اختار أحد المحامين عليه أن يبقى معه ، مهما جرى . وكيف يمكنه، وقد التمس العون ، أن يقف بمفرده ؟ هذا شيء اذن لا يحدث ، ولكن الذي يحدث أحياناً هو أن القضية تسير أحياناً في اتجاه لا يكون للمحامي أن يستمر فيه . هنالك تنزع القضية والمتهم وكل شيء من المحامي .

وهناك لا تفيد أحسن الصلات بالموظفين أدنى فائدة ، فالموظفون أنفسهم لا يعرفون شيئاً . لقد وصلت القضية الى مرحلة لا يكون فيها لأحد أن يقدم عوناً ، حيث تعالجه محاكم لا يصل اليها أحد ولا يكون في استطاعة المحامي الوصول الى المتهم . ويعود الواحد منا في يوم من الأيام الى البيت فيجد على المنضدة كل المذكرات التي ألفها بجهد ونشاط والتي وضع فيها الآمال أجمل الآمال ، أعيدت اليه لأنها لا يصح أن ترفع الى المرحلة الجديدة التي وصلت اليها القضية ،

اعيدت اليه لأنها أصبحت مجموعة من الأوراق التافهة. ولا يعني هذا أن القضية تكون قد خسرت ، لا على الإطلاق ! أو على الأقل ليس هناك سبب حاسم للأخذ بهذا الاحتمال .. كل ما هنالك أن الانسان لم يعد يعرف شيئا عن القضية وأنه لن يعلم من أمرها شيئا .

ولكن هذه الحالات لحسن الحظ حالات استثنائية ، وحتى اذا حدث وكانت حالة ك من هذا النوع ، فانها ما زالت الآن بعيدة عن تلك المرحلة . ما زالت في حالة ك فرصة كافية لنشاط المحامي وعلى ك أن يتأكد من أن هذه الفرصة ستنتهز . واذا كانت المذكورة ، كما ذكر من قبل ، لم تقدم بعد ، فلأن أمرها ليس عاجلا . أهم منها الاتصالات التمهيدية بالموظفين ذوى الحل والربط ، وقد جرت هذه الاتصالات بالفعل . وقال المحامي انها كانت مختلفة في النجاح الذي بلغته ، اذا كان ليحدثه بصراحة . والأفضل ألا يكشف له مؤقتا عن الكثير من التفاصيل لأنها قد تؤثر على ك تأثيرا في غير الصالح فتجعله يمتلىء بالفرح المفرط أو بالخوف المفرط ، ويكفى أن يقول له ، ان بعض الموظفين عبروا عن ميلهم الشديد لصالحه، بل وابدوا استعدادا كبيرا لفعل شيء ، بينما كان آخرون أقل ميلا وأن لم يرفضوا معاونته رفضا باتا . وهكذا تكون الحصيلة في مجموعها مفرحة جدا ، ولكن لا ينبغي أن يستنتج الانسان منها استنتاجات معينة ، نظرا لأن الاتصالات الأولى التمهيدية تثمر دائما حصيلة متشابهة في البداية، ولا تتضح قيمتها الحقيقية اطلاقا الا في الخطوات التالية . وعلى أية حال فهو لم يخسر شيئا ، واذا حدث ان تمكن رغم كل ما حدث من اجتذاب مدير الديوان - وقد اتخذت اجراءات مختلفة لتحقيق هذا الهدف - فان القضية كلها تكون - كما يقول الجراحون - جرحا نظيفاً ، ويحق للانسان أن ينتظر التطورات التالية .
قريب العين .

كان المحامي في مثل هذه الاحاديث واشباهها لا يفرغ . كانت تلك الاحاديث تتكرر في كل زيارة ، وتشير على الدوام الى ضروب

من التقدم . اما نوع هذا التقدم ، فذلك مالم يحطه به ك قط . كان العمل في المذكرة الأولى دائما ، ولكنها لم تكن تنتهي ، وهو شيء كان يوصف في الزيارة التالية بأنه من حسن الحظ ، فقد تبين ان المدة الماضية - وما كان أحد يستطيع التنبؤ بهذا - كانت مدة غير ملائمة مطلقا لتقديم المذكرة . فاذا ما قال ك ، وقد أنهكته أحاديث المحامى ، ان الموضوع ، حتى مع أخذ كل الصعوبات فى الاعتبار ، يتقدم ببطء شديد ، رد المحامى عليه بأنه لا يتقدم ببطء ، وبأنه كان سيتقدم أسرع بكثير ، لو أن ك لجأ اليه فى الوقت المناسب ولكن ك ضيع هذه الفرصة ، وهذا شيء له نتائج الوخيمة ، التى لا تقتصر على البطء فحسب .

وكانت لينى هي الشيء اللطيف الوحيد الذى يقطع هذه الزيارات ، فقد رتبت أمرها على أن تحمل الشاى الى المحامى عندما يكون ك عنده . وكانت تقدم الشاى ثم تقف خلف ك وتنتظر بانها تنظر الى المحامى وهو يميل على الفئجان بنهم ويصب الشاى ويشرب ، ثم تمد يدها الى ك ليمسكها . فيخيم سكون تام على المكان . كان المحامى يشرب . وكان ك يضغط يد لينى بل ويتجاسر أحيانا على مداعبة شعرها برقة . وكان المحامى عندما يفرغ من الشرب يسأل : أما تزالين هنا ؟

وكانت لينى تقول : أردت أن أحمل الآنية الفارغة معى ، ويتبادل الاثنان ضغط اليد مرة أخيرة ، ويمسح المحامى فمه ثم يعود من جديد الى صب الكلام على ك .

هل كان المحامى يهدف الى السلوان أم الى اليأس ؟ لم يكن ك يعلم هذا ، ولكنه كان متأكدا من أن الدفاع عنه لم يكن فى أيدي صالحة . ربما كان ما كان المحامى يحكيه صحيحا كله ، وان كان واضحا من كلامه أنه يريد أن يرفع من قدر نفسه ما استطاع وان

كان من المحتمل انه لم يوءت قط قضية كبيرة كهذه ، وهكذا كانت قضية ك في تصوره . كذلك كان أمر علاقات الشخصية بالموظفين تلك العلاقات التي كان يبذل الجهد الدائم في ابرازها ابرازا ، أمرا مشكوكا فيه . هل كان المفروض أن تستغل هذه العلاقات لصالح ك وحده ؟ لم يكن المحامي ينسى قط أن يشير الى أن هؤلاء الموظفين من أدنى الدرجات ، أى انهم من الموظفين المرؤسين شديدي التبعية، ويبدو أن اتخاذ القضايا أشكالا معينة له تأثير هام على تقدمهم في سلك الوظائف . فهل كانوا يستخدمون يا ترى المحامين لتحقيق هذه الأشكال المعينة التي هي بطبيعة الحال في غير صالح المتهم ؟ ربما لم يكونوا يفعلون هذا في كل قضية ، بل ان هذا من المؤكد ، وليس من المحتمل فحسب ، ولكن لا بد انه كانت هناك قضايا يفسحون فيها مكانا لصالح المحامي جزاء له على خدماته ، لأنهم لا بد كانوا يهتمون ايضا بالابقاء على سمعة المحامي دون اصابته بالخسارة والاذى .

فاذا كان الأمر فعلا كذلك ، فعلى أى نحو سيتصرفون اذن في قضية ك ، تلك القضية التي قال المحامي عنها ، انها قضية بالغة الصعوبة ، أى بالغة الأهمية ، أثارت منذ البداية اهتماما كبيرا لدى المحكمة ؟ لم يكن ما سيفعلونه بالشئ الذي يحتمل الشك الشديد : كانت هناك دلائل على موقفهم يمكن للانسان أن يراها في أن المحامي لم يقدم المذكرة الأولى بعد ، على الرغم من أن القضية كانت قائمة منذ شهور ، وأن القضية على حسب ما قاله المحامي كانت لا تزال في البداية ، وهو شئ كان من شأنه بطبيعة الحال أن يسلم المتهم الى النوم والحيرة ليفاجئه مرة واحدة بالحكم أو على الأقل بأن التحقيق الذي تم لغير صالحه قد رقع الى السلطات العليا .

لم يكن هناك مفر من أن يتدخل ك بنفسه . وكان هذا الراى - وبالذات عندما يعتريه تعب شديد من نوع ذلك التعب الذي اعتراه في صبيحة ذلك اليوم من أيام الشتاء ، حيث تحركت الأمور كلها

بلا ارادة منه خلال راسه - رأيا لاسبيل الى رده او تنحيته . كذلك لم يعد يساوره الاحتقار الذي كان يساوره من قبل ازاء القضية . فلو انه كان وحيدا في الدنيا ، لسهل عليه احتقار القضية ، وان كان من المؤكد ان القضية في هذه الحالة ، ماكانت ستنشأ على الاطلاق . اما الآن فقد أخذ العم الى المحامي ، وأصبحت مراعاة العائلة من الأمور التي لها دورها . كذلك لم يعد مركزه مستقلا استقلالا تاما عن مجرى القضية ، فقد أشار هو نفسه الى قضيته أمام بعض معارفه بشئ من الرضا المبهم وبدون ما حيلة ، وكان هناك آخرون علموا بها بطريقة غير معروفة ، وكانت العلاقة بالآنسة بورستر تبدو كأنها تتأرجح طبقا للقضية . وهكذا لم يعد له خيار تقريبا في قبول القضية أو رفضها ، لانه كان يقف في وسطها وكان عليه أن يدافع عن نفسه . فاذا ألم به تعب ، ساء الأمر سوءا شديدا .

على انه لم يكن هناك حتى الآن سبب يدعو لقلق مفرط . كان ك قد عرف كيف يجتهد في العمل بالبنك ويصل في فترة قصيرة نسبيا الى مركزه الرفيع ، وأن ينال تقدير الجميع ويبقى في هذا المركز راسخ القدم ، وما عليه الآن الا ان يحول هذه الكفاءات التي مكنته من هذا التقدم الى قضيته قليلا وما من شك في أن القضية ستنتهي الى نهاية طيبة . كان ينبغي بادية ذي بدء للوصول الى شئ طرح كل تفكير في أي ذنب ممكن أو محتمل طرحا كاملا . لم يكن هناك ذنب . لم تكن القضية سوى صفقة عظيمة كالصفقات التي سبق له أن عقدها للبنك بنجاح ، صفقة تبرص بها كالعادة أخطار مختلفة ينبغي التغلب عليها . والوصول الى هذا الهدف يتطلب عدم التفكير في أي ذنب ، بل ويتطلب تركيز الفكر على الفائدة الشخصية ما أمكن . ولم يكن هناك مفر ، حسب وجهة النظر هذه ، من سحب توكيل المحامي في أقرب وقت ، والأفضل سحبه في هذا المساء .

كان مثل هذا التصرف كما ذكر المحامي في حكاياته ، شيئا لم يسمع به ، ربما شيئا مهينا ، ولكن ك لم يكن يستطيع ان يتوقع أن تقف في طريق جهودة من أجل قضيته عراقيل ربما تسبب فيها المحامي . وعندما يتم له تنحية المحامي عن القضية ، فعليه أن يقدم المذكرة في الحال وأن يلح كل يوم ان يمكن في أن تؤخذ في الاعتبار . . ولن يكفي لبلوغ هذا الهدف بطبيعة الحال أن يجلس ك مثل الآخرين في المر وأن يضع قبعته تحت المقعد . بل انه هو أو النساء أو الساعة . . سيلحون اليوم بعد اليوم على الموظفين ويضطرونهم بدلا من التطلع من خلال السور الخشبي الى المر ، الى الجلوس الى مكاتبهم ودراسة مذكرته . هذه جهود لا ينبغي التهاون فيها ، بل ينبغي تنظيمها وملاحظتها ، ينبغي أن تصادف المحكمة متهما يعرف كيف يحافظ على حقه .

واذا كان ك يعتقد بأن في امكانه أن يقوم بهذا كلة ، فان صعوبة تأليف المذكرة بدت له هائلة . كان من قبل ، منذ اسبوع تقريبا . لا يفكر في هذه المذكرة الا وهو يحس بالخجل من أن يضطر الى تأليف مثل هذه المذكرة بنفسه . اما أن تأليفها أمر صعب ، فهذا شيء لم يفكر فيه على الاطلاق . وانه ليتذكر ذات صباح ، عندما كان العمل قد كثر عليه ، انه نحى كل شيء فجأة جانبا ، وتناول كراسة ليسجل على سبيل التجربة مسودة الأفكار اللازمة لمثل هذه المذكرة ربما ليقدمها الى المحامي الكسول ، فاذا بباب حجرة المدير يفتح في تلك اللحظة ويدخل عليه منه نائب المدير وهو يطلق ضحكة صاخبة كان هذا الضحك شيئا آلم ك ، على الرغم من أن نائب المدير لم يضحك بطبيعة الحال من مذكرة ك ، بل من نكته من نكات البورصة سمعها ، وكان فهمها يحتاج الى رسم ، فانحنى فوق مكتب ك ، وأخذ من يده القلم ، ورسم ما شاء على الكراسة التي كان ك قد اعدّها للمذكرة .

أما اليوم فلم يعد لك يعرف شيئا عن الخجل ، فلم يكن هناك بد من كتابة المذكرة ، وكان يريد ، أن لم يجد لها في المكتب وقتا ، أن يؤلفها في البيت بالليل . فان لم تكفها الليالي ، فقد كان يصمم على أن يأخذ اجازة لها . وما ينبغي أن يقف المرء في منتصف الطريق ، فهذا هو الحق بعينه ، لا في الأعمال التجارية فحسب ، بل في كل الأمور . حقيقة أن المذكرة كانت تعني عملا لا نهاية له تقريبا . ولكن ما كان ينبغي أن يكون شديد الخوف والتردد ، وينتهي الى الاعتقاد بأن تأليفها من المحال . وليس ذلك بسبب الكسل والحيث ، وهما الشيطان اللذان كانا يعوقان المحامي عن تأليفها ، بل لأن عدم معرفة التهمة وما يمكن أن تتسع اليه من أمور ، يتطلب استرجاع الحياة كلها بأدق أحداثها ووقائعها الى الذكراة ، وتصورها وفحصها من كافة النواحي . وإن هذا العمل ليتصف علاوة على الصعوبة بآثارة الأشجان . كان هذا العمل قد يصلح للانسان بعد أن يحال الى المعاش ويصير الى شيء من الطفولة فيشغل فكره ويساعده على تصفية الأيام الطوال .

أما الآن ، في هذا الوقت الذي كان ك كان فيه يحتاج الى أفكاره كلها لعمله ، والذي كانت كل ساعة فيه ، وهو في طريق الصمود والترقى ومنافسة نائب المدير منافسة خطيرة ، تضي بأقصى سرعة ، هذا الوقت الذي كان فيه يريد أن يتمتع بالامسيات والليالي كشاب في مقتبل العمر ، في هذا الوقت أصبح عليه أن يشرع في كتابة المذكرة . وعادت أفكاره من جديد تنتهي الى الشكوى . ومد أصبعه بطريقة توشك أن تكون لارادية الى زر الجرس الكهربائي المتصل بالحجرة الامامية . وبينما ضغط عليه ، رفع يده الى الساعة . كانت تشير الى الحادية عشرة . لقد انقضت ساعتان ، انقضى وقت ثمين ، ضيعه في الأحلام ، وأصبح بطبيعة الحال أكثر تعباً في ذي قبل . ولكن الوقت على أية حال لم يضع هباء فقد اتخذ قرارات من الممكن أن تكون ذات قيمة . وأحضر الحدم علاوة على يريد مختلف بطاقتين

لرجلين كانا ينتظران ك منذ وقت . كان هذان الرجلان عميلين للبنك من ذوى الأهمية الكبيرة ، وما كان ينبغي بحال من الأحوال تركهما ينتظران . لماذا اتيا فى هذا الوقت غير المناسب ؟ ولماذا - ولقد بدا ان العميلين وراء الباب المقفل يتساءلان هذا التساؤل - استخدم ك المجد المجتهد أحس أوقات العمل لأموره الشخصية ؟ ونهض ك واقفا ، وقد أخذه التعب مما جرى عليه ومما يتوقع انه سيجرى له ، ونهيا لاستقبال الأول .

كان هذا العميل رجلا قصيرا نشيطا ، من رجال الصناعة ، وكان ك يعرفه معرفة جيدة . واعتذر الرجل لأنه عطل ك عن عمله الهام ، وكذلك اعتذر ك لأنه تركه ينتظر مدة طويلة الى هذا الحد . الا أن ك نطق بهذا الاعتذار فى لهجة آلية ، وبنبهة توشك أن تكون خاطئة، حتى أن رجل الصناعة كاد أن يلحظ ذلك ، لو لم يكن منهما كل الانهماك فى موضوع العمل الذى ساقه الى هنا . وبدلا من أن يتبين رجل الصناعة هذا ، أخرج مسرعا من جيوبة كلها الحسابات والجداول ونشرها أمام ك ، وشرح بعض الأرقام وصوب خطأ حسابيا بسيطا لفت نظره وهو يتصفح الأوراق ، وذكر ك بعملية من هذا النوع ، كان قد اتفق معه عليها منذ عام ، وأشار فى معرض كلامه الى أن مصرفا آخر قدم عرضا خاصا بهذه العملية فيه تضحية كبيرة منه ، ثم سكت فى النهاية ليعلم رأى ك . والحق أن ك كان فى مبدأ الامر يتابع كلام رجل الصناعة ، وأن التفكير فى الصفقة الهامة ملك عليه نفسه ، ولكن هذا لم يدم للأسف طويلا ، فقد شط ك بعد قليل من عن الانصات ، وراح يومئ برأسه أمام صيحات رجل الصناعة التى استمرت فى الارتفاع ، ثم انتهى بعد ذلك الى الانصراف عن الايماء بالرأس والاكتفاء بالنظر الى الرأس الأصلع المكب على الأوراق ، وبالتساؤل متى يتبين رجل الصناعة يا ترى أن كلامه كله لا فائدة فيه . فلما صمت رجل الصناعة ظن ك فى أول الامر فعلا أن الرجل

انما فعل هذا ، ليتيح له فرصة للاعتراف بأنه ليس فى حال تمكنه من الانصات . ولكن ك تبين للأسف من نظرة رجل الصناعة المتحفزة ومن تلهف الرجل الواضح على أية ردود ، أن المناقشة التجارية لا بد أن تستأنف .

وهكذا مال برأسه وكأنه أمام أمر صدر اليه ، وشرع يروح بالقلم ويكتب فوق الأوراق ، ويقف هنا وهناك ويحلق فى بعض الأرقام . وتوقع رجل الصناعة أن تكون هناك اعتراضات ، ربما لم تكن الأرقام سليمة ، أو ربما لم تكن هى الفصيل فى الموضوع ، على أية حال غطى رجل الصناعة بيده الأوراق وشرع من جديد يقترب من ك ويعرض الخطوط العامة للصفحة .

وقال ك : ذلك عمل صعب .

وأطبق شفثيه ، وهوى الى المسند الجانبى فاقد الاتزان ، لأن الأوراق ، وهى الشئ الملموس الوحيد ، كانت مغطاة . بل انه رفع بصره ضعيفا الى أعلى ، عندما انفتح باب حجرة المدير ، ولاح من خلفه ، فى غير وضوح وكأنما كان وراء غلالة من نسيج رقيق ، نائب المدير . ولم يستمر ك فى التفكير فى هذا الذى لاح له ، بل أخذ يتابع التأثير المباشر لحركة أخته بالفرح الشديد . . فقد قفز رجل الصناعة من الكرسي الوثير وأسرع لملاقاة نائب المدير . وكم ودك لو أوتى الرجل عشرة أضعاف سرعته ، لأنه كان يخشى أن يتواردى نائب المدير مرة أخرى . ولكن خوف ك كان بلا طائل ، فقد تقابل الرجلان ، وتصافحا وذهبا معا الى مكتب ك . وشكى رجل الصناعة من أن الوكيل ك أظهر ميلا قليلا للعملية ، وأشار بيده الى ك الذى كان تحت تأثير نظرة نائب المدير ، قد مال مرة أخرى فوق الأوراق . فلما استند الرجلان الى المكتب ، وشرع رجل الصناعة يجتذب نائب المدير الى جانبه ، أحس ك كأن رجلين ذى ضخامة بالغ فيها ، يتفاوضان فوق رأسه ، فى أمره هو . وحاول مستعملا عينيه

اللتين رفعهما بحرص الى أعلى ، أن يعرف ما يجري فوقه ، وتناول من المكتب دون أن ينظر ، ورقة من الأوراق ، فوضمها على يده مبسوطة ، ورفعها بالتدريج الى حيث السيدين ثم نهض هو أيضاً . لم يفكر ك وهو يفعل هذا في شيء محدد ، بل تصرف وهو يحس أن عليه أن يتصرف هكذا ، عندما يفرغ من المذكرة الكبيرة التي ستيبرته تماماً . ولم ينظر نائب المدير السذي كان منهمكا بكل انتباهه في الحديث الى الورقة الا عابرا ، ولم يقرأ فيها ، لأن ما يهم الوكيل لا يهمه . ثم أخذ الورقة من يد ك وقال :

— شكرا ، لقد عرفت الموضوع كله .

وأعاد الورقة الى المكتب . ونظر اليه ك من جانب وقد أخذه

شعور بالمرارة .

ولكن نائب المدير لم يتبين هذه المرارة اطلاقا ، ولو قد تبينها ، لزاد نشاطا وهمة . وضحك النائب كثيرا بصوت عال ، بل وأخرج رجل الصناعة مرة برد فيه سرعة البديهة ، ثم عاد فأخرجه من الحرج حالا ، بأن وجه الى نفسه اعتراضا ، ثم دعاه الى الدخول الى مكتبه لينهيها المسألة .

وقال لرجل الصناعة : هذا موضوع هام جدا ! هذا رأيي أيضا والسيد الوكيل — حتى وهو يقول هذا كان يتكلم مع رجل الصناعة وحده — سيسره أن نرفع عن كاهله هذه المسألة . فهي في حاجة الى تفكير هادئ . وهو يلوح اليوم مثقلا بالعمل جدا ، وهناك في الحجرة الامامية أناس كثيرون ينتظرون منذ ساعات أن يقابلهم .

كان لدى ك من تمالك النفس ما يكفي للانصراف عن نائب المدير . تحويل انتباهه التي فيها الود وفيها رغم ذلك الجمود ، الى رجل الصناعة وحده . ولم يتدخل ك بغير ذلك ، وسند نفسه مائلا قليلا الى امام ، الى المكتب ، معتمدا على يديه كلاهما كمسندين وراء قمطره ، ونظر كيف أخذ الرجلان بقية الأوراق وهما يستمران في الكلام ثم كيف تواديا في حجرة المدير . والتفت رجل الصناعة مرة

أخرى عندما بلغ الباب ، وقال انه لا يودع ك الآن بل سيعود اليه
 وبيلفه بنجاح المحادثات ، ويحمل اليه خبرا صغيرا .
 وأخيرا كان ك بمفرده . لم يفكر مطلقا في السماح لكائن من كان
 من اصحاب المسائل بالدخول عليه ، وتمثل في شعور بغير وضوح ،
 كم يريحه أن يعتقد الناس في الخارج ، انه لا يزال منهمكا في مفاوضة
 رجل الصناعة وانه لهذا السبب لا يستطيع انسان حتى ولا الخادم
 أن يدخل عليه . وذهب ك الى النافذة وجلس على حافتها ، واستند
 بيد على المقبض وتطلع الى الميدان في الخارج . كان الثلج لا يزال
 يتساقط ، ولم يكن الغيام قد أنقشع بعد .

وظل جالسا هكذا مدة طويلة ، دون أن يعلم بالضبط السبب
 في همومه ، وان ظل من حين لآخر ينظر بشيء من الرعب من فوق
 كتفه الى باب الحجرة الامامية ، حيث اعتقد خطأ انه يسمع فيها
 صوتا . ولما لم يأت احد ، ازداد هدوءا ، وذهب الى الحوض ، وغسل
 يديه ووجهه بالماء البارد ، وعاد بمنح أكثر انطلاقا الى مكانه عنده
 النافذة . ولاح له قراره بأن يقوم هو بنفسه بالدفاع عن نفسه ،
 أمرا أكثر صعوبة مما كان يتصور أصلا . فطالما كان الدفاع مزاحا
 عنه ، ملقى على المحامي ، كان يحس بأن القضية لا تمسه الا قليلا .
 كان ينظر اليها من بعيد ولم يكن من الممكن أن تصيبه مباشرة تقريبا ،
 وكان في استطاعته أن يكشف متى شاء عن الدرجة التي وصلتها ،
 ولكنه كان كذلك يستطيع أن يبتعد برأسه عن الموضوع كلما شاء .
 أما الآن ، فاذا كان سينهض شخصيا بالدفاع عن نفسه فسيكون
 عليه أن على الأقل في هذه اللحظة - أن يعرض نفسه للمحكمة تماما ،
 والنجاح الذي ينتظر من وراء هذا ، هو حصوله فيما بعد على حريته
 كاملة نهائية . . أي أن الوصول الى هذا الهدف يتطلب منه أن
 يعرض نفسه ، مؤقتا على أية حال ، لخطر أعظم بكثير من الخطر
 الحالي . فاذا ما أراد أن يشك في ذلك الخطر ، فلقاء اليوم مع
 نائب المدير ومع رجل الصناعة يقنعه بما فيه الكفاية بالعكس . لقد

جلس مأخوذاً مذهولاً نتيجة لمجرد التصميم على أن يدافع عن نفسه .
والام تصير حانه فيما بعد ؟ يا للأيام التي تنتظره ! هل سيجد الطريق
التي تقوده خلال كل هذا الى النهاية الطيبة ؟ وألم يكن الدفاع الجيد
- وكل ما عداه سخف - ألم يكن الدفاع الجيد يعنى فى الوقت
نفسه ضرورة الانفصال عن كل شيء ما أمكن ذلك ؟ هل سيتجاوز هذه
المرحلة بالتوفيق ؟ وكيف يتمكن من تنفيذ الخطة فى البنك بنجاح ؟
فما الأمر أمر المذكرة التي قد تحتاج فى تأليفها الى اجازة فحسب -
وان كان التماس اجازة فى هذا الوقت بالذات يعتبر جرأة عظيمة
- انما هو أمر القضية كلها ، التي ستستمر مدة لا قبل لأحد بالتنبؤ
بها . يا لهذا العائق الذي ارتسى فجأة فى طريقك .

والآن ينبغى عليه أن يحمل البنك ؟ ونظرك الى المنضدة . -
الآن ينبغى عليه أن يقابل أصحاب المصالح وأن يتفاوض معهم ؟
فى الوقت الذي تجرى فيه قضيته ، فى الوقت الذي يجلس فيه
موظفو ديوان المحكمة فى أعلى المبنى على السطح عاكفين على أوراق
هذه القضية ، فى هذا الوقت يكون عليه أن يدبر أمور البنك ويسير
اعماله ؟ الا يبدو هذا تعديبا تقصده المحكمة ، تعديبا متصلا
بالقضية ، مرافقا لها ؟ وهل سيأخذ البنك فى اعتباره وضعه الخاص
وهو يحكم على اعماله ؟ هذا ما لن يفعله أحد فى أى وقت من
الأوقات . لم تكن قضيته مجهولة تماما وان لم تكن قد وضحت
وضوحا تاما ، فمن كان يعلم بها والى أى حد ؟ عسى ألا تكون الأشاعة
قد وصلت الى نائب المدير ، وهى لو كانت قد وصلت اليه ، لكان
قد استغلها ضدك دون ما مراعاة لزمالة أو انسانية ، ولكن ذلك
قد ظهر بوضوح . والمدير ؟ لا شك انه كان يحسن الظن بك ،
وهو لو قد علم بالقضية ، على قدر ما تهمة وتمسه ، لقرّر أن يقدم
الى ك التسهيلات ، ولكن ما كان بلا شك سيلج فى تقديم التسهيلات ،
لأنه سيصبح الآن ، وقد بدأت كفة ك تخف ، خاضعا لتأثير نائب
المدير ، الذي كان من ناحية أخرى يستغلي وهن المدير لتدعيم

قوته هو . ماذا يأمل ك الآن ؟ لعله كان يمثل هذه الأفكار يضعف قدرته على المقاومة ، ولكنه كان من الضروري كذلك ألا يستسلم للوهم ، وأن يرى كل شيء بأكبر قدر ممكن حالياً من الوضوح .

وفتح ك النافذة بدون سبب معين ، الا أن يكون هذا السبب هو الا يضطر مؤقتاً الى العودة الى المنضدة . وكان فتح النافذة صعباً ، واضطر ك أن يدير المقبض بكلتا يديه . فاندفع من الشباك بطوله وعرضه ضباب ممتزج بالدخان فملأ الحجرة برائحة حريق خفيفة . كذلك تطاير الى داخل الحجرة شيء من الثلج المتساقط . « خريف قبيح ! »

كانت تلك عبارة قالها خلف ك رجل الصناعة الذى عاد من عند نائب المدير الى حجرة ك دون أن يلحظه هذا . وأوماً ك براسه وتطلع قلقاً الى حقيبة رجل الصناعة التى سيستخرج منها الآن غالباً بعض الأوراق ليبين ك بنتيجة المفاوضات التى أجراها مع نائب المدير . ولكن رجل الصناعة تابع نظرة ك ، وخبط على حقيبته وقال بدون أن يفتحها : انك تريد أن تسمع خبر النتيجة التى وصلنا اليها . . اننى اوشك أن أحمل فى الحقيبة الاتفاق على الصفقة . ياله من رجل رائع نائب المدير عندكم ! ولكنه مع ذلك ليس مجرداً من الخطورة تماماً !

وضحك وصافح ك وحاول أن يضحك هو كذلك . ولكن ك ارتاب فى أمر رجل الصناعة الذى لم يرد أن يعرض عليه الأوراق . . ولم يجد ك فى ملاحظته شيئاً يضحك .

وقال رجل الصناعة : يا حضرة الوكيل ، يبدو أنك تعاني من الجوع ؟ انك تبدو مغموماً .

وقال ك : نعم . . ومد يده الى فوده وأكمل : . . صداع . . ومشاكل عائلية .

وقال رجل الصناعة وكان رجلا متعجلا لا يستطيع أن ينصت
مادنا لكائن من كان : هذا صحيح تماما ، وكل انسان له همومه
التي يحملها .

وكان ك قد خطا بغير ارادة خطوة ناحية الباب وكانما اراد أن
يصحب رجل الصناعة الى الخارج ، ولكن رجل الصناعة قال :

- اننى أحمل اليك يا حضرة الوكيل خبرا صغيرا . وأنا أخشى
جدا ان أثقل به عليك فى هذا اليوم بالذات ، ولكنى فى الفترة
الآخيرة حضرت اليك مرتين وكنت فى كل مرة اناء . وأخشى ان
انا أجلته مرة أخرى ، ان يفقد الغرض منه تماما . وهذا ما يؤسف
له ان حدث ، لان الخبر الذى عندى ربما كان على ما أعتقد غير
مجرد من القيمة . وقبل ان يتاح لك وقت لاجابة ، أقبل رجل
الصناعة قريبا منه ، وخبط بعقلة اصبعه على صدره وقال :

- لديك قضية ، أليس كذلك ؟

وتراجع ك الى الورا وصاح فى الحال : لقد قال لك هذا نائب
المدير !

فقال رجل الصناعة : لا ، ومن أين لنائب المدير علم بهذه
القضية ؟

وسأل ك وقد تمالك نفسه على نحو أكبر : وأنت ؟

وقال رجل الصناعة : أنا أعرف من حين لآخر الأخبار من المحكمة
وهذا هو الشيء الذى أردت أن أنقله اليك .

وقال ك مطاطيء الرأس : كل هؤلاء لهم صلة بالمحكمة ! وقاد
رجل الصناعة الى المنضدة . وعادا الى الجلوس كما كانا يجلسان من
قبل . وقال رجل الصناعة :

- نحن ما نستطيع ابلاغك به للأسف كثيرا ، ولكن ما ينبغى على
الانسان فى مثل هذه الاحوال أن يهمل أبسط الأمور . وأنا من

ناحية أخرى متحمس لمساعدتك على نحو ما ، وان كانت مساعدتي متواضعة جدا . لقد كنا حتى الآن ، صديقين فى التجارة ، اليس كذلك ؟ اذن ..

واراد ك أن يعتذر عن مسئلكه أثناء محادثات اليوم ، ولكن رجل الصناعة لم يقبل المقاطعة ، ورفع حقيته عاليا الى ابطه ليبين لـ ك انه على عجل ، وأردف يقول :

ـ لقد علمت بخبر قضيتك من شخص اسمه تيتوريللى . وهو مصور ، وتيتوريللى هو اسمه الفنى ، أما اسمه الحقيقى فلا أعرفه مطلقا ، وهو يأتى من حين لآخر منذ سنين الى مكتبى ، ويحضر الى صورا صغيرة أعطيه فى مقابلها ـ وهو يوشك أن يكون متسوولا ـ ما يشبه الصدقة . وهذه الصور ، على أية حال ، صور جميلة ، تمثل مروج الخليج وما الى ذلك . وكانت عمليات البيع هذه ـ وكنا كلانا قد تعودنا عليها ـ تتم بكل سهولة ، ولكن زيارته تكررت ذات مرة كثيرا ، حتى اننى وجهت اليه اللوم ، ودخلنا فى حديث معا ، وأردت أن أعرف كيف يغيث من تصوير اللوحات ، اللوحات فقط ، فعلمت لدهشتى ، أن المصدر الرئيسى لكسبه هو رسم الأشخاص . وقال لى انه يعمل للمحكمة .

فسألته : لاي محكمة ؟

فراح يحكى لى عن المحكمة . ويمكنك أن تتصور على أحسن وجه كم كانت دهشتى من حكاياته . ومنذ ذلك الحين أسمع منه اقصى كل زيارة خبرا من الأخبار الجديدة ، وأكون بهذا تدريجيا صورة عن الموضوع . على أن تيتوريللى ثرثار ، وأنا دائما أصدده ، لا لانه يكذب فحسب ، ولكن لأن رجل أعمال مثلى ، يكاد يهلك من وطأة الهموم ومشاغل العمل ، لا يستطيع أن يهتم كثيرا بأمور غريبة عليه . ولكن هذا شيء ثانوى . ربما ـ وهذا شيء فكرت فيه الآنـ

ربما كان في استطاعة تيتوريللي أن يساعدك قليلا ، فهو يعرف
قضاة كثيرين . وحتى إذا لم يكن له نفوذ كبير شخصيا ، فإنه يستطيع
أن يقدم اليك نصائح تفيدك في الوصول الى رجال من أصحاب
النفوذ . وحتى إذا كانت هذه النصائح في حد ذاتها غير حاسمة ،
فانا اعتقد أنها عندما تكون في حوزتك ستتخذ أهمية كبيرة . وانت ،
بحكم مؤهلاتك وعملك ، كالمحامي . وأنا أقول دائما : الوكيل ك
يوشك أن يكون محاميا ! آه ، أنا لا أحمل هما لقضيتك ! هل تريد
مع ذلك أن تذهب الى تيتوريللي ؟ لاشك أنه بتوصية مني سيفعل كل
ما في استطاعته . وأنا أرى فعلا أنه ينبغي عليك أن تذهب اليه .
ولا ينبغي أن يكون هذا اليوم بطبيعة الحال ، ولكن اذهب اليه ذات
مرة في فرصة ما . على أنك لست ملزما بحال من الأحوال - وهذا
شيء أريد أن أؤكدك - نتيجة للتوصية التي قدمتها اليك ، بالذهاب
الى تيتوريللي فعلا . لا ، إذا كنت تعتقد أنك في غير حاجة الى
تيتوريللي ، فلا شك أنه من الأفضل ان تصرف النظر عنه تماما .
وربما تكون قد وضعت خطة دقيقة ، قد يصيبها تيتوريللي
بالاضطراب . لا ، في هذه الحالة لا تذهب اليه طبعاً إطلاقاً . والتماس
النصائح من مثل هذا الشخص ، يتطلب بلا شك أن يضغط الانسان
على نفسه . كما تريد ! اليك هذه التوصية وهذا هو العنوان !

وتناول ك الخطاب خائب الأمل ودسه في جيبه . كانت الفائدة
على أحسن الفروض ، الفائدة التي يمكن أن تأتي بها هذه التوصية
أقل بكثير من الضرر الذي يكمن في أن رجل الصناعة يعلم خبر
قضيته وأن المصور يشيع الخبر . ولم يستطيع ك ألا بكل شقة أن
يكره نفسه على أن يوجه لرجل الأعمال الذي كان في منتصف
الطريق الى الباب ، كلمات شكر . ثم قال وهو يودع رجل الأعمال
بالباب : سأذهب اليه ، أو سأكتب اليه ، لأنني الآن مشغول
جدا ، وأرجوه أن يأتى الى مرة في مكتبى .

وقال رجل الأعمال : لقد كنت أعلم أنك ستجد السبيل الصحيح ولكنى اعتقد انه من الأصوب ان تتجنب دعوة أناس مثل تيتوريللى الى البنك والنحدث اليهم فى امر القضية هنا . كذلك ليس من الصالح دائما ان يضع الانسان خطابات فى يد أناس من هذا النوع ولكنك بلا شك قد محصت الامر وعلمت ما ينبغى عليك فعله .

وأوما ك براسه وصحب رجل الأعمال حتى اجتاز الحجرة الامامية . كان له بالرغم من الهدوء الظاهري ، فزعا اشد الفزع . أما انه قد يكتب الى تيتوريللى فذلك شيء قاله فقط ليبين لرجل الصناعة انه يقدر التوصية وانه يفكر فى امكانيات الالتقاء بتيتوريللى حالا ، على انه لو كان قد رأى فائدة فى معونة تيتوريللى ، لما تأخر عن الكتابة اليه فعلا . فما باله لم يتبين الأخطار التى يمكن أن تنجم عن هذا ، الا بعد أن نبه رجل الصناعة اليها ! فهل أصبح لا يستطيع أن يعتمد على فهمه شخصيا الا بهذا القدر القليل ، وإذا كان من الممكن أن يدعو رجلا مشبوها بخطاب واضح الى البنك ، ليلتمس منه - ولا يفصله عن نائب المدير الا باب - نصائح خاصة بقضيته ، اليس من الممكن ، بل من المحتمل انه قد عمى عن بعض الأخطار أو اندفع اليها اندفاعا ؟ فلم يكن هناك دائما رجل يقف بجوار ليحذره . هذه الشكوك فى يقظته الذاتية ، هذه الشكوك التى كانت حتى الآن غريبة عليه ، تساوره فى هذا الوقت الذى أصبح عليه أن يستجمع فيه قواه ! هل ستنقل المشاكل والصعوبات التى أحسها فى عمله بالمكتب الى القضية كذلك ؟ لقد أصبح الآن غير قادر على فهم كيف امكن أن يفكر فى الكتابة الى تيتوريللى ودعوته الى البنك .

وكان ك يهز رأسه عجباً من هذا ، عندما اقترب الخادم من جانبه ولفت نظره الى الرجال الثلاثة الجالسين على أريكة فى الحجرة الامامية . كانوا ينتظرون منذ وقت طويل أن يسمح لهم

بالدخول . فلما كلم الخادم لك بشأنهم ، لهضوا ، وأراد كل واحد منهم أن ينتهر فرصة مواتية ، ليسبق الآخرين الى مقابلة لك . ومادام من البنك لم يحفلوا بهم الى هذه الدرجة ، وتركوهم هنا فى قاعة الانتظار يضيعون وقتهم ، فقد صمموا هم أيضا على الا يحفلوا بمن فى البنك . وقال احدهم : يا حضرة الوكيل .

ولكن لك كان قد كلف الخادم بأن يأتيه بالمعطف الشتوى ، وبينما انهمك فى لبسه بمساعدة الخادم ، قال للثلاثة : أرجو المعبدة ، يا سادة ، فليس لدى الآن وقت لاستقبالكم . وأنا أرجوكم أشد الرجاء أن تسامحونى ، ولكن لدى مهمة عاجلة لابد أن اقضيها ، وينبغى أن انصرف الآن حالا . ولقد رأيتم بأنفسكم كيف تعطلت الآن مدة طويلة . هل تتكرمون بالعودة الى غدا أو فى أى موعد آخر ؟ أو هل تفضلون مباحثتى فى موضوعاتكم تليفونيا ؟ أو لعلمكم تفضلون عرض موضوعاتكم على بايجاز الآن ، وأنا أرسل اليكم الرد تحريريا مفصلا ؟ والأفضل على آية حال هو أن تعودوا عما قريب .

ولكن هذه المقترحات التى اقترحها لك ، ادهشت الرجال الذين انتظروا اذن بلا فائدة ، دهشة شديدة حتى انهم نظروا بعضهم الى بعض كالخرس . وسأل لك : لقد اتفقنا اذن ؟

والنفت الى الخادم الذى احضر اليه الآن القبعة . وكان الناظر من خلال باب حجرة لك يرى أن الثلج قد اشتد انهماره فى الخارج . ولهذا رفع لك ياقة المعطف الى أعلى وأقلل أزرارها عاليا تحت ذقنه .

فى هذه اللحظة خرج من الحجرة الجانبية نائب المدير ، ونظر وهو يتسم الى لك فى معطفه الشتوى وهو يتباحث مع الرجال ، وسأل : هل ستنصرف الآن ، يا حضرة الوكيل ؟ .

فقال لك : نعم .

واعتدل في وقفته وأكمل : عندي مهمة سأقوم بها .

ولكن نائب المدير كان قد تحول الى الرجال وسأل ك : وما امر هؤلاء السادة ؟ . اعتقد أنهم ينتظرون منذ وقت طويل .

وقال ك : لقد اتفقت معهم . .

ولكن الرجال لم يقبلوا أن يوقفهم أحد ، وأحاطوا ب ك وأعلنوا أنهم ماكانوا ينتظرون الساعات الطوال لو لم تكن لديهم مسائل هامة جدا ينبغي أن تناقش الآن تفصيلا مناقشات خاصة . واستمع نائب المدير اليهم هنيهة ، وتأمل ك الذي كان يمسك القبة وينظف بعض مواضع فيها من التراب ، ثم قال : يا حضرات السادة ، عندي حل بسيط جدا ، اذا شئتم الاكتفاء بي ، فانا أرحب بأن أقوم بمباحثتكم بدلا من السيد الوكيل . أما أن مسائلكم لا بد أن تناقش في الحال فهذا امر بديهي . ونحن رجال أعمال مثلكم ونعرف قيمة وقت رجال الأعمال . هل تتكرمون بالدخول هنا ؟ .

وفتح لهم الباب الموصل الى الحجرة الامامية للكتبة .

يا لمهارة نائب المدير في الاستحواذ لنفسه على كل شيء يكون على ك في المحنة أن يتخلى عنه ! وهل كان ك لا يتخلى إلا عما لا مفر من التخلي عنه ؟ بينما كان ك يهرع الى مصور مجهول بأمال غير محددة وضئيلة - كما اعترف هو لنفسه - تعرض مركزه هنا في البنك لضرر لا سبيل الى معالجته . ربما كان الأفضل بكثير أن يخلع معطفه الشتوي ، ويسترد لنفسه على الأقل الرجلين الباقيين اللذين كان عليهما الانتظار حتى ينتهي الاول . ولعل ك كان سيفعل هذا لو لم ير نائب المدير في حجرته يبحث في دواليب السجلات وكانما كان الدولار ملكه : ولما اقترب ك من الباب وقد تملكه الانفعال صاح نائب المدير : آه ، أنت لم تنصرف بعد .

وحول اليه وجهه الذي لم تعد ثنياته الكثيرة الجامدة تعبر
عن الشيخوخة ، بل بدت كأنها تثبت القوة ، ثم شرع يبحث في
السجلات من جديد . وقال : انا ابحت عن صورة عقد ، يقول
وكيل الشركة انها عندك . الا تساعدني في البحث ؟ .

وتقدم ك خطوة ، ولكن نائب المدير قال : شكرا ، لقد وجدتها
لتسوى .

وعاد يحمل حزمة كبيرة من الأوراق ، وليس صورة العقد
فحسب ، لاشك بها الكثير ، الى حجرته .

وقال له في نفسه : انا الآن لا اقدر عليه ، ولكن عندما اتخلص
من مشاكل الشخصية ، فسيكون هو أول انسان يحس بقدرتي ،
وسيحس بها على نحو مرير ما أمكن ذلك .

وهذا له قليلا نتيجة لهذه الفكرة ، واعطى الخادم ، الذي
كان منذ طويلة قد فتح الباب وامسكه الا يتنقل ، امرأ بان يبلغ
المدير في فرصة ما بأنه يقوم بمهمة من مهام العمل في الخارج ،
وترك البنك يوشك أن يكون سعيدا لأنه سيكرس نفسه تماما
لقضيته مدة ما .

واتجه له في الحال الى المصور وكان يسكن في ضاحية تقع
في الناحية المضادة تماما للناحية التي بها مكاتب ديوان المحكمة ،
كانت تلك الضاحية منطقة أكثر فقرا ، وكانت البيوت بها أكثر
كآبة ، والحارات ممتلئة بالقذارة التي كانت تنتشر هنا وهناك
ببطء فوق الثلج الذائب . اما البيت الذي كان المصور يسكن
فيه ، فكان مصراع واحد من بابه الكبير مفتوحا ، وكان المصراع
الأخر به أسفل الجدار خرق ، انساب منه في الوقت الذي
اقترب فيه له بالضبط ، سائل اصفر مقرف انبعث منه دخان
وهربت منه بعض الفيران وتوارت في القناة القريبة . وكان هناك

أسفل الدرج طفل صغير يرقد فوق الأرض على بطنه وينسكى ، ولكن صوته أوشك الا يكون مسموعا ، لان صخب ورششة السمكة في الناحية الأخرى من المدخل كان يغطي على كل شيء . كان باب هذه الورشة مفتوحا ، وكان ثلاثة من مساعدي العمال يقفون في نصف دائرة يخبطون على قطعة ما مما يصنعون بالشواكيش . وكانت هناك لوحة كبيرة من الصاج الأبيض معلقة على الجائط تلقي ضوءا خافتا ، نفذ بين اثنين من مساعدي العمال وأضاء وجهيهما ومريلتيهما . على ان ك لم يلق على كل الأشياء الا نظرة عابرة ، لانه كان يريد ان ينتهي من هنا بأسرع ما يستطيع . كان يريد ان يكتشف أمر المصور بقليل من الكلام ثم يعود الى البنك حالا ، فاذا لم يحقق هنا من النجاح الا أقله ، فينبغي ان يؤدي هذا الى تأثير طيب على عمله اليوم بالبنك . ولما بلغ ك الدور الثالث أبدا ، فقد انقطعت أنفاسه ، لان الدرج والادوار كانت عالية علوا مفرطا ، وكان المصور ، حسب ما جاء في العنوان يسكن في غرفة بالسطح في اعلى المبنى . كذلك كان الهواء مقبضا ، فلم يكن هناك بير للسلم ، وكان السلم الضيق مقفلا من الجانبين بجدران ، ليس بها الا هنا وهناك في أعلاها تماما تقريبا نوافذ صغيرة . وفي اللحظة التي وقف ك فيها ، خرجت بعض البنات من مسكن ، وأسرعن ضاحكات يرتقين السلم . وتبهن ك ببطء فبلغ احدهن وكانت قد تعثرت فتأخرت عن الاخريات ، وسألها وهو يطلع الدرج الى جانبها :

— هل يسكن هنا مصور اسمه تيتوريللى ؟ .

ولكزته البنت بكوعها ، وكانت دون الثالثة عشرة ، يشوه الحذب ظهرها قليلا ، ثم نظرت اليه من جانب . لم يحل صفر سننها ولا عاعتها بينها وبين الفساد كل الفساد ! وهي لم تبسم، بل

نظرت الى ك نظرة حادة مستفزة وتظاهر ك بأنه لم يلاحظ مسلكها
وسألها : هل تعرفين المصور تيتوريللى ؟ .

فهزت رأسها وسألته : وماذا تريد منه ؟ .

وبدا ك من المفيد أن يستعلم عن تيتوريللى قليلا وعلى عجل
فقال : أريد أن يرسمنى .

وسألت وقد ففرت فاهها الى حد مسرف : يرسمك أنت ؟ !

وضربت بيدها ك برفق وكأنما أرادت أن تعبر بذلك عن انه
قال شيئا خارقا للعادة فى مباغتته وخرقه ، ثم رفعت يديها
فستانها الذى كان دون حاجة الى ذلك قصيرا ، وجرت قدر
استطاعتها خلف البنات الأخريات اللاتى خفت صراخهن ثم تلاشى
اعلا السلم . والتقى ك مرة ثانية بالبنات فى الانحناء التالية
للسلم . ويبدو أنهن قد علمن من الحذباء بنية ك ، وانتظرنه . .
وقد وقفن على جانبى السلم وضغطن أنفسهن الى الحائط ،
حتى يمر ك بينهن بغير صعوبة ، ورحن يفردن مرايلهن بكفهن .
كانت وجوههن ، حتى فى هذه الوقفة فى صفين والتى تشبه
الوقفة لتحية الضيف ، تعبر عن مزيج من السذاجة والتعقيد .
وكانت على رأس البنات ، اللاتى انضممن الآن خلف ك ضاحكات
نلك البنت الحذباء التى نهضت بقيادة الجماعة . كان ك بفضلها
قد عزف الطريق الصحيحة الى قصده فى الحال ، فقد هم أن
يستمر فى ارتقاء الدرج على امتداده المستقيم ، فأشارت اليه
أن عليه أن يسلك فرعا من الدرج هو الذى يوصل الى تيتوريللى .

كان ذلك الدرج الموصل اليه ضيقا ضيقا شديدا ، طويلا
طويلا شديدا ، مستقيما لا ينعطف قط ، يمكن للإنسان رؤية
غاياته ، وهى باب تيتوريللى الذى يسده مباشرة . كان ذلك الباب
على عكس السلم كله مضاء نسبيا بنور يأتيه من شبك علوى

مراكب عليه بميل ، وكان يتكون من ألواح خشبية متجاورة غير مطلية وكان عليه اسم تيتوريللى مكتوبا بفرشاة عريضة بلون احمر . وما كاد ك وحاشيته يبلغون منتصف الدرج ، حتى انفتح الباب فوقهم قليلا ، بسبب جلبه خطاهم الكثيرة على الارجح ، وظهر رجل لا يرتدى سوى جلباب النوم ، فى فتحة الباب فلما رأى الجمع صاح : اوه !

واختفى . وصفتت الحدياء من شدة الفرح ، وتزاحمت البنات الاخريات وراء ك ، ليدفعنه بسرعة الى امام .

وفتح المصور الباب على سعته بقوة قبل أن يصل ك ومن تبعه الى أعلى الدرج ، ودعا ك الى الدخول وانحنى امامه انحناء شديدة . اما البنات فقد صدهن عن الدخول ولم يدع أى واحدة منهن تدخل على الرغم من الحاحهن ومن كثرة محاولتهن الدخول بإذنه أو ضد رغبته . ولم تتمكن سوى الحدياء من التسلل الى الداخل من تحت ذراعه الممدود ، ولكن المصور جرى وراءها ، وامسكها من ثيابها ، ولفها مرة حواليه ثم حطها عند الباب مع البنات الاخريات اللاتي لم يتجاسرن على محاولة تجاوز العتبة فى الوقت الذى تركها المصور فيه . ولم يعرف ك كيف يحكم على الامر كله ، فقد بدا ما جرى كله كأنه جرى فى اتفاق ودى . ورفعت البنات القابعات بالباب رقابهن الواحدة بعد الاخرى أعلى الباب وصحن بالمصور كلمات مازحة مختلفة ، لم يفهمها ك ، وضحك المصور بينما اوشكت البنت الحدياء أن تطير فى يده . ثم أقفل الباب وانحنى مرة أخرى أمام ك ، ومد يده اليه وقال وهو يقدم نفسه اليه :

— انا الفنان المصور تيتوريللى .

وأشار ك الى الباب الذى كانت البنات يتهايمن خلفه وقال :

— يبدو أنك محبوب جدا فى البيت .

وقال المصور : آه ! العيال الأشقياء !

وحاول بدون جدوى أن يزرر أزرار الجلباب عند رقبتة ..
كان المصور حافى القدمين يلبس علاوة على جلباب النوم القصير
سراويل واسعة مصفرة اللون مصنوعة من التيل ، لها دكة طويلة
تتدلى أطرافها وتتأرجح هنا وهناك . واستأنف المصور الحديث
قائلا :

– هذه البنات الشقيات حمل ثقيل على .

بينما انصرف عن الجلباب الذى انقطع آخر أزراره ، واحضر
كرسيا ذا مساند ورجاك أن يجلس . ثم قال :

– لقد صورت ذات مرة واحدة من هذه البنات – وهى اليوم
ليست بينهم – ومنذ ذلك الحين وهن يلاحقننى جميعا . عندما اكون
هنا لا يدخلن الا باذننى ، أما عندما انصرف ، فهن يدخلن ، أو تدخل
على الأقل واحدة منهن الى هنا . وقد اصطنعن مفتاحا لبابى يتبادلنه
بينهن . ليس هناك انسان يستطيع أن يتصور مدى ما فى هذا
من الازعاج . يحدث مثلا أن آت الى البيت مع سيدة سأرسمها
فأفتح الباب بمفتاحى وأجد تلك الحذاء هناك مثلا عند النضدة
تلون شفتيها بفرشاتي باللون الأحمر ، بينما تعبت أخواتها ، التى
عليها ملاحظتهن ، فى أركان الحجرة ويوسخونها . أو أقد يحدث –
وهذا حدث أمس – أن أعود فى وقت متأخر الى البيت – أرجو
اعتمادا على هذا أن تفكر لى حالتى والاضطراب الذى بالحجرة –
قلت اننى أعود أحيانا فى وقت متأخر ، وأهم بالصعود الى السرير
فاذا بشئ يقرصنى فى ساقى ، وانظر تحت السرير وأجد هذه
الزمرة وأخرجها . ولست أعرف السبب الذى من أجله يتزاحمن
على ، ولقد رأيت بنفسك اننى لا أقفل ما قد يجتدبن . وهذا
الذى يفعله بى يعطلى عن عملى بطبيعة الحال . ولو لم يكن هذا
المرسم قد وضع تحت تصرفى مجانا ، لكنت قد رحلت منذ زمن .

وهنا صاح صوت رقيق من وراء الباب : يا تيتوريللى هل
تسمح لنا الآن بالدخول ؟ .

فاجاب المصور : لا .

وعاد الصوت يسأل : وانا ايضا وحدى لا ؟

وقال المصور : لا .

ثم ذهب الى الباب واحكم اغلاقه .

كان ك فى تلك الاثناء قد دار بنظره فى الحجرة ، لم يكن
هناك انسان يمكن أن يخطر بباله أن هذه الحجرة البائسة قد
تسمى مرسما . فلم يكن من الممكن تقريبا أن يخطو الانسان فيها
طولا وعرضا اكثر من خطوتين طويلتين . وكان كل شيء ، الأرضية
الحيطان ، السقف من الخشب ، وكان الناظر يرى بين الألواح
شقوفا ضيقة . ورأى ك فى مواجهته سريرا عند الحائط تزاحمت
فوقه أمتعة وفرش مختلفة الألوان ، وفى وسط الحجرة حاملا عليه
لوحة منقطة بقميص تداء أكمامه حتى الأرض . وكان وراء ك شبك
لم يكن الانسان يستطيع بسبب الضباب أن يرى من خلاله سوى
سطح بيت الجيران المغطى بالثلج .

وعندما أدار المصور المفتاح فى قفل الباب تذكر ك أنه يريد أن
ينصرف حالا . ولهذا أخرج خطاب رجل الصناعة من جيبه وقدمه
الى المصور وقال :

— لقد سمعت بك عن طريق هذا السيد وهو من معارفك ، وقد
أتيت اليك بنصيحتي .

وقرأ المصور الخطاب قراءة سطحية سريعة ثملقى به على
السريير . ولو لم يكن رجل الصناعة قد قال بغاية التحديد أن
تيتوريللى ليس من معارفه ، بل هو رجل فقير ينال منه الصدقة ،
لمال ك الى الاعتقاد فى هذه اللحظة بأن تيتوريللى لا يعرف رجلا

الاعمال او لا يستطيع ان يتذكره ، وسأل المصور :
- هل تريد ان تشتري لوحات أم تريد أن أرسلك ؟

وتطلع ك مندهشا الى الصور . ماذا كان في الخطاب يا ترى ؟
كان ك قد اعتبر من البديهي أن رجل الصناعة قد كتب الى المصور
في هذا الخطاب أن ك لا يريد هنا سوى شيئا واحدا هو الاستعلام
عن قضيته . ولكنه كان مسرفا في التعجل وجرى الى هنا بلا
تفكير وتدبر . وكان على ك الآن أن يرد على المصور بشيء فقال
له وهو ينظر الى حامل اللوحة :
- انك تشتغل حاليا في هذه اللوحة .

فقال المصور : نعم .

والقى القميص الذي كان فوقها الى السرير وراء الخطاب .
ثم قال :

- انها لوحة نصفية . عمل جيد ، ولكنها لم تتم بعد تماما .
وكانت اللوحة مصادفة في صالح ك ، لانها اتاحت له امكانية
التحدث عن الحكمة . كانت على ما يبدو صورة قاض . وكان
الشبه بينها وبين الصورة التي في مكتب المحامي شبها كبيرا
ملفتا للنظر . وان كان موضوعها يختلف تماما ، فقد كانت هذه
اللوحة تمثل قاضيا آخر ، لدينا له لحية كاملة سوداء كثة تعلو
من الجانب على الوجنتين . وثمة فارق آخر ، فقد كانت لوحة
حجرة المحامي لوحة زيتية ، اما هذه فلوحة بالباستيل ضعيفة
وغير واضحة . ولكن كل ما عدا ذلك كان متشابها ، فهنا كذلك يرم
القاضي بالنهوض من كرسي عرشه مهددا وممسكا بالسندانين
الجانبين . ولقد أوشك ك على أن يقول : هذا قاض .
ولكنه تحفظ مؤقتا واقترب من الصورة وكأنه يريد أن يدرس
تفصيلاتها . فوجد في وسط المسند الخلفي للكرسي شكلا
كبيرا لم يستطيع أن يفهمه ، فسأل عنه المصور . فقال انه يحتاج

الى قليل من الاكمال وتناول من فوق مائدة صغيرة قلم باستيل
وداىب به جوانب الشكل قليلا ، دون أن يزيده بذلك وضوحا .
واخيرا قال المصور :

- هذه هي العدالة .

فقال له : وأنا قد عرفتھا لتوى ، هذا هو الرباط حول عينيھا
وهذا هو الميزان . ولكن اليست هذه أجنحة عند كعبيھا ؟
واليست فى حركة ؟ .

فقال المصور :

بلى .. لقد كان على بحسب التكليف أن أصورھا هكذا ، فھى
تمثل فى وقت واحد العدالة وربّة النصر .

فقال له مبتسما : ليس هذا مزجا طيبا ، فالعدالة لا بد أن
تكون هادئة ساكنة ، والا تآرجح الميزان ، ولم يعد من الممكن
اصدار حكم عادل .

فقال المصور : انا اتبع مشيئة من أعطانى التكليف .

فقال له : بكل تأكيد . فلم يكن يريد أن يمس كائنا من كان
بملاحظته تلك . ثم قال : وانت رسمت هذا الشخص جالسا على
كرسى العرش وهو فى الحقيقة كذلك .

فقال المصور : لا ، فلا انا رأيت الشخص ، ولا انا رأيت
كرسى العرش ، كل هذا من ابتداعى ، ولكن الذى كلفنى بهذا
العمل بين لى ما ينبغى على أن أصوره فى اللوحة .

وسأل له وهو يتظاهر عامدا بأنه لم يفهم مقصد المصور
تماما : كيف ؟ هذا الجالس على مقعد القاضى هو بلا شك قاض ؟
فقال المصور : نعم ، ولكنه ليس قاضيا عظيما ولم يحدث
قط أن اجلس على كرسى كهذا .

وقال له : وهو مع ذلك يطلب صورة لنفسه فى هذه الهيئة
الجليلة ؟ انه يجلس فى هيئة رئيس محكمة .

فقال المصور : نعم ، هؤلاء الرجال مفرورون . ولديهم تصريح خاص بأن يستصوبوا أنفسهم على هذا النحو . ولكن الانسان لا يستطيع للأسف مهما دقق في الصورة أن يحكم على تفصيلات اللبس والمقعد ، فالوان الباستيل ليست ملائمة لمثل هذه الموضوعات .

فقال ك : من الغريب فعلا ان اللوحة مصورة بالوان الباستيل .

فقال المصور : هذه رغبة القاضي ، وهو يريد لها لاحدى السيدات .

ويبدو ان تطلع المصور الى الصورة اثار فيه رغبة في العمل فقد شمر كم جلبابه عاليا ، وتناول بعض الاقلام ، وراى كيف تكون عند رأس القاضي تحت أطراف الاقلام المرتعشة ظل محمر ، تلاشى كالاشعة قرب حافة اللوحة ، واحاطت هذا التظليل بالتدرج رأس القاضي كالحلية او كالوشاح . اما ما حول شخصية العدالة فقد ظل مضيئا باستثناء تظليل خفيف غير ملحوظ ، وبدت الشخصية المصورة في هذه الاضاءة الواضحة كأنها تبرز الى الخارج بروزا ، ولم تعد تذكر الانسان الا على نحو لا يكاد يذكر بربة العدالة ، وربة الانتصار ، بل أصبحت تبدو الآن كربة الصيد تماما . وجذب عمل المصور ك أكثر مما كان يريد ، ولكنه ابقى النهاية لام نفسه لانه بقى هنا مدة طويلة دون أن يفعل شيئا من أجل قضيته . وسأل ك فجأة :

— ما اسم هذا القاضي ؟ .

واجاب المصور : ليس لى أن أقول اسمه .

وكان المصور منحنيا انحناءا شديدا على اللوحة ، واهمل بهذا الضيف اهمالا واضحا بعد ان كان قد استقبله من قبل استقبالا فاض بالتقدير . واعتبر ك هذا التصرف نزوة عابرة

واغتياظ لانه قد خسر بسببه بعض وقته . وسأل ك :
- يبدو انك موضع ثقة المحكمة ؟

ووضع المصور فى الحال أقلامه جانبا ، واعتدل وفرك يديه وتطلع الى ك مبتسما . ثم قال : قل الحقيقة دائما على الفور . انك تريد ان تعرف شيئا عن المحكمة كما جاء فى خطاب التوصية ولكنك بدأت تتحدث عن لوحاتى لتكسبنى الى صفك . ومع ذلك فانا لن آخذ عليك هذا المسلك ، فأنت لم تكن تستطيع ان تعلم ان هذا شيء لا يليق عندى . آه ، من فضلك .

قال المصور الكلمات الأخيرة بلهجة حادة صادة ، عندما هم ك بالاعتراض بشيء . ثم استأنف : على انك على حق تماما فى ملاحظتك ، فانا رجل محل ثقة المحكمة .

ثم سكت فترة كأنما أراد ان يدع ل ك زمنا يستوعب فيها هذه الحقيقة . وعادت أصوات البنات تنطلق من وراء الباب . ويبدو انهن كن يتزاحمن على خرم المفتاح ، وربما كان من الممكن أيضا التطلع الى داخل الحجرة من خلال الشقوق . وتخلى ك عن الاعتذار بأى شيء ، لانه لم يشأ ان يصرف المصور عن الموضوع ، ولم يشأ كذلك ان يبالغ فى تعظيم المصور ، ويجعله بذلك شخصا لا يمكن الوصول اليه ، ولهذا سأل :

- هل لك مركز معترف به رسميا ؟

فقال المصور بايجاز وكأنما اضطرب عليه بهذا امر اكمال الحديث : لا .

ولكن ك لم يرد أن يجعله يصمت ، فقال : كثيرا ما تكون هذه المراكز غير المعترف بها أكثر نفوذا من المراكز المعترف به . فقال المصور :

- وهذا ما ينطبق على حالتى تماما .

واوما براسه مقطباً جبينه ، ثم راح يقول : كنت بالامس
اتكلم مع رجل الصناعة فى موضوعك فسالنى هل استطيع
مساعدتك ، فاجبت عليه بقولى : لا بأس من ان يمر على الرجل
يوما ما ، وهأنذا قد اتيت سريعا ، وانا سعيد بذلك . والقضية
على ما يبدو تهلك جدا ، وهذا شيء لا ادشئ له بطبيعة الحال
اطلاقا . الا تحب ان تخلع معطفك أولا ؟

وعلى الرغم من ان ك كان ينوى البقاء مدة قصيرة فقد لقي
عرض المصور ترحيبه الشديد . اذ ان هواء الحجرة ثقل عليه
بالتدريج ثقلا خانقا ، حتى انه كان ينظر متعجبا الى مدفأة صغيرة
غير موقدة بلا شك ، موضوعة فى ركن الحجرة ، فقد كانت
حرارة الحجرة الخائفة لا يمكن تفسيرها . وبينما راح يخلع معطفه
الشتوى ، ويفتح كذلك أزرار السترة التى تحته ، قال المصور
معتذرا : لابد لى من اللداء . والجو هنا لطيف ، اليس كذلك ؟
والحقيقة ان الحجرة من هذه الناحية ذات موقع عظيم جدا .

ولم يقل ك شيئا ردا على هذا ، ولم تكن الحرارة هى التى
تنفص عليه ، وانما كان ينغص عليه الهواء الخانق الذى كان
يوشك ان يحول بينه وبين التنفس ، فالحجرة لم يجدد هواؤها
منذ مدة طويلة بلا شك . وقد اشتد بك النكد عندما رجاء المصور
ان يجلس على السرير ، بينما جلس هو على الكرسي الوحيد
بالحجرة امام حامل اللوحة . كذلك يسدو ان المصور اساء فهم
بقاء ك على حرف السرير ، ولهذا رجاء أن يأخذ راحته فلما تردد ك
فى ذلك ، ذهب اليه ودفع عميقا الى باطن الحشاي والمخدرات .
ثم عاد الى كرسيه ووجه الى ك اول سؤال موضوعى انسى ك كل
ما عداه :

— انت برىء ، هه ؟

فقال ك : نعم .

كانت الإجابة على هذا السؤال مصدر سعادة حقيقية لـ ك
خاصة وانها كانت موجهة منه الى رجل من غير الرسميين ، وكانت
لهذا لا تحتمل اية مسئولية تتبعها . لم يكن هناك انسان سألته مثا ،
هذا السؤال الصريح من قبل . واراد ان يتمتع بهذه الفرحة ،
فأضاف :

— أنا برىء تماما .

فقال المصور : هكذا .

وطاطأ راسه وبدا كأنه يفكر . ثم رفع رأسه فجأة وقال :

— اذا كنت بريئا ، فالقضية سهلة جدا .

وتفكرت نظرة ك ، لقد تحدث هذا الرجل الذى يقول انه
موضع ثقة المحكمة ، كما يتحدث الطفل الغريب .

وقال ك : ولكن براءتى لا تسهل القضية .

ولكنه برغم هذا كله ابتسم وهز رأسه ببطء . وقال :

— الامر رهن بكثير من الدقائق تنوه فيها المحكمة . وفجأة
تبرز ناحية ما ، لم يكن فيها من الاصل شيء ، وينطلق منها ذنب
عظيم . فقال المصور :

— نعم ، نعم ، بكل تأكيد .

وكان ك عطل عليه بدون داع سبيل افكاره ، ثم قال :

— ولكنك قلت لى انك برىء ؟

فقال ك : هذا صحيح .

ورد المصور : وهذا هو الشيء الرئيسى .

لم يكن من الممكن التأثير على المصور بأسباب مضادة لاسبابه
... ومع ذلك لم يكن من الواضح ، برغم صلابته ، هل كان يتكلم عن

اقتناع أو كان يتكلم عن استخفاف . وأراد ك فى أول الامر ان يتبين أساس كلامه ولهذا قال :

— انت بكل تأكيد تعرف المحكمة أحسن منى . وأنا لا اعرف .
أكثر مما سمعته عنها من أناس مختلفين أعظم الاختلاف . وقد اتفق الجميع على أنه لا توجد اتهامات خرقاء ، وأن المحكمة عندما تتهم تكون مقتنعة تمام الاقتناع بذنب المتهم ، ولا يمكن صرفها عن هذا الاقتناع الا بصعوبة .

وسأل المصور ك وهو يرفع يدا الى أعلى : تقول بصعوبة ؟
بل ان المحكمة لا يمكن بحال من الأحوال صرفها عن اقتناعها ..
واننى اذا صوّرت جميع القضاة على لوحة الواحد بجانب الآخر واتييت لتدافع عن نفسك أمام صورتهم ، للقيت من النجاح أكثر مما يمكن ان تصيب أمام المحكمة الحقيقية .

فقال ك فى نفسه : نعم .

ونسى انه انما أراد أن يختبر المصور ليس الا .

وعادت بنت من وراء الباب تسأل : ياتيتوريللى ، ان ينصرف عما قريب ؟ .

وصاح المصور ناحية الباب : اسكتين ! اما ترين اننى اتباحث مع الرجل ؟

ولكن البنت لم ترض بهذا وعادت تسأل : هل سترسمه ؟
فلما لم يجب المصور ، عادت تقول : أرجوك الا تصوره ، فهو انسان قبيح جدا !

وتلت ذلك صيحات موافقة متداخلة غير واضحة المعنى . وقفز المصور قفزة الى الباب وفتحها قليلا ، فبدت أيدي البنات الممدودة المتوسلة . وقال : اذا لم تلزمن السكون ، فسألقى بكن الى أسفل السلم جميعا . اجلسن هنا على الدرج والزمن الهدوء !

والظاهر انهن لم يطعن على الفور ، لانه اضطر الى ان يأمرهن :
- اقعدن على الدرج . .

عند ذاك ساد السكون .

وقال المصور عندما عاد : أرجو المَعذرة .

لم يكن ك قد التفت الى الباب الا ما يوشك الا يكون التفافا ،
وترك الأمر كله للمصور هل يحميه منهن وكيف . كذلك لم يتحرك
الآن الا ما يوشك الا يكون حركة ، عندما انحنى المصور فوقه ،
وهمس اليه ، حتى لا يسمعه من الخارج ، قائلا :

- هذه البنات ايضا من المحكمة .

وسأل ك وقد مال برأسه الى جانب وتطلع الى المصور :

- كيف هذا ؟ .

ولكن المصور عاد الى الجلوس في كرسيه وقال في لهجة بين
المزاح والتصريح : كل شيء من المحكمة !

وقال ك موجزا : هذا ما لم الحظه بعد .

وجردت ملاحظة المصور العامة الاشارة الى البنات من كل
ما يقلق . ومع ذلك فقد تطلع ك هنيهة الى الباب الذي كانت البنات
يجلسن خلفه على الدرج هادئات . . الا واحدة دست قشة في شق
بين الألواح وحركتها طالعة نازلة ببطء .

وقال المصور : يبدو أنك لم تكون فكرة شاملة بمدى
المحكمة ، وباعد بين ساقيه وراح يخطب الأرض بأطراف قدميه .
ثم قال : وما دمت فارغ الصبر ، فلن تحتاج اليها . وأنا سأخرجك
مما أنت به .

وسأله ك : وكيف تريد ان تفعل هذا ؟ وقد قلت منذ قليل
أن المحكمة لا تتقبل الأدلة بحال من الأحوال !

وقال المصور : انها لاتقبل الادلة التى تقدم امامها .
ثم رفع اصبع السبابة وكانما اراد بذلك ان يقول ان ك لم بتبين
الفرق الدقيق بين الأمرين .

ثم قال : يختلف عن هذا ما يجريه الانسان فى هذه الناحية
وراء المحكمة الرسمية ، أى فى غرف المداولة والأروقة أو فى
المرسوم هنا مثلا .

لم يبد الكلام الذى قاله المصور الآن لـ ك شديد البعد عن
التصديق ، بل لقد اتسم بمطابقة كبيرة لما كان ك قد سمعه من
آخرين . كان كلام المصور على الأحرى شديد الامتلاء بالأمل ...
فاذا صح أن القضاة يسهل التأثير عليهم بفعل العلاقات الشخصية
كما قال المحامى وأسهب ، فان علاقات المصور بالقضاة لها أهمية
خاصة ولا ينبغى بحال من الأحوال التقليل من شأنها . وبهذا
يندمج المصور اندماجا عظيما فى جماعة المساعدين التى أخذ ك
يجمعها بالتدريج حواليه . ولقد مدحوا فى البنك ذات يوم موهبة
ك التنظيمية ، واليوم وقد أصبح يعتمد على نفسه وحده تماما ،
تعرض فرصة طيبة لتجربة هذه الموهبة التنظيمية الى اقصى
حدودها . وتطلع الرسام الى المفعول الذى أحدثه كلامه فى ك ثم
قال فى شيء من الرهبة :

— الا يلفت انتباهك اننى اتكلم بطريقة توشك ان تكون هى طريقة
رجال القانون ؟ هذا هو تأثير مخالطتى المستمرة لرجال المحكمة .
وأنا بطبيعة الحال اكسب الكثير من وراء هذه المخالطة ، ولكن
انطلاقتى الفنية تضع جزئيا .

وسال ك : وكيف اتصلت بالقضاة لأول مرة ؟

وكان ك يريد بهذا السؤال ان يكسب ثقة المصور قبل ان
يضعه فى خدمته . فقال المصور :

- بغاية السهولة ، بالوراثة . فقد كان أبى من قبلى هو مصور المحكمة . وهذه هى الوظيفة الوحيدة التى تنتقل بالوراثة دائما . ولا تحتاج المحكمة لها الى اناس جدد . والسبب هو أنه هناك قواعد مختلفة متعددة وقبل كل شيء آخر سربة لتصوير مراتب الموظفين المختلفة ، وهذه القواعد لا تداع الا فى حدود عائلات معينة لا تتجاوزها . هناك مثلا فى هذا الدرج مذكرات أبى التى لا اطلع انسانا عليها ، ولكن من يحيط بها هو وحده الذى يستطيع ان يصور القضاة . ولكن حتى اذا فقدتها ، فلدى عدد كبير من القواعد أحملها انا وحدى فى راسى ولا يمكن لأحد ان ينازعنى مركزى . وكل قاض يريد ان يصور كما كان القضاة القدامى العظام يصورون ، وهذا ما لا يستيعبه انسان سوى .

وقال لك وقد فكر إقلى وضعه بالبئك : هذا شيء تحسد عليه .

ثم قال : وضعك اذن ثابت الأركان لا يهتز ؟

فقال المصور وقد رفع كتفيه فى زهو : نعم . لا يهتز ! ولهذا فاننى أجسر من حين الآخر على مساعدة انسان مسكين تكون له قضية .

وسأل لك : وكيف تفعل هذا ؟ ..

وكأنما لم يكن هو ذلك الرجل المسكين الذى عناه المصور منذ قليل . ولكن المصور لم يدعه يصرفه عن موضوعه بل قال :
- وانا فى حالتك مثلا سأفعل الآتى ، نظرا لانك برىء تماما .

وئقل على لك تكرار الاشارة الى براءته . ولاح له احيانا كان المصور يشترط منذ البداية نهاية ملائمة لقضيته كشرط اولى لتقديم المساعدة اليه ، تلك المساعدة التى لا تقوم بطبيعة الحال الا لبلوغ هذا الهدف . ولكن لك برغم هذه الشكوك ضغط على نفسه

ولم يقاطع المصور . فام يكن يريد أن يصرف النظر عن مساعدة المصور . . كان مصمما على ذلك . . كذلك لم تبد له هذه المساعدة اكثر ربية على الاطلاق من مساعدة المحامي . بل أن ك فضل مساعدة المصور كثيرا على مساعدة المحامي ، لأنها اكثر بساطة واكثر صراحة فى طريقة عرضها .

كان المصور قد قرب كرسيه من السرير ، واستأنف الكلام بصوت مكبوت :

— لقد نسيت أن أسألك فى البداية عن نوع التبرئة التى ترغبها . . فهناك ثلاث امكانيات : التبرئة الحقيقية والتبرئة الظاهرية والجرجرة . والتبرئة الحقيقية هى احسن انواع البراءة ولكن لا أستطيع أن افعل شيئا فى هذا النوع من التبرئة . . بل اننى اعتقد انه لا يوجد انسان فرد يمكنه أن يعين على التبرئة الحقيقية . والظاهر أن المولى فى هذا النوع من التبرئة على براءة المتهم . وما دمت أنت برىء ، فانه من الممكن فعلا ، أن تعتمد على براءتك كل الاعتماد . وفى هذه الحالة لا تكون بحاجة لا الى ولا الى اية مساعدة أخرى .

وبهرت طريقة المصور المرتبة فى العرض ك فى أول الأمر ، ثم قال بصوت خفيض كصوت المصور :

— انا اعتقد أنك تناقض نفسك !

وسأل المصور بصبر وقد أسند ظهره الى المسند مبتسما :

— وكيف هذا ؟

وايقظ هذا الابتسام فى ك شعورا بأنه يوشك أن يكشف تناقضات لا فى كلام المصور بل فى اجراءات المحكمة ذاتها . ولكنه مع ذلك لم يتراجع بل قال :

— لقد قلت من قبل ان المحكمة لأتقبل الأدلة والبراهين ، ثم بعد ذلك حصرت هذا على المحكمة العلنية ، وهانتذا الآن تقول ان البريء لا يحتاج الى مساعدة امام المحكمة . وهذا تناقض . وانت من ناحية اخرى قلت انه من الممكن التأثير على القضاة شخصيا ، وانت الآن تستبعد امكانية بلوغ ما تسميه بالتبرئة الحقيقية عن طريق التأثير الشخصي استبعادا تاما . وهنا التناقض الثاني .

فقال المصور : ما ايسر توضيح هذين التناقضين ! الحديث هنا عن امرين مختلفين ، اولهما ما هو ثابت في القانون وثانيهما ما علمت به انا بوسائلتي الشخصية .. وما ينبغي الخلط بينهما . في القانون ، وأنا لم اقرأه ، مكتوب بطبيعة الحال ان البريء يبرأ ، وليس بالقانون انه من الممكن التأثير على القضاة . ولكني علمت بعكس ذلك تماما . أنا لم أسمع قط بتبرئة حقيقية واحدة وما أكثر ما سمعت عن ضروب التأثير على القضاة . ومن الممكن بطبيعة الحال ، ان تكون الأحوال التي عرفتها لا براءة فيها .. ولكن اليس هذا بعيدا عن الاحتمال ؟ حالات كثيرة الى هذا الحد لا تكون حالة واحدة فيها براءة ؟ كنت وأنا طفل صغير انصت الى أبي وهو يحكي في البيت عن القضايا ، وكذلك كان القضاة الذين يأتون الى مرسمه يحكون عن المحكمة ، وليس هناك في أوساطنا حديث عن موضوع آخر غير موضوع المحكمة . وماكالات امكانية الذهاب شخصيا الى المحكمة تتلح لى حتى استغللتها دائما ، واستمعت الى قضايا لا تحصى ولا تعد في مراحلها الهامة وتابعتهما ما بقيت ظاهرة ، ولا بد ان أقرر اننى لم أشهد حالة تبرئة واحدة .

وقال لك وكأنما يتحدث الى نفسه والى أمانيه :

— ولا حالة تبرئة واحدة !

ثم اردف : وهذا يؤكد الراى الذى كونته عن المحكمة . حتى هذه الناحية الامل فيها مقطوع ! من الممكن أن يقوم جلاّد واحد مقام المحكمة كلها !

فقال المصور بلا رضاء : لا يصح أن تعمم . فانا لم اتكلم الا عن خبرائى انا فقط .

فقال ك : وهى تكفى . . أم هل سمعت عن حالات براءة من الزمن القديم ؟ .

فقال المصور : يقال ان مثل حالات البراءة هذه وجدت . . ولكن هذا شيء من الصعب التحقق منه . لان الاحكام النهائية للمحكمة لا تملن ، بل ان القضاة انفسهم لا يعلمون بها . . ولهذا فان ما بين ايدينا عن القضايا القديمة اساطير . وهذه الاساطير تحتوى غالبيتها على احكام بالبراءة الحقيقية ، وفى استطاعة الانسان ان يصدقها ، ولكن ليس فى استطاعته ان يقطع بصحتها . ومع ذلك فما ينبى على المرء ان يتجاهلها فهى بلا شك تضم شيئا من الحقيقة ثم أن هذه الاساطير جميلة ، ولقد صورت انا شخصا لوحات تتضمن مثل هذه الاساطير .

فقال ك : الاساطير البحتة لا تغير رأى ، وهل يمكن أن يستشهد الانسان امام المحكمة بهذه الاساطير ؟ .

وضحك المصور : لا ، هذا لا يمكن .

فقال ك : اذن فلا فائدة من الحديث عنها . .

وكان ك يريد أن يتقبل مؤقتا كل آراء المصور ، حتى ولو اعتبرها بميدة عن التصديق متناقضة مع حكايات اخرى . ولم يكن لديه الآن من الوقت ما يكفى ليفحص مدى صدق كل ما يقوله المصور ، ناهيك عن نقضه ، وفكر فى أنه يكون قد بلغ أقصى ما يريد

بلوغه ، اذا دافع المصور الى مساعدته بأى شكل حتى ولو كان هذا الشكل غير حاسم . ولهذا قال : اذن فاصرف النظر عن التبرئة الحقيقية ، ولقد ذكرت امكائيتين أخريين .

فقال المصور : نعم ، التبرئة الظاهرية ، والجرجرة .. تلك امكائيتان يمكننى ان اعمل فيهما شيئا . ولكن الا تريد ان تخلع سترتك قبل ان نتحدث فيهما ؟ اظن ان الجو حار عليك .

فقال ك : نعم .

ولم يكن حتى تلك اللحظة قد التفت الى شيء آخر سوى تصريحات المصور ، وتفجر العرق الآن من جبينه شديدا ، بعد ان ذكره المصور بالحرارة . ثم أردف :

— هذه حرارة توشك الا تكون محتملة !

وهز المصور رأسه وكأنما أراد أن يعبر عن أنه يفهم تبرم ك تمام الفهم . وسال ك : اما يمكن ان نفتح نافذة ؟

فقال المصور : لا ، فليست هذه النافذة سوى لوحا من الزجاج ثابتا في مكانه ، لا يمكن فتحه .

وتبين ك انه كان طوال الوقت يأمل ان يذهب المصور فجأة الى النافذة فيفتحها على وسمها . وكان قد أعد نفسه ليتنفس ما سيدخل منها حتى ولو كان ضبابا . وأصابه شعوره بأنه محبوس عن الهواء تماما بالدوار . وخبط بيده بخفة على اللحاف وقال بصوت خفيض : هذا شيء مقلق للراحة مضر بالصحة .

فقال المصور مدافعا عن النافذة : آه ، لا ، فالدفع يظل هنا محفوظا ولا يتسرب ، نظرا لان النافذة لا يمكن فتحها ، وفى هذا تفوق هذه النافذة رغم بساطتها ، النافذة المزدوجة . فإذا ما احتجت مرة الى التهوية ، وهذا شيء لا تدعو اليه ضرورة ملحة

لان الشقوق بين العروق تنفذ الهواء من كل مكان ، ففى امكانى
ان افتح واحدا من البابين أو كلاهما .

ووجدك فى هذا الكلام شيئا من السلوان ، وراح يلف
ببصره فى المكان بحثا عن الباب الثانى . ولاحظ المصور هذا
وقال :

— انه هناك خلف السرير ، وقد آثرت ان أسدّه بالسرير . .
عند ذلك رأى لك الباب الصغير فى الحائط . وقال المصور
وكانه أراد ان يسبق لوما توقعه من لك :

— كل شيء هنا صغير جدا بالنسبة لرسم . وقد تحتم على ان
أدبر بنفسى فى هذا المكان ما استطعت . والحق ان السرير بوضعه
عند الباب يحتل مكانا غير مناسب على الاطلاق . فالقاضى ، على
سبيل المثال ، القاضى الذى ارسمه الآن ، يدخل دائما من الباب
الذى عند السرير . . ولقد اعطيته انا مفتاحا حتى يدخل وينتظرني
هنا فى الرسم عندما لا اكون حاضرا فيه . وهو يأتى عادة فى
الصباح المبكر وانا مستغرق فى النوم . وينتزعنى بطبيعة الحال
من سباتى العميق ، عندما يفتح الباب المجاور للسرير . وانك لتفقد
كل احترام للقضاة ، اذا سمعت اللعنات التى استقبله بها عندما
يعبر سريري فى هذا الوقت المبكر . وانا لا أستطيع ان آخذ منه
المفتاح ، ولكن هذا التصرف من شأنه ان يحدث الغضب
والاثارة ، وكل الأبواب هنا يمكن اخراجها من سجاجفها بأقل
مجهود .

وكان لك فى اثناء هذا الكلام يفكر هل يخلع السترة ، واخيرا
تبين انه اذا لم يفعل ، فانه لن يقدر على البقاء هنا طويلا ، ولهذا
خلع السترة ووضعها على ركبتيه ليلبسها مرة ثانية اذا انتهى
الحديث . وما كاد يخلع السترة حتى صاحبت احدى البنات :

— لقد خلع ثوبه ١٠٠

وتناهى الى الاسماع صوتهن وهن يتزاحمن على شسقوق
الخشب كلها لرؤية المنظر . وقال المصور : البنات يعتقدن اننى
ساصورك وانك لهذا السبب تخلع ملابسك .

فقال لـ : هكذا !

وقد انشرح انشراحا اقل مما توقع ، لانه لم يشعر انه تحسن
عن ذى قبل ، على الرغم من انه كان الآن يجلس مرتديا ملابس
الداخلية فقط . وسأل بلهجة توشك ان تكون غاضبة : كيف
اسميت الامكانييتين الاخرين ؟ .

لانه كان قد نسي المصطلحات مرة اخرى . فقال المصور :

— التبرئة الظاهرية والجرجرة . ولك ان تختار ، والامر ان
ممكن بلوغهما بمساعدتى ، ولن يكون ذلك بدون تعب بطبيعة
الحال ، والفرق هنا هو ان التبرئة الظاهرية تحتاج الى جهد
مؤقت مركز والجرجرة الى جهد اقل ولكن مستمر . ولنتناول
اولا التبرئة الظاهرية . اذا كنت ترجو هذه ، فانا اكتب على ورقة
شهادة ببراءتك . وقد تلقيت نص هذه الشهادة من والدى وهو
نص لا ينقص بحال من الاحوال . ثم اسير بهذه الشهادة الى
اصدقائى من القضاة ، لاقابدا مثلا بتقديم الشهادة الى القضاى
الذى ارسمه حاليا ، اقدمها اليه مساء اليوم عندما يأتى للصورة
.. اقدم اليك الشهادة واشرح لك انك برىء واننى اضمن براءتك
وهذا الضمان الذى اقدمه على براءتك ليس ضمانا شكليا ، بل
هو ضمان فعلى ملزم .

وبدت فى نظرات المصور لمحة كأنها لوم لـ على انه يريد
الانقال عليه بمثل هذا الضمان . فقال لـ :

- سيكون هذا كرما منك ! وهل يصدقك القاضي ورغم ذلك لا يبرئني تبرئة حقيقية ؟

فأجاب المصور : كما قلت من قبل ، على انه ليس من المؤكد تماما ، ان كل قاضي سيصدقني ، وربما يطلب بعض القضاة ان اسوئك اليهم شخصا . وفي هذه الحالة سيكون عليك ان تأتي مرة معي . ولكن في مثل هذه الحالات يكون الكسب مؤكدا نصفه ، خاصة وانني ساكون قد اعلمتك من قبل بالطريقة التي ينبغي ان تتصرف عليها عند كل قاض . والامر يسوء في حالة القضاة - وهذا ما سيحدث - الذين سيرفضونني من البداية . وما ينبغي علينا الا ان نصرف النظر عن هؤلاء ، وان كنت سأكرر المحاولة معهم ، ومن حقنا ان ننصرف عن بعض القضاة ، لأن القضاة فرادي لا يمكن ان يحددوا النتيجة النهائية للقضية في هذه الحالة . وعندما اجمع على هذه الشهادة عددا كافيا من التوقعات ، اذهب بها الى القاضي الذي يشتغل بقضيتك . وربما يكون توقعه موجودا على الشهادة ، وفي هذه الحالة يسير الامر بسرعة اكبر قليلا من المعتاد . وليس من المألوف عادة ان تكون هناك عوائق كثيرة ، وهذا الوقت هو بالنسبة للمتهم وقت الثقة العظمى . ومن الغريب ، ولكن هذا حقيقي ، ان الناس في هذا الوقت يكون لديهم من الثقة اكثر مما يكون لديهم بعد البراءة . . . افلا حاجة والامر كذلك الى بذل مزيد من الجهد . . . فالقاضي عنده اقل الشهادة ضمان عدد من القضاة ، ويمكنه بدون حرج ان يبرئك ، وهو سيفعل هذا اكراما لي ولعارف آخرين ، وبالطبع بعد القيام باجراءات شكلية مختلفة . اما انت فتخرج من المحكمة حرا طبقا .

وقال ك مترددا : واكون اذن حرا !

فقال المصور : نعم ، ولكنك ستكون حرا ظاهريا فقط ، او

بعبارة ادق مؤقنا . ففضاة الدرجات الدنيا الذين منهم مصادف
ليس لهم الحق فى التبرئة تبرئة نهائية ، وهذا الحق محفوظ
للمحكمة العليا وحدها ، وهى محكمة لا انت ولا أنا ولا نحن جميعا
نستطيع الوصول اليها . ولنا نعرف منظرها ولا احوالها ، بل
وأصدقك القول ، اننا لا نريد ان نعرف هذا . . اذن فليس
لقضائنا الحق العظيم فى تبرئة المتهم من التهمة ، ولكن فى يدهم
حق تخليص الانسان من التهمة ، ومعنى هذا انك اذا برئت على
هذا النحو ، تكون قد سحبت للحظة من التهمة ، ولكن التهمة
تظل باقية تحوم فوقك ، وتنفذ فى الحال عندما يصدر الأمر
العالى . ولما كنت انا على علاقة طيبة الى هذه الدرجة بالمحكمة
ففى امكانى أن أقول لك عما فى مقررات ديوان المحكمة من فرق
ظاهرى بحث بين التبرئة الحقيقية والتبرئة الظاهرية . فى حالة
التبرئة الحقيقية تحفظ ملفات القضية كلها ، وتخفى هكذا من
المحكمة ، ويباد الاتهام وتباد القضية بل ويباد حكم البراءة ،
يباد كل شيء . اما البراءة الظاهرية فتختلف . . لا يحدث للملفات
القضية الا انها تزيد باضافة شهادة البراءة وباضافة حكم البراءة
وحشيات الحكم . ولكنها تبقى فى الاجراءات ، وترفع ، حسب
متطلبات حركة العمل الدائبة لى ديوان المحكمة ، الى المحاكم الاعلى
درجة ، ثم تنزل الى الاوطى درجة ، وهكذا تتارجح فى حركات
كبيرة او صغيرة تارة الى اعلى وتارة الى اسفل . وهذه الطرق
لا يؤمن لها . قد يلوح الأمر فى الظاهر أحيانا كان كل شيء توارى
فى النسيان منذ امد بعيد وكان الملفات ضاعت وكان الحكم
بالتبرئة حكم كامل . ولكن العليم ببواطن الامور لا يصدق هذا .
الملفات لا تضيع ، والنسيان لا مكان له فى المحكمة . . وفى يوم
من ذات الايام - لا يكون فيه من يتوقع شيئا - يتناول قاض من
القضاة الملف فى يده باهتمام وانتباه ، ويتبين أن الاتهام فى هذه
الحالة مازال قائما إقيامر بالاعتقال الفورى . ولقد افترضت هنا

ان يمر وقت طويل بين التبرئة الظاهرية وبين الاعتقال الجدد . .
وهذا ممكن ، وأنا اعرف حالات من هذا النوع ، ولكنه من الممكن
ايضا ان يأتى الشخص من المحكمة الى البيت بعد التبرئة الظاهرية
فيجد هناك من ينتظرونه بأمر اعتقال جديد . هناك تكون الحياة
الجرة قد انتهت .

وسال ك مرتابا : ثم تبدأ القضية من جديد ، اليس كذلك ؟
فقال المصور : بطبيعة الحال . القضية تبدأ من جديد ، وتكون
هناك امكانية الوصول الى براءة ظاهرية ، كالمرة السابقة . وينبغي
على الانسان ان يستجمع قواه ولا يصح ان يستسلم !
ولعل المصور قال الكلمات الأخيرة متأثرا بالانطباع الذى أحدثه
فيه ك اذ بدأ خائرا قليلا .

وسال ك وكأنه يريد ان يسبق المصور قبل ان يكتشف بعض
الأسرار : ولكن اليس بلوغ التبرئة الثانية أصعب من الأولى ؟ فأجاب
المصور :

— لا يمكن ان يقول الانسان شيئا محددا فى هذا الشأن . لعلك
تعنى ان القضاة سيتأثرون بالاعتقال الثانى فى غير صالح المتهم ؟
وليس هذا صحيحا . فالقضاة فى حالة التبرئة الأولى كانوا يتوقفون
الاعتقال الثانى . ولهذا فليس للاعتقال الثانى اذن أثر تقريبا .
ولكن من الممكن ان يكون مزاج القضاة لأسباب أخرى لا حصر لها
قد تغير وتغير كذلك تكييفهم القانونى للحالة ، ولهذا ينبغى ان
تتكيف الجهود المبذولة من أجل التبرئة الثانية مع الظروف المتغيرة
الجهود المبذولة من أجل التبرئة الثانية مع الظروف المتغيرة وأن تكون
بصفة عامة قوية كما كانت قبل بلوغ التبرئة الأولى .

وقال ك : وهذه التبرئة الثانية ليست تبرئة نهائية .

ثم لف رأسه مستنكرا . فقال المصور . لا طبعاً ! فبعد التبرئة الثانية يأتى الاعتقال الثالث ، وبعد التبرئة الثالثة يأتى الاعتقال الرابع ، وهكذا دواليك . وهذا شيء من صميم مفهوم التبرئة الظاهري .

وصمت ك . وقال المصور : يبدو أن التبرئة الظاهرية لا تلقى منك الاستحسان ، ربما راقى لك الجرجرة . هل أشرح لك ماهية الجرجرة ؟

وأوما ك برأسه . كان المصور قد اعتدل فى جلسته واستند إلى ظهر الكرسي ، وكان جلبابه مفتوحاً على ساعته ، وقد دس يده تحته وأخذ يتحسس بها صدره وجانبه . وقال المصور :

— أما الجرجرة ثم نظر أمامه لحظة وكأنه يبحث عن تفسير صحيح كل الصحة . . أما الجرجرة ، فمعناها أن تبقى القضية دائماً فى أدنى مرحلة من مراحل القضايا . ويتطلب بلوغ هذا أن يكون المتهم ومساعدته ، وبخاصة مساعده على علاقة احتكاك شخصية دائمة بالمحكمة . وأنا أكرر أنه لا يلزم فى هذه الحالة بذل جهد كبير كما فى حالة محاولة الوصول إلى التبرئة الظاهرية ، ولكن الذى يلزم هنا هو تنبيه أكثر بكثير . فما ينبغى أن يسهر الإنسان من القضية ، بل ينبغى أن يذهب إلى القاضى المختص فى فترات منتظمة وكذلك فى المناسبات الخاصة وأن يسلك الإنسان كل السبل لاستمالاته . فإذا لم يكن الإنسان على معرفة شخصية بالقاضى ، فلا بد أن يلجأ الإنسان إلى قضاة من المعارف حتى يؤثروا عليه ، دون أن ينصرف الإنسان لذلك عن المفاوضات الشخصية المباشرة . فإذا لم يضيع الإنسان شيئاً لم يكن يصح أن يضيع فى هذه الناحية ، فمن الممكن أن يتأكد تأكيداً كافياً من أن القضية لن تتجاوز مرحلتها الأولى . القضية لن تنتهى ، ولكن التهم يظل فى مأمن من الإدانة وكأنه بريء . والجرجرة تمازج على التبرئة الظاهرية بأن مستقبل

المتهم يكون أقل بعدا عن الوضوح ، وبأن المتهم يكون فى مأمن من الاعتقال المفاجئ ، الفطيع وبأنه لا يخشى أن يكون عليه أن يبدل الجهود ويتحمل الانفعالات فى أوقات لا تكون فيها أحواله الأخرى مناسبة لذلك الا أقل المناسبة ، وهى أمور تتصل بمحاولة الوصول الى التبرئة الظاهرية . على أن الجرجرة لها بالنسبة للمتهم بعض المساوىء التى لا ينبغى التقليل منها . وأنا لأفكر فى هذا المقام فى أن المتهم لا يصبح بريئا حرا أبدا ، وهذا شيء لا وجود له فى حالة التبرئة الظاهرية بمعنى الكلمة ، بل أفكر فى مساوىء أخرى . فالقضية لا يمكن أن تقف فى المراحل الدنيا الا اذا كانت هناك أسباب على الأقل ظاهرية توفقها فيها . لابد إذن أن تحدث أشياء من الناحية الظاهرية : من حين لآخر تصدر أوامر مختلفة أو يستجوب المتهم ، أو يجرى معه التحقيق بعد التحقيق وما الى ذلك . أى أن القضية تدور دائما فى الدائرة الصغيرة التى حصرت فيها اصطناعا . ومن شأن هذا أن تنجم عنه المنقصات بالنسبة للمتهم ، وما ينبغى عليك مع ذلك أن تسرف فى استئصالها . فهى ظاهرة فى مجموعها لا أكثر ولا أقل ، فالاستجابات مثلا استجابات قصيرة جدا ، واذا لم يكن لدى الإنسان وقت أو ميل ، ففى استطاعته أن يعتذر عن الحضور إليها ، بل أن فى امكان الإنسان أن يتفق مع قضاة يعينهم على الأوامر التى سيصدرونها لمدة طويلة مقدما ، فالمقصود أن يمثل الإنسان أمام قاضيه من حين لآخر ، نظرا لأن الإنسان متهم .

كان لك فى أثناء الكلمات الأخيرة قد وضع سترته على ذراعه ووقف . وأقبل صياح من الخارج : لقد وقف !

وسال المصور الذى نهض هو الآخر : هل تريد أن تنصرف الآن ؟ لا شك أن ما يبعدك عن هنا هو الهواء . وأنا أحس لهذا بالمرح الشديد . ولدى الكثير الذى كنت أود أن أقوله لك . وقد كان على أن التزم فى هذه العجالة بالإيجاز الشديد . ولكن أمل أن أكون قد قلت ما يفهم .

فقال ك : آه طبعاً .

وكانت رأسه تؤلة نتيجة للجهد الذى تحتم عليه بذله فى الانصات الى المصور .

ولكن المصور ، برغم هذا الرد الايجابى ، أعاد كلامه كله مرة أخرى ، ملخصاً ، وكأنه أراد أن يعطى ك وهو منصرف الى البيت عزاء وسلواناً : الطريقتان تتفقان فى شىء هو الحيلولة دون ادانة المتهم .

فقال ك بصوت خفيض وكأنه خجل من التعرف على هذا : والحيلولة دون التبرئة الحقيقية أيضاً .

فقال المصور بسرعة : لقد فهمت صلب الموضوع !

ووضع ك يده على السترة الشتوية ، ولكنه لم يستطيع أن يقرر لبسها . وكم كان يفضل لو ربط كل شىء ربطاً وجري الى الهواء الطلق ! حتى البنات لم يدقعه التفكير فيهن الى أن يرتدى السترة ، على الرغم من أنهن تعجبان وصحن الواحدة فى الأخرى أنه يرتدى ثوبه . وكان المصور مهتماً بتأويل مزاج ك على نحو ما ، فقال :

— يبدو أنك لم تقرر شيئاً بخصوص مقترحاتى . وأنا راض بذلك . بل اننى كنت أود أن أنصحك بالأسرع فى اتخاذ رأى . لأن الفوائد والمساوى دقيقة دقة الشعرة . وينبغى أن يزن الانسان كل شىء بدقة . على أنه لاينبغى مع ذلك أن يضع مع ذلك الانسان وقتاً كثيراً أكثر من اللازم .

وقال ك : سأعود قريباً !

وقد لبس سترته بقرار مفاجيء ، وطرح معطفه على ظهره وأسرع الى الباب الذى راحت البنات خلفه يصحن . وظن ك أنه يرى البنات المتصايحات من خلال الباب .

وقال المصور دون أن يتبعه : ولكن عليك أن تتمسك بكمثك ،
والأ أتييت الى البنك لاستفهم منك شخصيا .

وقال ك : افتح الباب !
واخذ يشد المقبض الذى كانت البنات يسكن به من الخارج ،
كما تبين من رد الفعل .

وسأل المصور : هل تريد أن تتعرض لمضايقة البنات ؟ الأفضل
أن تخرج من الباب الآخر .
وأشار الى الباب الآخر خلف السرير .

ووافق ك على ذلك وقفز الى السرير مرة أخرى . ولكن المصور
بدلا من أن يفتح الباب ، زحف تحت السرير وسأل وهو تحته :
انتظر لحظة أخرى أرجوك ، ألا تريد أن ترى صورة أخرى يمكن أن
أبيعها لك ؟

ولم يشأ ك أن يكون غليظا ، فقد اهتم به المصور فعلا ووعده
بأن يعينه وان لم يدر الحديث ، نتيجة لنسيان ك عن ثمن المساعدة ،
ولهذا فلم يكن إفى مقدور ك أن يوده فتركه يعرض عليه الصورة ،
على الرغم من أنه كان يرتعد لشدة تلهفه وتعجله الخروج من
المرسم . وجذب المصور من تحت السرير تلا من الصور غير المبروزة ،
كانت مغطاة بالتراب ، حتى أن التراب ، عندما نفخه المصور من
فوق الصورة العليا ، تطاير أما أمين ك وحال بينه وبين التنفث
مدة طويلة .

وقال المصور : هذه اللوحة تمثل بعض المروج وقدمها الى ك .
كانت الصورة تمثل بالفعل شجرتين ضعيفتين ترتفعان
متباعدين من نجيل مظلم . ظهرت فى خلفيتها شمس قارية ملونة
بالوان كثيرة .

وقال ك : جميل ! سأشتري هذه اللوحة .

كان ك قد نطق بهذه العبارة المسرفة فى الإيجاز دون ما تفكير ،
ولذلك كان مسرورا ، عندما رأى أن المصور لم يفضب لذلك ، بل
تناول من فوق الأرض لوحة أخرى ، وقال :

هذه لوحة معارضة للوحة الأولى !

ربما كان المصور قد فكر فى جعلها معارضة للوحة الأولى ، ولكن
الناظر إليها لم يكن يستطيع أن يتبين فرقا بينها وبين الأخرى :
الشجرتان والتجبل وغروب الشمس هنا وهناك .

ولكن ك لم يكن مهتما بهذا فقال : هذه مناظر جميلة ! سأشتري
اللوحتين ، وأعلقهما فى مكتبى !

وقال المصور : يبدو أن الموضوع المصور فيهما يعجبك !

وأخرج صورة ثالثة وقال : من المصادفات الحسنة أن أجد
صوره ثالثة مشابهة .

ولم تكن اللوحة الثالثة مشابهة بل كانت تمثل المنظر نفسه .
كان المصور ينتهز هذه الفرصة ليبيع الصور القديمة .

وقال ك : سأأخذ هذه اللوحة أيضا . ما ثمن اللوحات الثلاث ؟
وقال المصور : سنتكلم فى هذا عما قريب . وأنت الآن على
عجل ، وسنظل على صلة أجدا بالآخر . ويسرنى أن الصور
أعجبتك ، وسأعطيك كل الصور التى عندى تحت السرير . كلها
مناظر مروج ، وما أكثر ما رسمت صور المروج ! وهناك من الناس
من يرفضون مثل هذه الصور لأنها رهيبة ، وهناك من يحبونها ،
وأنت منهم ، بسبب ما فيها من رهبة !

ولكن ك لم يكن لديه ميل لبحث الخبرات الفنية التى للمصور
المتسول .

وصاح مقاطعا المصور : احزم كل الصور ! وسيأتي خادمي غدا
ويأخذها .

وقال المصور : لاداعي لذلك ! ارجو ان اتتمكن من العثور على
تمثال يحملها معك الآن !

وأخيرا انحنى فوق السرير وفتح الباب .

وقال المصور : اطلع فوق السرير ولا تعجل ! فكل من يدخل
هنا يطلع فوق السرير !

وحتى لو لم يدع المصور ك الى الطلوع فوق السرير ، فان ك
لم يكن سيعمل اعتبارا لشيء ، بل ان ك كان قد وضع قدمه في
وسط اللحاف ، فلما نظر من خلال الباب المفتوح أنزل قدمه مرة
ثانية .

وسال ك المصور : ما هذا ؟

فرد المصور متسائلا مندهشا : ماذا يدهشك ؟

ثم قال : هذه مكاتب ديوان المحكمة ! أما كنت تعلم أن مكاتب
ديوان المحكمة هنا ؟ مكاتب ديوان المحكمة على كل الأسطح تقريبا ،
فلماذا لا تكون هنا أيضا ؟ كذلك مرسى يتبع ديوان المحكمة أصلا ،
وقد وضعته تحت تصرفى !

وفزع ك ، لا لانه وجد هنا مكاتب ديوان المحكمة ، بل فزع خاصة
من نفسه ومن جهله أمور المحكمة . كان يتصور كقاعدة أساسية
ينبنى عليها مسلك المتهم ، أن يكون دائما مستعدا وألا يجد ما يباغته ،
والا ينظر الى اليمين بذهن خال بينما القاضى يقف عن شماله -
ولكنه كان دائما يعود الى فعل ما يتعارض مع هذه القاعدة الأساسية .

راى ك امامه ممرا طويلا يهب منه هواء كان اذا قورن بهواء
المرسوم اعتبر منعشا . رأى على جانبيه المر دككا كالكك التى رآها

في حجرة الانتظار بمكاتب الديوان المختص بقضيته . والظاهر أنه كانت هناك تعليمات محددة تتبع في تأييث مكاتب الدواوين . ولم تكن حركة أصحاب القضايا في تلك اللحظة شديدة جدا . كان هناك رجل يجلس وكأنه راقد يوارى وجهه في ذراعيه ويلوح وهو على الدكة كأنه نائم . وكان هناك رجل آخر يقف في بقعة شبه مظلمة في نهاية الممر . وصعد ك فوق السرير وتبعه المصور باللوحات . وما لبثا أن التقيا بخادم المحكمة وكان ك الآن يعرف خدم المحكمة بالزرار الذهبي الذي يتخذونه على ملابسهم المدنية تحت الأزرار العادية - وكلف المصور الخادم بأن يرافق ك باللوحات . لم يكن ك يسير بل كان يترنج ، وكان يضغط المندبل على فمه . فلما أوشكا على بلوغ الباب الخارجي اندفعت البنات نحوهما ولم يتخلص ك منهما كما كان يتمنى . والظاهر أنهن رأين الباب الآخر للرسم يفتح فسلكن الطريق الأخرى للدخول من الباب الخارجي .

وصاح المصور ضاحكا عندما رأى تزاحم البنات : لا استطيع الآن الاستمرار في مرافقتك ! مع السلامة ! لا تطيل التفكير وعجل بالتقرير !

ولم يلتفت ك مجرد الالتفات حواليه للنظر الى المصور . ولما وصل الى الحارة ركب أول عربة صادفته . فقد كان مهتما بالتخلص من الخادم الذي كان زراره الذهبي يخز عينيه وخزا مستمرا وان لم يبد عليه أنه كان يلتفت نظر الآخرين . وأراد الخادم تعبيرا عن كلفه بالخدمة أن يركب بجوار الخوذي فنهره ك واضطره الى النزول . فلما بلغ ك البنك كان النهار قد تجاوز منتصفه بمدة طويلة ، ولكم ود ك أن يترك اللوحات في العربة ، ولكنه كان يخشى أن تظرا فرصة يكون فيها عليه أن يذكر المصور بشخصيته مستندا عليها . ولهذا كلف من حملها الى حجرته ، ووضعها في الدرج الأسفل بمكتبه وأغلقه ، ليعودها على الأقل في الأيام القليلة التالية عن نظر نائب المدير .

• التاجر بلوك • تنحية المحامي

واخيرا قرر ك أن ينحى محاميه عن وكراته . لم يكن من الممكن القضاء على الشكوك التي راودته عن سلامة هذا التصرف ، ولكن اعتقاده في ضرورة هذا القرار رجحت كفته . ولقد تطلب اتخاذ هذا القرار من ك ، في اليوم الذي اراد ان يذهب فيه الى المحامي ، جهدا كبيرا . فلم يكن يستطيع أن يعمل الا ببطء مسراف ، وتحتم عليه أن يبقى في المكتب طويلا لانجاز الأعمال ، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وقف أمام باب المحامي . وفكر ، قبل أن يثق الجرس ، هل الأفضل أن ينذر المحامي تلفونيا أو تحريريا ، فالحديث الشخصي سيكون فيه بكل تأكيد كثير من الحرج . ومع ذلك فلم يشأ ك أن يتخلى عنه ، لأن طرق الانذار الأخرى سينلقاها المحامي بالصمت أو بكلمات شكلية قليلة وفي هذه الحالة لن تعلم ك ، اللهم الا اذا اكتشفت لينى شيئا ، كيف تلقى المحامي الانذار وكيف صور حسب رايه - وليس رايه بالرأى المجرد من الأهمية - نتائج هذا الانذار ، أما اذا جلس المحامي أمام ك وتلقى مفاجأة الانذار بالتنحية ، فإن ك ، حتى اذا لم يفصح المحامي عما به سيستنتج من وجهه ومن مسلكه بسهولة كل ما يريد معرفته . بل انه ليس من المستبعد أن يقتنع بأن من الخير ترك مهمة المرافعة للمحامي وبأن يسحب ، نتيجة لهذا ، انداره بالتنحية عن الوكالة .

عندما دق لك جرس باب الحمامى فى المرة الأولى ، لم يتحرك ساكن كالمعتاد . وفكر لك : ليت لىنى تزداد سرعة !

وتمنى لو حظى على الأقل بعدم تدخل عميل آخر فى الموضوع كما كانت العادة ، فباتى الرجل الذى يلبس معطف البيت أو ياتى غيره ، ويسبب لك العقبات . وبينما وضع لك يده على زرار الجرس للمرة الثانية ودقه ، نظر الى الباب الآخر ، ولكن الباب الآخر ظل فى هذه المرة مقفلا . وأخيرا ظهر فى طاقة باب الحمامى عينان ، ولكنهما لم تكونا عينى لىنى . وفتح أحدهم الباب ولكنه ضغط على الباب من الداخل بجسمة وصاح الى داخل المسكن : انه هو ! .

ثم فتح الباب تماما . كان لك قد ضغط على الباب من الخارج بجسمة ، لانه سمع وراؤه المفتاح يدور بسرعة فى قفل باب المسكن الآخر . فلما انفتح الباب امامه ، اندفع الى الحجرة الامامية اندفاعا ، ورأى لىنى التى كانت صيحة التنبيه موجهة من فاتح الباب اليها تجرى فى الممر الذى يفصل بين الحجرات وليس عليها سوى قميص فقط . وتبعها لك هنيئة بنظراته ، ثم التفت الى فاتح

الباب فإذا هو رجل قصير أعرج ، له لحية كاملة ، كان يحمل شمعاً في يده . وسأله : هل انت موظف هنا ؟ .

فأجاب الرجل : لا ، انا هنا غريب ، كل ما هناك ان المحامي هو وكيلى ، وانا هنا بسبب مسألة قانونية .

وسأل ك وهو يشير بحركة من يده الى ملابس الرجل الناقصة : هكذا بدون ثوب ؟ .

فقال الرجل : آه ، لا تؤء اخذنى ا .

واضاء نفسه بالشمعة وكانما كان يرى نفسه للمرة الاولى فى هذا الوضع .

وسال ك الرجل بإيجاز : هل لىنى عشيقتك ؟ .

كان ك قد باعد قليلا بين ساقيه وعقد يديه وبهما القبة خلف ظهره ، واحس بتفوقه الشديد على الرجل النحيف ، لانه كان يمتاز عليه بارتداء معطف ثقيل . وقال الرجل : رياه ا .

ورفع يديه لستر وجههم وقد ألم به الفزع ثم أردف : لا ، لا ما هذا الذى خطر ببالك ؟ .

وقال ك مبتسماً : ان هيتك لتبدو مؤيدة لكلامك ، ومع ذلك تمسأل .

وأشار اليه بالقبة وجعله يسير امامه . وسأله ك وهما فى الطريق : ما اسمك ؟ .

فقال : بلوك . التاجر بلوك .

وانتفت الرجل القصير بعد هذا التعارف حوله ، ولكن ك لم يدع له فرصة ليقف . وسأله ك : هل هذا هو اسمك فعلاً ؟ .

فقال الرجل : بكل تأكيد . ولماذا يساورك الشك فى هذا ؟

فقال ك : لقد خطر ببالى انه من المحتمل أن يكون لديك من الاسباب ما يجعلك تكتم اسمك .

وأحس ك بأنه حر طليق على نحو لا يتأتى للإنسان إلا عندما يكون في الغربة يتحدث مع أناس هم دونه ، فيخفى ما يمتنه شخصيا ، ويتكلم عن اهتمامات الآخرين ومصالحهم ببساطة ، غير فمهم بهذا أمامه ويدعمهم يسقطون أن شاء . وظل ك واقفا أمام باب حجرة مكتب المحامي ، ثم فتحه وقال للتاجر الذي كان يسير خاضعا مطيعا : لاتتمجل ! انر هنا !

وكان ك قد زفكر أن لينى ربما تكون قد اختفت هنا ، ولهذا حمل التاجر على أن يفتش فى كل الأركان ، ولكن الحجرة كانت خالية . فلما كانا أمام صورة القاضي ، رد ك التاجر عنها ممسكا إياه من حمالة البنطلون . ثم سأل رافعا أصبع السبابة الى اعلى :
- هل تعرف هذا ؟ .

رفع التاجر الشمعة وتطلع فى تعامش إليها وقال : هذا قاض .

وسال ك : هل هو قاض عظيم الدرجة ؟ .

ثم وقف الى جانب ليلاحظ الانطباع الذى تحدثه الصورة على التاجر .

كان التاجر يتطلع الى اللوحة العالية متعجبا . وقال : انه قاض رفيع الدرجة .

فقال ك : لست على علم واسع بالأحوال فى المحكمة ، انه أوطى قضاة التحقيق الواطين جميعا .

فقال التاجر وهو يهبط بالشمعة : الآن تذكرت ، لقد سمعت هذا مرة من قبل .

فصاح ك قائلا : طيعا ! نسيت ! لابد أنك إفعلا قد سمعت هذا ! .

فسال التاجر ك : ولكن لماذا ، لماذا ؟ .

بينما تحرك الى الباب ، وك يدقعه الى هناك بيديه . فلما بلغا الممر الخارجى قال ك : انك تصرف بلا شك أين توارت لىنى ؟ . .

فقال التاجر : توارت ؟ ، لا بل انها لا بد فى المطبخ مشغولة بأعداد الحساء للمحامي .

وسال ك : ولماذا لم تقل هذا على الفور ؟ .

فاجاب التاجر وقد بدا كأنه اضطرب نتيجة للأوامر المتناقضة :

— كنت أريد أن أدخلك الى هناك . ولكنك استرجعتنى .
فقال ك : يبدو أنك تظن أنك ذكى ، خذنى إليها !

لم يكن ك قد دخل المطبخ من قبل قط . كان المطبخ كبيرا كبيرا مدهشا مؤثنا تأثيثا عظيما . كان الفرن وحده كبيرا ، يزيد فى حجمه على ثلاثة أفران من الحجم المألوف ، أما الأشياء الأخرى ، فلم تتضح تفاصيلها فى الحال ، لأن المطبخ كان يضاء بمصباح صغير معلق على المدخل . وكانت لىنى تقف الى الفرن وهي مرتدية مزبلة بيضاء كالمعتاد ، وكانت تفرغ بيضا فى وعاء موضوع على موعد كحولى .

وقالت لىنى وهي تنظر الى الجانب : مساء الخير ، يا يوزف .
وأشار ك بيده الى كرسي وثير الى جانب لىجلس عليه التاجر فأطاع التاجر وجلس .

وقال ك : مساء الخير .

ثم ذهب خلف لىنى قريبا منها وومال على كتفها وسأها :

— من هذا ؟

فأحاطت ليني ك بذراعها بينما راحت تغلب بالأخرى الحساء .
ثم شددت ك أمامها وقالت له : انه انسان يستحق العطف ، انه تاجر
مسكين ، اسمه بلوك . انظر اليه .

ونظر الاثنان اليه خلفهما . كان التاجر يجلس على الكرسي
الوثير ، الذي اشار اليه ك ، وكان قد نفث الشمعة التي لم يعد
لنورها الآن ضرورة فاطفاها وضغط بأصبعين القبيل ليمنع
الدخان .

وقال ك لليني وهو يعيد بيده رأسها لتنظر ناحية الفرن : لقد
كنت تلبسين القميص ولا شيء فوقه !
فصمت .

فسأل ك : هل هو عشيقك ؟ .

وكانت توشك أن تمد يدها الى الاناء وتمسكه فامسك ك
بيديها وقال : أجبني ، هه !

فقالت له : تعال الى حجرة المكتب ، واشرح لك كل شيء .
وتعلقت ليني به وأرادت أن تقبله ، وقالت : يوزف !
ونظرت اليه متوسلة صريحة معا مركزة بصرها في عينيه :
- لا يمكن أن تكون بك غيرة من السيد بلوك ! .

ثم قالت وهي تلتفت الى التاجر : رودي ، ساعدني ، انك
ترى انني اتعرض للشك ، اترك الشمعة الآن .

وربما فكر مفكر انه لم يكن ملتفتا الى ما يجري . لا ، لقد
كان عليما بكل شيء . وقال بقليل من حضور البديهة : لا اعرف
سببا لغيرتك ! .

وقال ك : وانا ايضا في الحقيقة لا اعرف .

ونظر الى التاجر مبتسما . وضحكت ليني بصوت مرتفع ،
وانتهزت فرصة عدم تنبه ك اليها ، فتعلقت بذراعه وهمست
اليه : دعه الآن ، فانت ترى اى انسان هو ! ولقد اهتمت به
قليلا ، لانه عميل مهم من عملاء المحامى ، لا لسبب آخر . اما انت
فما بالك ؟ هل تريد ان تتحدث اليوم مع المحامى ؟ انه اليوم
مريض جدا ، ولكنى مستعدة لابلاغه بقدومك ، ان شئت . عني
ان تقضى الليلة معي ، بكل تأكيد . ولقد طال غيبتك عنا ، حتى
ان المحامى نفسه سأل عنك . ما ينبغي ان تهمل القضية . كذلك
لدى انا اشياء مختلفة علمت بها ، واريد ان انقلها اليك . والآن
اخلع معطفك أولا .

وعاونته على خلع المعطف ، واخذت منه القبعة وجرت بالاشياء
الى الحجرة الامامية لتعلقها ، ثم جرت راجعة لتنظر الى الحساء .
وقالت : هل اعلن المحامى بحضورك أولا او احمل اليه الحساء
اولا ؟

فقال ك : اعلنيه بحضورى أولا .

كان ك غاضبا لانه كان قد نوى اصلا ان يناقش موضوعه ،
وبخاصة مسألة تنحية المحامى الحساسة ، مع ليني مناقشة
دقيقة ، ولكن وجود التاجر افسد عليه رغبته وعكر عليه . وكان
ك الآن يعتبر قضيته من الاهمية بحيث لا يصح ان يتدخل فيها
التاجر الصغير تدخلا قد يكون له اثره الحاسم ، ولهذا نادى على
ليني ، التى كانت قد وصلت الى منتصف الطريق ، لكى تعود .
وقال : احملى اليه الحساء أولا حتى يقوى بها على المحادثة معي ،
ولاشك انه بحاجة الى ذلك .

وفال التاجر بصوت خفيض وعلى سبيل تقرير الواقع وهو
ما يزال جالسا فى ركنه : انت ايضا عميل من عملاء المحامى .

ولكن عبارته لم تلق الترحيب . فقال له : ماذا يعنيك هذا ؟
وقالت ليني : اسكت !

ثم قالت موجهة الكلام الى ك : اذن فانا أحمل اليه الحساء
أولا .

وصبت الحساء فى صحن . ثم قالت : ولكن فى هذه الحالة
يخشى أن يغلبه النعاس بعد قليل ، فهو ينام بعد الأكل حالا .

فقال ك : ولكن ما سأقوله له سيجعله يظل يقظا .
كان يريد أن يوحى بأنه ينوى على مناقشة موضوع هام مع
المحامى ، وكان يريد أن تسأله ليني عنه فيرجوها النصيحة عند
ذلك . ولكنها اكتفت بتنفيذ الأوامر تنفيذا دقيقا . فلما مرت ليني
على ك بالحساء فى طريقها الى المحامى ، لمست برقة وهمست
اليه : عندما يفرغ من الحساء سأعلنه بمجيئك على الفور ، حتى
تعود الى إبنى أقرب وقت ممكن .

فقال ك : اذهبى الآن ! اذهبى !

فقالت ليني : كن أكثر لطفا معى !

والتفتت خلفها وهى تحمل الحساء مرة أخرى وهى بالباب .

ولاحقها ك بنظره . كان ك قد قرر نهائيا أن ينحى المحامى
عن قضيته ، وربما كان من الخير أنه لم يتباحث مع ليني فى
الموضوع من قبل ، فلم يكن لها الا القليل من الإحاطة بالأمر فى
مجموعه ، ولا شك أنها كانت ستنصح به عدم تنحية المحامى ،
ولعنها كانت ستتمكن فعلا من الحيلولة بين ك وبين انذار المحامى
بهذا ، مما كان سيصبح من شأنه أن يبقى ك فى الشك والحيرة ،
ولا ريب أن ك كان مع ذلك سينتهى الى تنفيذ ما أزمع عليه بعد

مدة ما ، لأن هذا القرار الذى اتخذه كان يسيطر عليه سيطرة شديدة . لهذا فكأما عجل بالتنفيذ ، كلما درا مزيدا من الخطر . وربما كان التاجر يعرف شيئا فى هذا الموضوع .

والتفت له حوالية ، ومسا كاد التاجر يلمح ذلك ، حتى هم بالنهوض . وقال له لا حاجة بك الى النهوض .

وجذب كرسيًا بجانبه . وسأله له : هل أنت عميل قديم عند المحامى ؟ .

فقال التاجر : نعم ، عميل قديم جدا .

فسأل له : منذ كم سنة يقوم بالوكالة عنك ؟ .

فقال التاجر : لست أفهم مقصدك ، ولكن المحامى يقوم بالوكالة عنى فى المسائل القانونية الخاصة بالتجارة - فأنا اتاجر فى الجيوب - منذ توليت المتجر ، أى منذ عشرين سنة تقريبا ، أما فى قضيتى الخاصة ، التى، أظن أنك تشير إليها ، فهو وكيلى منذ البداية ، أى منذ أكثر من خمس سنين ، نعم أكثر من خمس سنين .

وبينما أضاف العبارة الأخيرة ، اخرج حافظة قديمة وقال : لقد سجلت هنا كل شيء . ان شئت قلت لك التواريخ بالضبط . فما أصعب أن يحفظ الانسان فى ذاكرته كل شيء . والظاهر أن قضيتى قد بدأت منذ مدة أطول بكثير ، فقد بدأت بعد وفاة زوجتى ، أى منذ أكثر من خمس سنين ونصف .

واقترب له منه . وسأله : المحامى اذن يقبل قضايا عادية ؟ .

فقد لاح له هذا الربط بين المحاكم وبين العلوم القانونية باعثا على الهدوء والاطمئنان تماما . وقال التاجر : بكل تأكيد .

ثم همس الى ك قائلا : ويقال انه فى هذه المسائل القانونية
أمهر منه فى غيرها .

ويبدو أن التاجر ندم على ما قال ، فقد وضع يده على كتف
ك وقال : أرجوك ، لا تخوننى ! .

وربت ك على فخذه مهدئا وقال : لا ، أنا لست خائنا ! .

فقال التاجر : انه ليثأر وانه ليحب الثأر .

فقال ك : انه لن يفعل بكل تأكيد شيئا ضد عميل مخلص مثلك .

فقال التاجر : آه ، بل انه يفعل ، انه عندما يثور لا يفرق بين
هذا وذاك ، على أننى لست مخلصا له بمعنى الكلمة .

فسأل ك : ولم لا .

وسأل التاجر ك مرتابا : هل أبوح لك بالسر ؟ .

فقال ك : أعتقد أن لك أن تفعل هذا ! .

فقال التاجر : سأحكى لك شيئا من السر ، ولكن لابد أن تقول
لمى أنت أيضا سرا من أسرارك حتى نتماسك كلانا جميعا أمام
المحامى .

فقال ك : أنت عظيم الحيلة ، وسأقول لك عندما تفرغ سرا
سيهدئك تماما . فما امر عدم اخلاصك للمحامى ؟ .

فقال التاجر مترددا وبلهجة توشك أن تكون لهجة من يعترف
بشيء مغل بالشرف : لقد وكلت عنى محامين آخرين غيره ! .

فقال ك وقد أصابه شيء من الخيبة : ليس هذا شيئا خطيرا
الى هذا الحد ! .

فقال التاجر الذى ظل بعد الاعتراف لا يستطيع التنفس الا بصعوبة : بل هو شيء جد خطير هنا .

وأوحى اليه ملاحظة ك بمزيد من الثقة ، فأردف يقول : ليس مسموحا بهذا . وليس مسموحا خاصة بأن يلجأ الانسان بالاضافة الى محاميه ، الى محامين من الرعاع أصحاب الأفانين والأحاييل وهذا هو بالضبط ما صنعته . لقد اتخذت بالاضافة اليه خمسة من هؤلاء المحامين .

وصاح ك : خمسة ! .

كان الرقم قد أثار دهشته ، وعاد يقول : خمسة علاوة على محاميك ؟ .

وأوما المحامى براسه : وأنا حاليا أتفاوض مع محام سادس ! .

وسأل ك : وما حاجتك الى هذا العدد الكبير من المحامين ؟ .

فقال التاجر : انا محتاج اليهم جميعا .

وسأل ك : الا تريد ان تفسر لى هذا ؟ .

فقال التاجر : على الرحب والسعة . انا أولا وقبل كل شيء آخر لا اريد ان أخسر قضيتى ، هذا شيء بديهى . ونتيجة لهذا لا يصح ان أصرف النظر عن شيء يفيدنى . حتى اذا كان الأمل فى فائدة فى حالة بعينها ضئيلا جدا ، فلا ينبغي احتقاره ونبذه . وهكذا وضعت كل ما أملك فى خدمة هذه القضية . وهكذا سحبت مثلا كل الأموال من متجرى ، وكانت مكاتب متجرى فيما مضى تشغل دورا بأكمله تقريبا ، أما اليوم فاكثفى بحجرة واحدة فى البيت الخلفى أعمل فيها ومعى صبي واحد . وليس السبب فى هذا التدهور هو سحب الأموال فحسب ، بل وسحب العاملين كذلك . فالانسان اذا أراد ان يهتم بقضيته ، لا يستطيع ان يهتم بما عداها الا قليلا .

فسأله ك : هل تعمل شيئا اذن فى المحكمة شخصيا ؟ هذا هو
بالضبط الموضوع الذى أحب أن أعرف عنه شيئا .

فقال التاجر : لا أستطيع أن أقول لك فى هذا الا القليل .
فى بداية الأمر جريت القيام بعمل شيء شخصيا ، ولكنى ما لبثت
ان انصرفت . فهذا من شأنه أن ينهك القوة ، ولا يأتى بنجاح كبير
كذلك تبين لى أنه من المحال أن يعمل الانسان ويتباحث هناك ،
على الأقل بالنسبة لى . فمجرد الجلوس والانتظار هناك عبارة عن
جهد كبير . وأنت تعرف شخصيا الهواء الثقيل فى مكاتب الديوان .
وسأل ك . وكيف علمت اننى كنت هناك ؟ .

فقال التاجر : كنت فى حجرة الانتظار عندما مررت .

وصاح ك مأخوذا وقد نسي تماما أنه كان من قبل يعبر منظر
التاجر مضحكا .

— يا المصادفة . لقد رأيتنى اذن . وكنت فى حجرة الانتظار
عندما مررت . وأنا لم أمر هناك الا مرة واحدة .

فقال التاجر : ليست هذه مصادفة كبيرة . إفانا هناك كل
يوم تقريبا .

فقال ك : والظاهر أنه سيكون على أن اذهب الى هناك كثيرا .
ولن أحظى باستقبال جليل كالأستقبال الذى حظيت به فى تلك
المرة ، عندما نهض الكل لى . والظاهر أنهم ظنوني أحد القضاة .

فقال التاجر : لا ! لقد كنا فى ذلك اليوم نحى خادم المحكمة .
ولقد كنا نعلم أنك متهم . فهذه أخبار تنتشر بسرعة كبيرة .

وقال ك : كنتم تعلمون هذا ، ربما بدا لكم مسلكى متعجرفا .
ألم تتحدثوا عن هذا ؟

فقال التاجر : لا ، على العكس . ولكن هذه سخافات ! .

وسأل ك : وما هى هذه السخافات ؟ .

فقال التاجر مغتاضا : يبدو انك لاتعرف الناس هناك ، ولهذا ربما فهمت الأمر على وجهه غير صحيح . وينبغى أن تعرف أن هناك أشياء كثيرة تعرض للكلام فى مثل هذه القضية وأن العقل لا يطبق فهمها ، فالإنسان يكون متعبا ، مشتت الفكر ، ولهذا يلجأ الإنسان بدلا من العقل ، الى الخرافة . وأنا أتكلم عن الآخرين ، ولست أفضل منهم . من قبيل الخرافة مثلا أن الكثيرين يعتقدون أنه من الممكن التنبؤ بنهاية القضية من النظر الى وجه المتهم وخاصة الى شفتيه . ولقد أكد هؤلاء أنك ، استنتاجا من شفتيك ، ستدان عما قريب بكل تأكيد . وأنا أكرر أن هذه خرافة مضحكة ، كثيرا ما نقضتها الوقائع تماما ، ولكن ما دام الإنسان يعيش فى ذلك المجتمع ، فمن الصعب أن يبتعد عن مثل هذه الآراء . تصور مدى قوة هذه الخرافة ! لقد تكلمت فى ذلك اليوم مع أحد المتهمين ، اليس كذلك ؟ ولم يستطع أن يجيب عليك . وهناك بطبيعة الحال أسباب كثيرة للاضطراب والحيرة ، ولكن أحد هذه الأسباب كان تطلع الناس الى شفتيك . فقد حكى هذا الرجل فيما بعد ، أنه رأى على شفتيك أيضا علامة اعتقد أنها تدل على ادانته هو أيضا .

وسأل ك : شفتى انا ؟

وأخرج من جيبه مرآة صغيرة وتطلع فيها الى وجهه . ثم قال : ولكننى لا أستطيع أن أتبين فى شفتى شيئا خاصا . وانت ؟

فقال التاجر : ولا أنا ! على الإطلاق !

فصاح ك : ما اشد تعلق هؤلاء الناس بالخرافات ! .

فقال التاجر : ألم أقل لك هذا انا بنفسي ؟

وقال ك : هل تختلطون كثيرا وتبادلون الآراء ؟ لقد انتحيت حتى الآن جانبا .

فقال التاجر : انهم فى المعتاد لا يختلطون بعضهم ببعض ، وليس الاختلاط ممكنا فعدددهم كثير ، وليست هناك اهتمامات مشتركة الا قليلا . واذا حدث وظهر فى مجموعة اعتقاد بان هناك مصلحة عامة فما أسرع ما يتأكد ما فيه من وهم وخطأ . وليس هناك شيء يمكن تقريره بصورة جماعية حيال المحكمة لأن كل حالة تبحث على حدة ، فالمحكمة هى اشد المحاكم تدقيقا . لا يمكن اذن الوصول الى شيء جماعيا ، ولكن فى استطاعة الفرد ان يصل أحيانا فى السراى شيء . وعندما يتحقق له الوصول اليه ، يعرف به الآخرون . وليس هناك من يعلم كيف جرى . ليس هناك اذن عنصر مشاركة ، من حين لآخر يتلافى الناس معا فى حجرات الانتظار ، ولكن التحدث هناك قليل . والآراء القائمة على الخرافة ترجع الى زمن قديم وهى تتكاثر شكليا من تلقاء ذاتها .

وقال ك : لقد رايت الناس فى حجرة الانتظار هناك ، ولاح لى انتظارهم عاريا عن الفائدة .

فقال التاجر : لا ، ليس الانتظار عديم الفائدة . الشيء المجرد من الفائدة هو التدخل فى القضية شخصا . ولقد قلت لك أننى اوكل بالإضافة الى هذا المحامى خمسة آخرين . وقد يعتقد الانسان - وأنا شخصا أول من ظن ذلك - أنه فى الامكان ترك القضية لهم كلية . ولكن هذا هو عين الخطأ . لا يمكننى أن أترك لهم القضية على كثرتهم . لعلك لا تفهم هذا ؟

فقال ك : لا - ووضع يده على يد التاجر مهدئا ، حتى يحول بينه وبين المبالغة فى الاسراع فى الكلام - أرجوك ان تتكلم أنظما قليلا ، فهذه أمور مهمة جدا بالنسبة الى ، ولست استطيع متابعتك كما ينبغي .

فقال التاجر : حسنا ، من الخير انك ذكرتني ، فانت جديد وانت صغير . فقضيتك بدأت منذ نصف عام ، أليس كذلك ؟ نعم ، لقد سمعت بذلك . ان قضيتك قضية حديثة جدا ! اما انا فكم مرت هذه الأفكار برأسي حتى أصبحت أكثر الأفكار زفى الدنيا بداهة !

وسأل ك : لعلك مسرور بان قضيتك قد تقدمت الى هذا النحو ؟ . .

ولم يكن ك يريد أن يسأل بالضبط عن مدى تقدم قضية التاجر وعن الحال التى وصلت اليها أموره . وكذلك لم يتلق اجابة واضحة .

فقد قال التاجر وقد خفض رأسه : نعم ، لقد دحرجت قضيتي الى امام خمسة أعوام ! وليس هذا بالجهد الهين ! .

وصمت هنيهة . وأرهف ك السمع عله أن يسمع ليني تقترب . وكان من ناحية لا يريد أن يأتى ، لأنه كان يريد أن يسأل عن كثير من الأشياء ولم يكن يريد أن يتعرض لليني فى أثناء هذا الحديث القائم على الثقة مع التاجر ، ولكنه كان من ناحية أخرى غاضبا لأنها برغم وجوده قد بقيت عند المحامى مدة أطول مما يتطلب الحياء .

وعاد التاجر الى الحديث وعظم انتباه ك : اننى اذكرك تماما الوقت الذى كانت قضيتي فيه فى عمر قضيتك الآن . لم أكن

فى ذلك الوقت اعتمد الا هذا المحامى . ولم اكن راضيا عنه
كل الرضا .

وفكر ك انه على وشك معرفة كل شىء ، وهز راسه بهمة
وكانه يستطيع بهذا ان يشجع التاجر على قول كل ما يستحق
انه يعلمه . واستأنف التاجر : لم تكن قضيتى تتقدم . كانت
التحقيقات تجرى ، وكنت اذهب الى كل تحقيق ، واجمع المادة ،
واضع كل سجلاتى ودفاترى التجارية لدى المحكمة ، وهو شىء
علمت فيما بعد ، انه لم تكن له ضرورة ، وكنت اجرى الى المحامى
واقدم مذكرات مختلفة .

وسال ك : تقول مذكرات مختلفة ؟

فقال التاجر : بكل تأكيد !

فقال ك : هذا شىء يهمنى جدا . فالمحامى لا يزال بعد المذكرة
الاولى . انه حتى الآن لم يفعل شيئا . هانذا اتبين انه يهملنى
بشكل فاضح .

وقال التاجر : اما ان المذكرة لم تنته بعد ، فشىء يمكن ان
يكون له اسباب صحيحة مختلفة . وقد تبينت على اية حال فيما
بعد ان المذكرات كانت فى حالتى عديمة القيمة تماما . ولقد تمكنت
ذات مرة من قراءة احدى المذكرات ، تفضل على بذلك احد موظفى
المحكمة ، فوجدتها تنسم بالعلمائية ، ولكنها كانت بلا مضمون
فى حقيقتها واصلا . كان فيها كثير من العبارات اللاتينية التى
لم أفهمها ، ثم صفحات باكملها ابتهالات عامة الى المحكمة ، ثم
الوان من التملق الى بعض الموظفين فرادى ، لم يذكر اسماءهم
صراحة ، ولكن العليم كان يستطيع تخمينها ، ثم مدح ذاتى
للمحامى وتذلل امام المحكمة كانه تذلل الكلاب ، ثم فى النهاية

بحرث فى حالات قانونية من العصور القديمة يرى أنها شبيهة بحالتي . كانت تلك البحوث ، على قدر فهمى وتقديرى ، متقنة . ولست أريد بكلامى هذا كله ، أن أكون حكما على عمل المحامى ، هذا بالإضافة الى أن المذكرة التى أطلعت عليها كانت مذكرة واحدة من بين مذكرات عديدة ، ولكن الذى تبينته والذى أريد أن أقوله الآن ، هو أن قضيتى لم تكن فى ذلك الوقت تحقق تقدما .

وسال ك : واى تقدم كنت تريد له أن يتحقق ؟

وفال التاجر مبتهما : أنت تسال سؤالا معقولا ، فالإنسان لا يستطيع أن يرى فى هذه القضايا تقدما الا فيما ندر . ولكنى لم أكن أعرف هذا آنذاك . وأنا تاجر ، ولقد كنت فيما مضى اتصف بصفات التجار أكثر من الآن ، كنت أريد أن أصل الى ضروب من التقدم للموس ، أن أصل الى أن يتجه الموضوع فى مجموعه الى النهاية أو أن يتخذ اتجاهها صاعدا منتظما على الأقل . لم يحدث هذا ، وجرت بدلا منه استجابات فقط ، كان مضمونها جميعها واحد . كان سماء المحكمة يأتون أكثر من مرة أسبوعيا الى متجرى والى مسكنى أو يقابلونى على أى نحو آخر . كان هذا من شأنه أن يقلق راحتى بطبيعة الحال (ولقد تحسنت الحال اليوم فيما يختص بهذا على الأقل ، فهم يتصلون تليفونيا ، والاتصال التليفونى اقلاقة أقل بكثير) وبدأت الاشاعات تنتشر عن قضيتى بين اصدقائى التجار وخاصة بين أقربائى ، وجاء الضرر من كل ناحية ، ولم يكن هناك أقل دليل على أن الجلسة الأولى قرب موعدها . وهكذا ذهبت الى المحامى وشكوت له ، فقدم الى الشروح المطولة ، ولكنه رفض رفضا باتا أن يفعل شيئا مما يجول بخاطرى ، وكان رايه أن ليس هناك من يستطيع أن يفعل شيئا خاصا باجراءات القضية ، ولو أنه ألح فى مذكرة على التعجيل بعقد الجلسات - كما كنت أريد - لكان بهذا يأتى بمسلك

فطبع لم يعهده أحد من قبل ، ولأدى هذا الى الاضرار به وبى .
 فقلت فى نفسى : هذا الذى لا يريد هذا المحامى او لا يستطيع
 فعله ، هناك من يريد ومن يستطيع فعله ، وبحث عن محام آخر .
 وأريد أن أسبق التسلسل وأقول : انه لم يكن هنا بين المحامين
 من طلب من المحكمة تحديد موعد الجلسة الرئيسية او من بلغ ذلك ،
 اإلحقيقة ان هذا - مع تحفظ سأحدث عنه فيما بعد -
 أمر محال ، وأن المحامين لم يخدموا فيما قالوا . على اننى لم
 اندم لالتجائى الى محامين آخرين . ولعلك قد سمعت من الدكتور
 هول شيناً عن المحامين الرعاع أصحاب الافانين والأحاييل ،
 وأقرب الظن انه صورهم لك فى صورة مهينة ، والحقيقة انهم
 ليسوا كذلك . وهو عندما يتحدث عنهم ويقارن بينه وزملاءه
 وبينهم يرتكب خطأ صغيراً ، أحب أن أفت نظرك بصفة ثانوية
 جانبية اليه . انه يسمي المحامين الذين هم من طبقته على سبيل
 التفريق « كبار المحامين » . وهذا خطأ ، من الممكن بطبيعة الحال
 أن يسمي كل واحد نفسه « كبير » ان حلا له هذا . ولكن الفاصل
 فى هذه الحالة هو ما جرى عليه العرف فى المحكمة . يجرى هذا
 العرف على انه هناك بالإضافة الى رعاى المحامين أصحاب الافانين
 والأحاييل ، كبار المحامين وصغار المحامين . وهذا المحامى ورفاقه
 ليسوا الا صغار المحامين ، أما كبار المحامين ، وأنا لم أرىهم فى
 حياتى قط ، ولكن علمت بهم سماعاً ، إقمرتبهم أعلى من مرتبة
 صغار المحامين بشكل لا سبيل الى مقارنته بملو صغار المحامين
 عن المحامين الرعاع الذين ينصب الاحتقار عليهم .

وسأل ك : لقد تكلمت عن كبار المحامين ؟ فمن هؤلاء اذن ؟
 وكيف السبيل للوصول اليهم ؟

فقال التاجر : اذن فانت لم تسمع بهم من قبل . وليس هناك
 منهم واحد تقريبا ، اذا سمع بهم لا يحلم بهم ردحا طويلا .

فلا تنس الغرور وتنساق الى موضوعهم . وانا لا اعرف من هم كبار المحامين ، والأرجح أن الانسان لا يستطيع الوصول اليهم اطلاقا . ولست اعرف حالة واحدة ، يمكن أن نقول عنها بتأكيد تام ، أن كبار المحامين تدخلوا فيها . وهم ، على ما علمت ، يدافعون عن البعض ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يحملهم بارادته على قبول الدفاع عنه ، انهم يدافعون عن من يريدون هم الدفاع عنه . والقضية التي يهتمون بها ، لابد أن تكون قضية تجاوزت حدود المحكمة الواطئة . والأفضل على أية حال ألا يفكر الانسان فيهم ، والا تبين الانسان أن احاديث المحامين الآخرين ونصائحهم ومساعداتهم مقرفة نافهة الى أقصى حد ، وقد علمت شخصيا أن الانسان في هذه الحالة يفضل أن ينبذ كل شيء وأن يمدد في فراشه بالبيت وأن يرفض الاستماع الى أى شيء بعد ذلك . وأن الانسان اذا فعل هذا ، انما يرتكب أكبر حماقة ، فان الانسان لن يجد الراحة في الفراش طويلا .

فَسألُك : اذن فانت لم تفكر آنذاك في كبار المحامين ؟

فقال التاجر وهو يتسم من جديد : لم افكر طويلا ، وان كان الانسان للأسف لا يستطيع أن يساهم تماما ، والليل خاصة انسب الاوقات لمثل هذه الافكار . ولكنى كنت افي ذلك الوقت أريد النجاح العاجل ، فذهبت الى المحامين الرعاع .

وصاحت ليىنى وقد عادت بصبحن الحساء ووقفت في الباب :

— ما أعجب جلوسكما معا !

كانا في الحقيقة يجلسان متلاصقين ، حتى أنهما اذا تحرك أحدهما أقل حركة اصطدمت رأساهما ، وقد اضطر التاجر ،

الذى كان علاوة على قصر قامته يحنى ظهره ، اضطر الى ان ينحنى
انحناء شديدا ان هو اراد ان يسمع كل شيء .

وصاح ك فى لبنى ليصدها : لحظة من فضلك !

وانتفضت من الانفعال يده التى كان لايزال يضعها على يد
التاجر . وقال التاجر موجه الكلام الى لبنى : انه يريد ان أحكى
له عن قضيتى !

فقال لبنى له : احك له ! .

وتكلمت لبنى مع التاجر بلطف ولكن بشيء من التعالى . ولم
يعجب هذا ك . فقد تبين ان الرجل له قيمة وان له على الأقل
خبرات كان يحسن روايتها . والظاهر ان لبنى كانت تخطيء
تقديره .

ونظر ك غاضبا الى لبنى وهى تأخذ من التاجر الشمعة التى
كان يمسكها طول الوقت ، ثم وهى تمسح يده بمريلتها ، وترقع
بجواره لتكحت شيئا من الشمع كان قد سال من الشمعة على
بنطلونه .

وقال ك وهو يدفع يد لبنى بعيدا دون ما ملاحظة : كنت تريد
ان تحكى لى عن المحامين الرعاع أصحاب الأفاتين والأحاييل !

وسألت لبنى ك : ماذا تريد ؟

وهوشت ك برفق ثم استمرت فى عملها .

فقال التاجر وهو يمسح بيده على جبينه وكأنه يفكر : نعم ،
عن المحامين الرعاع .

وأراد ك ان يعاونه فقال : كنت تقول انك كنت تريد نجاحا

عاجلا ولذلك ذهبت الى المحامين الرعاع اصحاب الافاتين
والاحاييل .

فقال التاجر : بالضبط !

ولم يستمر فى الرواية .

وفكر ك . . لعله لا يريد ان يتكلم امام ليني فى هذا . وقهر
تلفه على سماع بقية الموضوع الآن ، ولم يلح .

وسأل ك ليني : هل اخبرت المحامى بمقدمى ؟

فقالت : بالطبع ، وهو ينتظرك . دع الآن بلوك ، ويمكنك ان
تتكلم معه فيما بعد ، فهو باق هنا .

وكان ك لا يزال مترددا .

وسأل ك التاجر : هل ستبقى هنا ؟

فقد كان يريد ان يسمع اجابة من التاجر نفسه ، ولم يكن
يريد ان تتكلم ليني عن التاجر كأنما تتكلم عن غائب ، وكان ك فى
هذا اليوم مشحونا بالفضب الغامض من ليني .

وعادت ليني تقول : انه كثيرا ما ينام هنا .

وصاح ك : انه ينام هنا !

كان يعتقد ان التاجر سينتظر ان يعود اليه بعد ان يفرغ من
حديثه مع المحامى بسرعة فيخرجان معا ويتباحثان بتمعق دون ان
يعكر عليهما احد . فقالت ليني :

— نعم ، فانا لا ادع كل واحد يدخل الى المحامى فى
الوقت الذى يحلو له ، كما ادعك أنت يا يوزف . ويبدو
انك لا تدعش لأن المحامى يستقبلك برغم مرضه فى الساعة
الحادية عشرة ليلا . انك تعتبر مايقدمه اليك اصدقاؤك بديها

وتسرف في ذلك الاعتبار اسرافا ! ولكن اصدقاءك ، او على الاقل
انا افعل ما افعل من اجلك عن طيب خاطر . وانا لا اريد من شكر
على ذلك الا ان تحبنى !

وفكر لك في اللحظة الاولى : ان احبك ؟ !

ثم خطر بباله : نعم ، انا احبك .

ومع ذلك فقد قال مهملا كل شيء آخر : انه يستقبلني ،
لانى عميله ! ولو كانت هناك ضرورة الى مساعدة من غريب ،
لكان على الانسان فى كل خطوة ان يلح فى السؤال ويشكر .

وسالت لبنى التاجر : ما اعنقه اليوم !

وفكر لك : انا الغائب هذه المرة !

واوشك ان يفتاظ من التاجر الذى سكت على خشونة لبنى
والذى قال :

- والمحامى يستقبله لاسباب اخرى ايضا . فقضيته اكثر
اثارة للاهتمام من قضيتى . هذا بالاضافة الى ان قضيته فى
بدايتها ، اعنى انها لم تنته بعد ، مما يجعل المحامى يفضل
الاشتغال بها . ولكن الحال ستغير فيما بعد .

فقالت لبنى وهى تنظر الى التاجر : بالضبط ! ما اكثر
ثرثرته فى الأسرار !

والتفتت الى ك وقالت له : ما ينبغى عليك ان تصدقه . فهو
بقدر ما هو لطيف ، بقدر ما هو ثرثار . وربما كان هذا هو
السبب الذى يجعل المحامى لا يحبه . وهو على أية حال لا يستقبله
الا اذا كان معتدل المزاج . ولقد بذلت الجهد الكثير لآغير هذا
الوضع ، ولكن هذا امر محال . تصور ، اننى احيانا اعلنه
برغبة بلوك فى زيارته ، فلا يستقبله الا بعد ثلاثة ايام . واذا حدث

ولم يكن بلوك وقت النداء عليه للزيارة موجودا حيث ينبغي ان يكون موجودا ، ضاعت عليه الزيارة ، وتحتم البدء من جديد فى تحديد موعد لزيارته . ولهذا سمحت لبلوك بأن ينام هنا ، فقد حدث فعلا أن المحامى دق الجرس ليلا وطلبه . وهكذا أصبح بلوك مستعدا حتى اثناء الليل . على أنه قد حدث أيضا ، منذ تبين المحامى أن بلوك يكون دائما موجودا ، أن المحامى ينقض طلبه بلوك للدخول عليه أحيانا ويرفض مقابله .

وتطلع ك الى التاجر متسائلا ، فأوما هذا برأسه ، وقال بنفس الصراحة التى تكلم بها منذ قليل مع ك ، ولكن ربما فى شئ من التشتت بسبب الخجل : نعم ، ان الانسان ليقع بمضى الزمن تحت سيطرة محاميه !

وقالت لينى : انه يتظاهر بالشكوى تظاهرا ، ولكنه يحب ان ينام هنا ، كما اعترف لى شخصا أكثر من مرة !

وذهبت لينى الى باب صغير ودفعته وسألت ك : هل تريد ان ترى حجرة نومه ؟

وذهب ك الى هناك ونظر وهو واقف على العتبة الى المكان المنخفض المجرد من النوافذ الذى يملأه سرير ضيق عن آخره . كان على من يريد النوم فى هذا السرير أن يتسلق اليه العمدان . ورأى ك ناحية الرأس تجويفا فى الحائط به شمعة ومجبرة وريشة وحزمة من الورق مرتبة ترتيبا دقيقا . . لعلها أوراق قضية . وسأل ك وهو يلتفت الى التاجر : هل تنام فى حجرة الخادمة ؟

فاجاب التاجر : لقد اعدتها لينى لى وهى حجرة لها ميزات كثيرة .

وأطال ك النظر اليه . كان الانطباع الاول الذى تلقاه ك

عن التاجر هو على الأرجح الانطباع الصحيح . حقيقة انه ذو خبرة
لأن قضيته قديمة العهد ولكنه دفع ثمن هذه الخبرة غاليا .

وفجأة أحس ك أنه لم يعد يحتمل النظر إلى التاجر ، فصاح
في لينى : ضعيه فى السرير !

ولكن لينى بدا عليها أنها لم تفهم . أما ك فكان يريد أن
يذهب الى المحامى ، وينحيه ويحرر بهذا ليس من المحامى
فحسب ، بل ومن لينى ومن التاجر أيضا . وقبل أن يصل الى
الباب قال له التاجر بصوت خفيض : يا حضرة الوكيل !

فالتفت ك بوجه عابس . فقال التاجر وقد تمدد ناحية ك
متوسلا : لقد نسيت وعدك . لقد وعدتني بأن تفضى الى بسر !

فقال ك : صدقت .

ومر بنظرة عابرة على لينى التى كانت تتطلع اليه باهتمام ،
ثم أردف : اذن فانصت ، وان أوشك هذا السر على ألا يكون سرا ،
اننى ذاهب الآن الى المحامى لانحيه عن الوكالة عنى !

وصاح التاجر : انه ينحيه !

وففز من الكرسي وجرى رافعا ذراعيه الى اعلى يلف فى
المطبخ ويصيح مرارا : انه ينحى المحامى !

وهمت لينى بالهجوم على ك ، ولكن ك اعترض طريقها
فلصمته لقاء ذلك بقبضتيها . وجرت وراء ك وهى لاتزال مطبقة
يديها ولكن ك كان متقدما مسافة طويلة . فلما نهقت به لينى ،
كان قد دخل حجرة المحامى . وأوشك ك على أن يقفل الباب ،
ولكن لينى منعت ذلك بقدمها ، وامسكت بذراع ك وهمت بجره

.. ولكنك ضغطت على معصمها بشدة حتى اضطرها الى تركه .
وهي تطلق زفرة . ولم تجرؤ ليني على الدخول فى الحجرة فى
الحال ، واغلق لك الباب بالمفتاح .

وقال المحامى فى فراشه : لقد انتظرت مقدمك مدة طويلة .
ووضع ورقة كان يقرأها على ضوء شمعة ، وضعها على منضدة
الليل الصغيرة ، ولبس نظارة راح يحرق بها فى ك .
وقال لك بدلا من أن يعتذر : سأنصرف بعد قليل !

ولم يحفل المحامى بكلمة لك لأنها لم تكن اعتذارا وقال :
- لن ادعك تأتى الى مستقبلا فى هذه الساعة المتأخرة .
فقال لك : وهذا شيء يتفق مع ما نويت عليه .

فنظر اليه المحامى متسائلا ، وقال : اجلس .

فقال لك : سأجلس لأن هذه رغبتك !

وشد كرسيها ناحية منضدة الليل الصغيرة وجلس . وقال
المحامى : لقد بدا لى كأنك أغلقت الباب بالمفتاح .

فقال لك : نعم ، بسبب ليني . لم يكن لك ينوى أن يملىء كائنا
من كان . ولكن المحامى سأل : هل عادت الى الحاحها ؟

فسأل لك : الحاحها ؟ .

فقال المحامى : نعم .

وضحك ، واصابته ازمة سعال ، فلما ولت ، عاد الى الضحك
ثم سأل : لاشك أنك لاحظت الحاحها ؟

وربت على يدك التى كان لك قد اسندها وهو مشيت الفكر
الى منضدة الليل الصغيرة ، وسحبها الآن بسرعة . فلما صمت لك

– يبدو أنك لا تعقد على هذا أهمية كبيرة ، وهذا خير ،
والأربابا كان على أن اعتذر لك . وتلك صفة غريبة في ليني ،
غفرتها لها منذ زمن طويل ، وما كنت أتحدث فيها لولا أنك أغلقت
الباب الآن بالفتاح . وأنت أبعد الناس عن أن يكون على أن أشرح
لك هذه الصفة الغريبة ، ولكنك تنظر الى مضطربا ، ولهذا فأنا
أشرحها لك . . هذه الصفة تتلخص في أن ليني تجد أن غالبية
المتهمين من ذوى الحسن والجمال . فهي تتعلق بالجميع وتحب
الجميع ويبدو أن الجميع يحبونها ، وهي أحيانا ، عندما أسمع
لها تقصص على أنباء ذلك لتروح عني . وأنا لا أدهش من الموضوع
كله دهشة كالتى تبدو عليك الآن . والحق أن الإنسان إذا كان
يحسن الإبصار بذلك يجد للمتهم فعلا جمالا في أغلب الأحيان .
وهذه ظاهرة عجيبة الشأن ، يمكن القول بأنها الى حد ما من
ظواهر العلوم الطبيعية . وليس معنى هذا أن تغيرا معينا واضحا
دقيقا يطرا على الشكل نتيجة الاتهام . فليس الاتهام هنا كالاتهام
في حالة القضايا العادية ، إذ أن أغلب المتهمين يظلون في معيشتهم
العادية ولا تعرفهم القضية ، إذا كانوا يعتمدون على محام جيد
يهمهم بذلك . ومع ذلك ، فمن كانت له خبرة ، تمكن من التعرف
على المتهمين واحدا واحدا حتى ولو كانوا وسط حشد ضخم من
الناس . وقد تسأل : كيف ؟ ولكن أجابني لن ترضيك . .
السبب هو أن المتهمين هم أجمل الناس جميعا ! ولا يمكن أن
يكون الذنب هو الذى يضاف على الخلقة جمالا ، لأن المتهمين –
وهنا أتكلم على الأقل بصفتي محامى – ليسوا جميعا مذنبين ،
كذلك لا يمكن أن يكون العقاب هو الذى يضاف على الخلقة جمالا
من قبل أن يحل ، لأن المتهمين لن ينالوا العقاب جميعا ، ولابد
أن يكون السبب هو القضية القائمة ضدهم والتى تكون لاصقة
بهم على نحو ما . ثم ان هناك بين أصحاب الجمال من يتصفون

بجمال من نوع خاص . ولكنهم جميعا يمتازون بالجمال حتى
هذه الدودة البائسة التى اسمها بلوك !

فلما فرغ المحامى ، كان ك متعالكا نفسه تماما ، بل انه اوما
براسه عندما قال المحامى كلماته الأخيرة ، وتأكد من رايه القديم
فى المحامى ، ذلك الراى الذى يتلخص فى ان المحامى يلجأ دائما
- وفى هذه المرة . فعل الشيء نفسه - الى الاستطراد . فى احاديث
عامة لا علاقة لها بالموضوع ، لى يلهيه عن المسألة الرئيسية ،
وهى تقرير ما قد فعله من عمل حقيقى فى القضية . ولقد لاحظ
المحامى ان ك يقاومه هذه المرة مقاومة أكثر شدة ، لانه لاذ
بالصمت ، كان يعطى ك امكانية الكلام . فلما ظل ك صامتا ،
سأله : لقد اتيت الى اليوم بنية معينة ؟ .

فقال ك : نعم .

وحجز بيده ضوء الشمعة عن عينيه قليلا حتى يرى المحامى
على نحو أفضل ثم أردف : عقدت العزم على ان اقول لك اننى
انحيك منذ اليوم عن الوكالة عنى .

فقال المحامى : هل صحيح ما فهمته ؟ .

ونهض قليلا فى فراشه وسند يده على المخدة . فقال ك
الذى كان يجلس معتدلا وكأنه يتربص : اظن ذلك !

وقال المحامى بعد هنيهة : يمكننا ان نناقش هذه الحطة أيضا .

فقال ك : انها لم تعد الآن حطة .

فقال المحامى : ربما ، ونحن ومع ذلك لا نريد ان نسرف فى
التعجل .

استعمل الحامى الضمير « نحن » كأنما كان مصمما على ألا يترك له حرا ، أو على أن يظل على الأقل مستشارا له ، أن لم يكن له يقبله وكيلا عنه . وقال له : ليس هناك تعجل .

ثم نهض ووقف وراء كرسيه الوثير ، واردف : ما قلته لك جاء بعد تفكير طيب ، بل وربما بعد تفكير طويل مسرف فى الطول وقرار نهائى .

فقال الحامى : اذن فاسمح لى بكلمتين .

وأبعد عنه اللحاف وقعد على حافة السرير . كانت ساقاه العاريتان المكسوتان بشعر أبيض ترتعدان من البرد . وربما أن يحمل اليه من الأريكة بطانية . إتحملها ك اليه وقال له :
- انك تعرض نفسك بدون داع للاصابة بالبرد .

فقال الحامى بينما راح يلف نصف جسمه الأعلى فى اللحاف ويلف ساقيه فى البطانية :

- بل، هناك داع مهم . عمك صديقى ، وانت أيضا حزت بمضى الوقت على حبى . هذا شيء أعترف لك به بكل صراحة ، ولا أجد فيه ما يدعو الى الخجل .

لم يرحب له قط بهذا الكلام المؤثر الذى قاله الرجل الشيخ لانه اضطره الى تفسير مفصل كان يفضل أن يتحاشاه ، ثم أن هذا الكلام أصابه بالحيرة ، كما قرر بصراحة ، وأن ظل بعيدا عن أن يجعله يتراجع لى قراره بحال من الأحوال . وقال :

- اشكرك على فكري الودى ، واعترف لك بأنك اهتممت جدا بقضيتى على قدر امكانك وعلى قدر ما لاح لك انه لى صالحى .
أما أنا فقد اقتنمت فى المدة الأخيرة بأن هذا لا يكفى . وأنا لن أحاول بطبيعة الحال أن أقنع رجلا له سنك وخبرتك برأى .
وإذا كنت قد حاولت أحيانا شيئا من هذا عن غير قصد فأرجو

ان تسامحني ، ولكن القضية ، كما قلت أنت نفسك ، من الأهمية
بمكان ، وأنا أرى عن اقتناع أنه من الضروري أن يحدث في
القضية شيء أقوى مما حدث .

فقال المحامي : أنا أفهم وضعك ، أنت فارغ الصبر !

فقال له وقد أصابه شيء من الاستفزاز ولم يعد يلتفت
كثيراً الى كلامه :

— لقد لاحظت عندما زيارتي الأولى عندما أتيت
إليك مع عمي ، أنني لم أكن مهتماً كثيراً بالقضية ، وأنني كنت
اتناساها تماماً ، إلا اذا ذكرني أحدهم بها على نحو شديد نوعاً ما
ولكن عمي أصر على أن أوكلك في القضية ، ففعلت أريضاء له .
وكنت أتوقع أن تخف القضية عني أكثر مما كانت ، فالإنسان
إنما يعهد بالوكالة الى محام ، حتى يزحرج عن نفسه ثقل القضية
قليلاً . ولكن العكس هو الذي حدث . فلم تركبني هموم عظيمة
بسبب القضية إلا منذ الوقت الذي نهضت فيه بوكالتي . عندما
كنت بمفردي ، لم أكن أقوم بفعل شيء في القضية ، ولكني
لم أكن أشعر بذلك ، أما الآن فلي وكيل ، ولقد تهيأ كل شيء لكي
يحدث تدخل في القضية وانتظرت دائماً وبتوتر متزايد أن يحدث
هذا التدخل ، ولكنه لم يحدث . ولقد تلقيت منك معلومات
مختلفة عن المحكمة لا أظن أنني كنت سألتقها من إنسان غيرك .
ولكن هذا لا يكفيني مادامت القضية أصبحت الآن تقترب مني
على نحو يكتنفها فيه السر المطبق .

كان له قد دفع الكرسي الوثير الذي كان أمامه ووقف واضعاً
يديه في جيبه معتدلاً القامة . وقال المحامي بصوت منخفض
هاديء :

— هناك لحظة معينة لا يحدث فيها ولا بعدها شيء جديد

بمعنى الكلمة . ولكم وقف الكثيرون من أصحاب القضايا وهى فى مراحل شبيهة بالمرحلة التى فيها قضيتك ، وقفة شبيهة بوقفك امامى وتكلموا كلاما شبيها بكلامك !

نقال ك : اذن فأصحاب القضايا هؤلاء كانوا جميعا على حق مثلى ! وكلامك هذا لا ينقض شيئا مما قلته لك !

فقال المحامى : لم اقصد الى نقض كلامك . وليسكنى اردت ان اضيف اننى كنت انتظر منك من حسن التقدير اكثر مما كنت انتظر من الآخرين ، خاصة واننى اطلعتك على كثير من أمرا المحكمة ومن امر نشاطى ، لم اطلع عليه أصحاب القضايا الآخرين . . . وهانذا اتبين أنك مع ذلك لا تولينى قدرا كافيا من الثقة . أنك لا تسهل على مهمتى .

ما أكثر تذلل المحامى أمام ك ! لا اعتبار مطلقا لشرف الطبقة وهو فى هذه الناحية على اشد ما يكون حساسية ! ولماذا فعل المحامى هذا ؟ لقد كان على ما يبدو محاميا مثقلا بالعمل . وكان علاوة على ذلك رجلا ثريا ، ولم يكن من الممكن ان يكون شديد الاهتمام لضياع مكسب أو لفقدان عميل ؟! ثم انه كان معنسل الصحة ولا بد انه كان يود لو يخفف عنه العمل . ومع ذلك فانه يتمسك بـ ك . لماذا ؟ هل السبب هو ارتباط شخصى بالعم ؟ ام هل السبب هو انه يعتبر قضية ك بالفعل قضية غير عادية ويرجو ان يصيب فيها امتياز ، اما أمام ك واما - وهذا احتمال لا ينبغي استبعاده بحال من الاحوال - أمام اصدقائه فى المحكمة ؟ لم يكن السبب يبدو على وجه المحامى ، على الرغم من أن ك أجهد نفسه فى الحملة فيه دون اعتبار لشيء . كان من ينظر اليه يوشك ان يقول انه ينتظر ، بوجه تعمد الخمود ، الاثر الذى ستحدثه كلماته . والظاهر انه اسرف فى اعتبار صمت ك شيئا فى صالحه لانه أردف يقول :

- وأملك قد لاحظت ان لى مكتبنا كبيرا ، وائى
 مع ذلك لا استعين بمن يعينى . وهذه حال كانت فيما مضى
 مختلفة ، فقد جاء على وقت ، كان بعض شباب القانونيين يعملون
 فيه عندي ، اما الآن فاننا نعمل بمفردي . ويرتبط هذا الى حد ما
 بتغيير نشاطى واتجاهى المتزايد الى الاقتصاد على القضايا التى
 من نوع قضيتك ، ويرتبط هذا من ناحية أخرى بالدرس الذى
 اتعلمه من هذه القضايا والذى يزداد على الدوام عمقا . وقد
 تبينت أنه لا ينبغي لى ان اركن فى هذه الأعمال الى كائن من كان
 الا اذا كنت أريد أن ارتكب اثما فى حق عميلى وفى حق المهمة
 التى حملها . والقرار الذى اتخذته بالنهوض بالعمل كله كان له
 نتائج طبيعية : فقد رفضت كل طلبات توكيلى كلها تقريبا ولم
 اقبل الا الحالات التى تهمنى بشكل خاص - وهناك من اصناف
 المحامين كثيرون ، حتى هنا على مقربة منا ، يرتمون على كل فتات
 أقذف به . كذلك كان من بين هذه النتائج اننى مرضت من فرط
 المجهود . ولكنى مع ذلك لا أندم على قرارى ، وربما كان ينبغي
 على أن أرفض من التوكيلات أكثر مما فعلت . أما اهتمامى التام
 بالقضايا التى قبلتها فشىء تبين أنه ضرورى ضرورة لا حد لها ،
 والكل بالنجاح تلو النجاح . ولقد وجدت ذات مرة عبارة جميلة
 فى نص من النصوص تصور الفرق بين الوكالة فى القضايا العادية
 والوكالة فى هذا اللون من القضايا ، تقول هذه العبارة : هنا
 المحامى يقود عميله الى الحكم مستعينا بخيط ، وهناك المحامى
 يرفع عميله فوق كتفيه على الفور وبحملة دائما فلا ينزله ، الى
 الحكم والى ما بعد الحكم . والامر على هذا النحو فعلا ! ولكنه
 ليس من الصواب تماما أن أقول اننى لم أندم على تحمل هذا
 العمل الشديد بحال من الأحوال . فعندما يتعرض جهدى الكبير
 كما فى حالتك ، الى الإنكار التام ، فانا أوشك على أن أندم عليه .

ونقد ادى كلام المحامى الى فراغ صبرك اكثر مما ادى الى اقناعه . واعتقد أنه يستنتج من لهجة المحامى فى الكلام ، ما سيقوله له ، ان هو لان له وتراجع ، سيعود المحامى الى الحديث عن المنفصات والى الاشارة الى العمل المستمر فى المذكرة والى تحسن مزاج موظفى المحكمة وكذلك الاشارة الى الصعوبات الكبيرة التى تعترض العمل - باختصار سيعود الى تكرار ما عرفه لك ونفر منه ، بقصد خداعه بآمال غير محددة وتعذيبه بتهديدات غير معينة . وهذا شيء ينبغى منعه نهائيا ، ولذلك قل :
- ماذا تنوى أن تفعل اذا احتفظت بالوكالة فى القضية ؟

وانصاع المحامى لهذا السؤال المهيمن ، واجاب :

- انوى على أن استمر فيما بدأت به وفعلته من أجلك .

فقال لك : هذا ما كنت اعلمه ، ولا داعى لمزيد من الكلام !

وقال المحامى : سأقوم بمحاولة أخرى !

وكانت لهجته توحى بأن ما اثار لك ، قد حدث له هو ، لا لك ، واردف يقول :

- يخيل الى أن الذى أغراك بالحكم الخاطيء على مساعدتى القانونية لك بل والحكم الخاطيء على حالتك بصفة عامة ، هو أنك ، على الرغم من أنك متهم ، تلقى المعاملة الطبية المرسفة فى الطبية او بعبارة اصح تلقى معاملة متهاونة ، او يبدو عليها انها متهاونة . ولكن هذه المعاملة لها سببها ، فانه من الأفضل فى كثير من الاحيان أن يكون الانسان مكبلا بالأغلال على أن يكون طليقا . ولكنى أريد أن اريك كيف يعامل متهمون آخرون ، فربما تمكنت من أن تتخذ منها عظة .. وسأطلب الآن بلوك للحضور الى .. افتح الباب واجلس بجانب منضدة الليل الصغيرة !

فقال له : حبا وكرامة !

وفعل ما طلبه المحامي ، لأنه كان دائما مستعدا ليتعلم ..
ولكنه اراد على أية حال أن يتأكد فعاد يسأل المحامي :

- ولكنك قد أحطت علما ، بأنني نحييتك عن الوكالة عني ؟

فقال المحامي : نعم . ولكن في استطاعتك اليوم أن ترجع
في ذلك .

وعاد المحامي الى الرقود في السرير ، وسحب اللحاف حتى
بلغ ذقنه ثم أدار وجهه الى ناحية الحائط . وهنا دق الجرس .
وفي الوقت نفسه ظهرت ليني ، وحاولت بنظرات سريعة أن
تعلم ما حدث . ولاح لها جلوس ك هادنا عند سرير المحامي مدعاة
للطمئنان . وأومات برأسها الى ك مبتسمة ، وظل هو يحرق
فيها جامدا .

وقال المحامي : هاتي بلوك !

ولكنها بدلا من أن تحضر بلوك ، ذهبت الى الباب ونادت :
- يا بلوك . تعال الى المحامي !

وتسللت وراء كرسي ك ، ربما لأن المحامي كان ملتفتا الى
الحائط لا يهتم بشيء .

وراحت ليني تضابق ك فمالت على مسند الكرسي ودست
يديها ، برفق شديد وحذر ، في شعره ، وداعبت بهما خديه .
وأخيرا حاول ك أن يعوقها عن ذلك فأمسك يدها ، فقاومت بعض
الوقت ، ثم تركتها له .

كان بلوك قد اتى على الفور بعد سماعه النداء ، ولكنه بقي
إمام الباب وبدأ عليه أنه كان يفكر هل يدخل ؟ وراقع حاجبيه الى
أعلى ومال برأسه الى أسفل ، كأنه كان ينصت عل الأمر
بالحضور الى المحامي أن يتكرر ! وأوشك ك على أن يحثه على

الدخول ، ولكنه كان قد قرر أن يقطع صلته لا بالمحامي فحسب ، بل وبكل ما فى المسكن هنا نهائيا ، ولذلك ظل ساكنا لا يتحرك . وكذلك لزمتم لبنى الصمت .

ولاحظ بلوك على الأقل أن أحدا لم يطرده ، فدخل على أطراف أصابعه ، متوتر الوجه ، عاقدا يديه متقلصتين على ظهره . وترك الباب مفتوحا ليخرج منه اذا دعت الضرورة . ولم ينظر بلوك الى ك ، بل ركز بصره على اللحاف العالى الذى توارى المحامى تحته تماما ، خاصة . وانه تحرك الى الحائط لفأوشك أن يلتصق به . ثم ارتفع صوته سائلا :

— هل بلوك هنا ؟

وقد سدّد هذا السؤال الى بلوك ، الذى كان قد تأخر مسافة كبيرة ، ضربة أصابته فى صدره ، ثم ضربة أصابته فى ظهره لانه ترنح ثم اعتدل وركع ركوعا ذليلا وقال :

— خدامك !

فقال المحامى : ماذا تريد ؟ انك تأتى فى وقت غير مناسب . وسأل بلوك موجها السؤال الى نفسه اكثر منه الى المحامى ، ومد ذراعيه الى امام للدفاع عن نفسه ، وتاهب للجري : الم اتادى ؟ .

فقال المحامى : نعم ، لقد نوديت ، ولكنك مع ذلك لم تأت فى وقت غير مناسب !

وسكت فترة ثم أضاف : انك دائما تأتى فى وقت غير مناسب .

ومنذ بدا المحامى يتكلم ، لم يعد بلوك ينظر الى السرير ، بل راح يحلق فى مكان ما بركن ، واكتفى بالاستماع ، وكأنما كان منظر المتكلم يخطف البصر فلا قدرة له على احتياله . حتى

الاستماع كان صعبا ، لأن المحامي كان يتكلم الى الحائط بصوت منخفض وبسرعة .

وسأل بلوك : هل تريدون سيادتكم أن أنصرف ؟

فقال المحامي : لقد أتيت ! فابق ! .

ولو أطل انسان على المنظر لظن أن المحامي لم يحقق رغبة بلوك ، واطن أنه كان يهدده ربما بالضرب المبرح ، لأن بلوك بدا برتعد فعلا .

وقال المحامي : لقد كنت بالأمس عند القاضي الثالث ، صديقي ، وحولت الحديث تدريجيا اليك . أتريد أن تعرف ما قاله ؟

فقال بلوك : نعم ، أرجوك !

فلما لم يجب المحامي على الفسور ، أعاد بلوك الرجاء مرة أخرى ، وانحنى أكثر حتى أوشك أن يسجد .

وهنا صرخ فيه ك : ماذا تفعل ؟ .

ولما حاولت لينى أن تحول بينه وبين الصباح ، أمسك يدها الثانية . وضغط عليها ضغطا ليس هو ضغط الحب ، فراح تآوه مرارا وتحاول أن تسحب منه يديها .

وتلقى بلوك عقابا على صبيحة ك ، أفقد سأل المحامي : من محاميك ؟

فقال بلوك : أنتم .

فسأل المحامي : ومن غيري ؟

فقال بلوك : لا أحد غيركم .

فقال المحامي : اذا كان الأمر كذلك ، فلا تتبع آخر غيري !

وفهم بلوك كلام المحامى تماما ، ونظر الى ك نظرات غاضبة
وهز راسه حياله هذا عنيفا . ولو اراد الانسان أن يترجم حركات
بلوك الى كلام ، لكان هذا الكلام شتائم قبيحة ! هذا هو الرجل
الذى اراد ك أن يتباحث معه فى قضيته الخاصة يتباحث
الاصدقاء !

وقال ك وقد رجع بظهره الى ظهر الكرسى : لن اقلقك بعد
الآن ! اسجد أو سر على أربع ، أو افعل ما تريد ! قلن أعيا بهذا
بتانا !

ولكن بلوك كان يعتد بكرامته ، على الأقل حيال ك ، لأنه ذهب
اليه ملوحا بقبضتيه وصاح بأعلى صوت تجرا عليه قرب المحامى :

— ليس لك أن تتكلم معى على هذا النحو ! ليس هذا مسموحا
به ! لماذا تهيننى ؟ وتفعل ذلك هنا امام السيد المحامى ، الذى
لا يتحملنا ، أنت وأنا ، الا على أساس الشفقة فقط ؟ أنت لست
انسانا افضل منى ، فأنت متهم مثلى وأنت لك قضية مثلما لى
قضية . فإذا كنت برغم ذلك سيدا ، فأنا كذلك سيد مثلك ،
ان لم أكن اكبر واعظم . وأنا أريد أن يخاطبني من يخاطبني
— وبخاصة أنت — على هذا الاعتبار . أما اذا كنت تعتبر نفسك
ممتازا ، لأنه سمح لك بأن تجلس هنا وتنصت ساكنا بينما أنا،
كما تقول ، أسير على أربع ، فإننا اذكرك بالحكمة القانونية القديمة :
الحركة خير للمتهم من السكون ، لأن من يلزم السكون قد يكون،
دون علم منه ، جالسا فى كفة ميزان وضعت فى كفته الأخرى
ذنوبه ! .

لم يقل ك شيئا ، بل راح يتعجب من هذا الانسان المضطرب
وينظر اليه بعينين ثابتتين . ما أعجب التغيرات التى طرات عليه
فى الساعة الأخيرة فقط ! هل كانت القضية هى التى ترميه هنا

وهناك وتعميه عن رؤية الصديق ورؤية العدو اين كل منهما ؟ الم ير ان المحامي كان يعتمد اذلاله ، لا لسبب فى هذه المرة ، الا ليزهو امامك بسطوته ، وليصل بهذا ربما الى اخضاعك ؟ فاذا كان بلوك عاجزا عن أن يتبين هذا أو اذا كان يخاف المحامي الى هذا الحد الشديد الذى لا تغيد فيه هذه المعرفة التى يتبينها ، فكيف أمكنه أن يكون من اللخبث أو الجراءة بحيث غش المحامي وكنم عنه انه يوكل عنه محامين آخرين غيره ؟! وكيف تجسراً على أن يهاجمك وفى استطاعةك أن يكشف هذا السر على الفور ؟ بل انه تجسراً على أكثر من هذا ، فقد اقترب من إفراش المحامي وبدأ هناك يشكو منك :

— يا سيادة المحامي ! هل سمعتم كيف تكلم هذا الرجل معى ؟ ان الانسان ليستطيع أن يعد ساعات عمر قضيته ، وهو مع ذلك يريد أن يعظمنى أنا ، انا الذى اقف فى القضية منذ خمسة أعوام ! بل انه يشتمنى ! انه لا يعرف شيئاً ، وانه يشتمنى أنا ، انا الذى تعلمت بمنتهى الدقة التى سمحت لى بها قواى الواهنة متطلبات اللياقة والواجب وتقاليد المحكمة ! .

فقال المحامي : لا تهتم بأحد ، وافعل ما يبدو لك صواباً ! .

إفقال بلوك : بكل تأكيد .

وكانه كان يريد أن يمنح نفسه الشجاعة ، ثم سجد قرب السرير ، عندما نظر المحامي اليه نظرة جانبية قصيرة . وقال :

— هانذا قد سجدت يا محامى ! .

ولكن المحامى لاذ بالصمت . ومسح بلوك فى حذر على لحاف المحامى باحدى يديه .

وقالت ليني ، فى هذا السكون الذى خيم على المكان ، بينما
تخلصت من يدك :

— انك تؤلمنى ! دعنى ! ساذهب الى بلوك ! .

وذهب الى السرير وجلست على حافته . وقرح بلوك بقدمها
اليه فرحا شديدا ، وتوسل اليها بإشارات صامتة ولكنها ملحة ،
ان تتدخل لصالحه لدى المحامى ، والظاهر أنه كان فى ميسر الحاجة
الى مالى المحامى من أخبار ، ولعل الهدف من ذلك أنه كان يريد
أن يجعل محاميه الآخرين يستقلونها ، والظاهر أن ليني كانت تعلم
طريقة استعطاف المحامى ، فقد أشارت الى يد المحامى ومدت شفتيها
تصويرا للقبلة ، وطبع بلوك فى الحال قبلة على يد المحامى ثم كررها ،
بناء على توجيه ليني مرتين أخريين ، ولكن المحامى ظل غارقا فى
الصمت ، فانحت ليني على المحامى ، وبدأ جمال جسمها واضحا
للعيون عند ما تمددت على هذا النحو ، ومسحت على شعره الأبيض
الطويل ، وهى منعطفة قريبة من وجهه . وبهذا اضطرت الى
الاجابة .

وقال المحامى : انا متردد فى الحديث اليه بما علمت .

ورأى الناظر اليه كيف أخذ يهز رأسه برفق ، ربما ليزيد من
التمتع بضغط يد ليني . وأنصت بلوك مطأطأ الرأس وكأنه بهذا
الانصات يتعدى حدود الحلال . وسالت ليني :

— وما السبب فى ترددك ؟

واعتقدك انه يسمع حوارا تمثيليا تدرب عليه مثلان وحفظاه ،
وأصبحا يكررانه كثيرا ، ولم يكن فيه من جديد الا فى نظر بلوك
وحده . وبدلا من أن يجيب المحامى عاد بسأل :

— كيف كان مسلكه اليوم ؟

وقبل أن ترد ليني على السؤال بشيء ، نظرت الى بلوك وتأملته

هنيئة وهو يرفع يديه اليها ويلصقهما الواحدة بالأخرى على سبيل التوسل . وأخيرا أومأت برأسها جادة واتجهت الى المحامي .

وقالت : لقد كان هادئا مجدا !

تاجر شيخ ، رجل له حيلة طويلة يتوسل الى بنت صغيرة أن تشهد له شهادة في صالحة ؟ ربما كانت له أسبابه الخفية ، ولكن لم يكن هناك شيء يبرر له موقفه في أعين الناس الآخرين . ولم يتصور ك كيف أمكن أن يفكر المحامي في أن هذا المنظر من شأنه أن يجعله يكسب ك اليه . لو أنه كان قد طرد ك من قبل مرة لكان من الممكن أن يصل الى غرضه بهذا المشهد . لقد كان بهذا يوشك على أن يمتن المشاهد ذاته . هكذا كانت آخره طريقة المحامي التي لم يتعرض لها ك طويلا لحسن الحظ ! كانت آخرتها أن ينسى العميل الدنيا كلها ويتمنى أن يزحف على طريق الضلال هذه الى نهاية القضية . لم يعد العميل عميلا للمحامي ، بل أصبح كلبا له ! ولو أن المحامي أمره بأن يزحف تحت السرير ، كما يزحف الكلب الى بيته ، وينبح من هناك ، لفعل وهو فرحان ! وكأنما كان مكلفا بأن يسجل في نفسه بدقة كل ما يقال هنا ، ويرفع تقريراً عنه الى هيئة عليا ، فقد كان يسمع بشمع وتدبر .

وسأل المحامي : ماذا فعل طول اليوم ؟

ف قالت ليني : لقد حبسته في حجرة الحسامة التي يقيم فيها عادة ، حتى لا يعطلني عن عملي . وكنت من حين لآخر أنظر اليه من الطاقة وأرى ماذا كان يفعل . كان يسجد على السرير ، وقد بسط الأوراق التي أعرفته اياها على رف الشباك ويقرأ فيها . وقد أحدث هذا انطبعا طيبا في نفسي . فالشباك ناحية المتور ولا يكاد يعطى ضوءا . ولقد تبينت من قيام بلوك رغم ذلك بالقراءة ، تبينت الى أي حد هو مطيع .

وقال المحامي : يسرني أن اسمع هذا ! وهل قرأ بفهم ؟

كان بلوك أثناء هذا الحديث يحرك شفثيه بلا انقطاع ، وكأنه كان يمثل الاجابات التي كان يرجو أن تقولها ليني .

وقالت ليني : لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال . اجابة محددة . ولكنني على أية حال رأيته يقرأ بتدقيق . فقد ظل اليوم بطولة يقرأ الصفحة ذاتها ويحرك أثناء القراءة اصبعه على السطور . وكنت كلما نظرت اليه وجدته يش كأنما كانت القراءة تتطلب منه مجهودا شاقا . والظاهر أن الأوراق التي أعطيته اياها صعبة الفهمة !

فقال المحامي : نعم ! انها صعبة ! ولست اعتقد انه يفهم منها شيئا . ولكن يكفي أن تعطيه فكرة عن الصراع الشاق الذي أقوم به من أجل الدفاع عنه . ومن أجل من أقوم بهذا الصراع الشاق ؟ من أجل - من المضحك تقريبا أن انطق بالاسم - من أجل بلوك ! وكذلك ينبغي عليه أن يتعلم أن يفهم معنى هذا أيضا ! هل درس بدون انقطاع ؟

واجابت ليني : بدون انقطاع تقريبا . توقف مرة واحدة ليرجوني أن اقدم اليه ماء ليشرب . فقدمت اليه كوب ماء من خلال الطاقة . وفي الساعة الثامنة أخرجه وأعطيته شيئا يأكله .

وعبر بلوك على ك بنظرة جانبية ، وكأنما كانت ليني تحكي عنه هنا كلاما فيه فخار ينبغي أن يؤثر في ك على النحو نفسه . وبدا على بلوك أنه كان الآن يؤمل خيرا ، فقد كان يتحرك بحرية أكثر ويتزحزح على ركبتيه هنا وهناك . وقد زاد هذا من وضوح تجملده عندما نطق المحامي بالكلمات التالية :

- انك تمدحينه ! وهذا من شأنه أن يصعب علي الكلام ! فلم يتكلم القاضي لا عنه ولا عن قضيته بالخير !

وسألت ليني : لم يتكلم بالخير ؟ وكيف يمكن هذا ؟
ونظر بلوك الى ليني متلهفا ، وكأنه كان يعتقد أن لها القدرة على
تحويل الكلمات التي تنطق بها المحامي وانتهى الى صالحة .

فقال المحامي : لم يتكلم بالخير . بل انه امتنع عندما بدأت
أتحدث عن بلوك . وقال لي : لا تتحدث عن بلوك .

فقلت له : انه عميل .

فقال لي : انك تترك الناس يستغلونك .

فقلت له : انني لا أعتبر قضيته خسارة . فكرر عبارته : انك
تترك الناس يستغلونك .

فقلت : لا أظن أن هذا يحدث . وبلوك مجتهد في قضيته متابع
لها . انه يقيم عندي بدون انقطاع تقريبا حتى يلم بأخر الاخبار أولا
بأول . وهذا حماس لا يوجد على الدوام . حقيقة انه شخصيا
إنسان غير لطيف ، وانه قبيح المسلك ، وقذر ولكنه لا غبار عليه من
ناحية القضية . وقد استعملت مع القاضي كلمة لاغبار عليه كمبالغة
مقصودة .

ولكن القاضي قال : ان بلوك خبيث ! فقد جمع خبرات كثيرة
وعرف السبيل الى جرجرة القضية وتعطيلها . ولكن جهله أعظم
بكثير من خبثه . وماذا يقول ، لو علم أن قضيته لم تبدأ بعد ؟! لو
علم أن الأجراس لم تدق بعد مؤذنه ببداية القضية ؟!

وقال المحامي : الزم الهدوء يا بلوك .

قال ذلك لأن بلوك كان قد نهض على ركبتين مهترتين وبدأ عليه كأنه
يريد أن يلتمس توضيحا . كانت تلك هي المرة الأولى التي اتجه
فيها المحامي الى بلوك بكلمات مفصلة . وراح المحامي ينظر بعينين

ضعيفتين تارة الى غير هدف وتارة الى بلوك الذى هوى ببطء الى سجوده الاول .

وقال المحامى : ليس لكلام القاضى أهمية بالنسبة لك . فلا تفرح عند كل كلمة . واذا عدت الى ذلك فلن أكشف لك عن أسرار أخرى ! ان الانسان لا يستطيع أن يبدأ فى جملة ، دون أن تنظر اليه وكأن الحكم النهائي يوشك على الصدور ! اخجل من فعل هذا أمام عميلى ! ثم انك ترزعزع الثقة التى يضعها فى ! ماذا تريد ؟ انك لا تزال على قيد الحياة ، وانك لا تزال فى حماى ! ان خوفك لا معنى له ! لقد فرات فى موضوع ما ان الحكم النهائي قد يصدر فى بعض الأحوال فجأة من أى فم وفى أى وقت . وهذا مع تحفظات كثيرة ، صحيح ، صحيح كذلك ان خوفك يقرفنى وأنى أرى فيه تعبيراً عن قلة ثقتك فى . ماذا قلت ؟ لقد أعدت عليك كلمات أحد القضاة . وانت تعلم ان الآراء المختلفة تتراكم حول القضية الى درجة التكدر . وهذا القاضى على سبيل المثال يتصور لبداية القضية وقتاً آخر غير الذى أتصوره أنا . وهناك عادة قديمة بأن يدق جرس عندما تصل القضية الى مرحلة معينة ، وهذا القاضى يعتقد أن دق الجرس هذا يعنى بداية القضية ، وأنا لا أستطيع الآن أن أقول لك على كل ما ينقض هذا الراى ، ولو أننى قلته فلن تفهمه ، وبكيف ان أقول لك ، ان هناك أشياء كثيرة تنقض هذا الراى !

وتلك بلوك الاضطراب ، وأخذ يداعب بأصابعه الفراء المفروش أمام السرير . وأنساه خوفه من كلام القاضى أحياناً خضوعه للدليل أمام المحامى ، وأصبح لا يفكر الا فى نفسه ، ويقلب كلمات القاضى على الأوجه كلها .

وقالت له لى بلهجة منبذرة وهى تجذبه من ياقته الى أعلى قليلاً : اترك الفراء الآن وأنصت الى المحامى !

ملاحظة : لم يكمل كافكا هذا الفصل الى نهايته .

الفصل التاسع

• في الكنيسة

تلقى ك تكليفا من البنك بأن يصطحب صديقا إيطاليا للبنك من رجال الأعمال ليريه بعض الآثار الفنية ، فهو رجل مهم جدا بالبنك ، وهو ينزل في هذه المدينة لأول مرة . كان هذا التكليف لمو تلقاه ك في وقت آخر ، يعتبر بلا شك تشريفا له ، ولكنه كان الآن ثقيلا عليه ، فلم يقبله الا على مضض ، لانه كان لا يحفظ مركزه في البنك الا بشق الأنفس . وكانت كل ساعة بعيد فيها ك عن المكتب تسبب له الحزن والغم . حقيقة انه له يكن يستطيع بحال من الأحوال ان يفيد من وقت العمل كما كان يفعل من قبل ، وكم ضيع الساعات متظاهرا بتأدية عمل فعلى ضرورى ، وما كانت شدة احزانه عندما لا يكون في المكتب . كان في هذه الحالة يعتقد انه يرى نائب المدير ، الذي كان يتربص دائما به ، وهو يدخل من حين لآخر حجراته ويجلس الى مكتبه ، ويفتش في الأوراق ، ويستقبل عملاء يرتبط ك بهم منذ سنين بصلة توشك ان تكون الصداقة ، اقيحرضهم على ك ، ويكتشف ربما أخطاء ، كان ك يراها الآن اثناء العمل تهدده من الف ناحية ، ولا يقدر على تجنبها .

ولهذا كان اذا كلف بمأمورية أو برحلة قصيرة - وقد كثرت في الفترة الأخيرة نتيجة للمصادفة البحتة - افترض

أنهم يبعدونه هنيئة عن المكتب ، ليفحصوا أعماله او على الأقل لأنهم يعتقدون أنه من السهل الاستغناء عنه . ولعله كان يستطيع ان يرفض، غالبية هذه المهمات دون ما صعوبة ، ولكنه لم يكن يجرؤ على هذا ، لانه حتى اذا كان تخوفه يعتمد على سبب هو اوهى سبب ، فان رفضه يعنى اعترافا منه بخوفه . ولهذا فانه كان يقبل هذا المهام التى يكلف بها متظاهرا بعدم التأثر ، بل انه كلف ذات مرة برحلة مجهزة لمدة يومين لقضاء شأن من شؤون البنك ، وكان مصابا ببرد شديد ، إقأخفى أمر ما به ، حتى لا يتعرض لخطر القول بأن جو الخريف المطير ، الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، هو الذى حال بينه وبين الرحلة . ولما عاد من هذه الرحلة كان الصداع العنيف يؤرقه ، وعلم أنه اختير لمرافقة الصديق الإيطالى فى اليوم التالى .

وتملكه اغراء شديد بأن يرفض المهمة فى هذه المرة على الأقل ، فقد كانت المهمة التى كلف بها غير متصلة مباشرة بعمله ، وان كان القيام بها جبال صديق يعلم أنه لا يمكن أن يبقى على نفسه فى البنك الا بتحقيق النجاح تلو النجاح فى عمله ، وانه اذا لم يوفق فى ذلك ، اقلن تنفعه مصاحبته لهذا الإيطالى الذى حل فجأة ، ولا حتى ارضاء بما

يخلب لبه . لم يكن ك يريد أن يرحزه أحد من مجال عمله ولا
ليوم واحد ، فقد كان خوفه من أن يحال بينه وبين العودة اليه ،
كبيرا جدا ، مؤرقا جدا ، على الرغم من أنه كان يعرف تماما أن
هذا الخوف مبالغ فيه .

ولكنه في هذه المرة عجز كل العجز عن أن يجد حجة
مقبولة يتذرع بها في الرفض . حقيقة أن معلوماته في
اللغة الإيطالية لم تكن واسعة جدا ، ولكنها كانت كافية . أما
العنصر الحاسم في اختياره للمهمة فكان يتلخص في أن ك كان
قد ألم منذ وقت مبكر بمعلومات في تاريخ الفنون ، شاع خبرها
في البنك على نحو مبالغ فيه الى أقصى حد ، نظرا لأن ك ظل
مدة طويلة من الزمن ، ولأسباب خاصة بعمله في البنك لا غير ،
عضوا في جمعية المحافظة على الآثار الفنية في المدينة . وتصادف
أن كان الزائر الإيطالي ، كما روجت الإشاعات عنه ، من محبي
الفنون ، مما جعل اختيار ك لهذه المهمة ، أمرا بديهيا .

كان الصباح كثير المطر شديد العواصف ، عندما دخل ك في
مكتبة في الساعة السابعة مبكرا ، ساخطا على اليوم الذي ينتظره ،
يريد على الأقل أن ينجر شيئا من العمل ، قبل أن تنتزه الزيارة
من كل شيء انتزاعا . كان ك متعبا جدا ، لأنه كان قد أمضى الليل
الى نصفه في دراسة قواعد اللغة الإيطالية ، حتى يستمد قليلا
للمهمة . كانت النافذة التي اعتاد في الفترة الأخيرة أن يكسر
من الجلوس عندها ، تجتذبه أشد مما يجتذبه المكتب ، ولكنه
قاوم وجلس الى العمل . ولكن الخادم ما لبث أن دخل عليه
للأسف ، وأخبره أن السيد المدير أرسله ليرى ما اذا كان السيد
الوكيل قد حضر ، وأن يرجوه ، أن كان قد حضر ، أن يتكرم
بالذهاب الى حجرة الاستقبال ، فالضيف الإيطالي جالس بها ..
وقال ك : ساذهب حالا .

ودس قاموساً صغيراً في جيبه ووضع تحت ابطة البومبا يضم صوراً لمعالم المدينة كان قد أعدّه للضيف واجتاز حجرة نائب المدير الى حجرة المدير . كان له سعيداً لأنه أتى الى المكتب مبكراً ولأنه وضع نفسه في الحال في الخدمة التي طلبت منه ، وهذا شيء لا يمكن أن يكون هنالك من توقعه توقعاً جاداً . كان مكتب نائب المدير خالياً بالطبع كحاله في الليل الدامس ، والظاهر أن الخادم كان مكثفاً بدعوة نائب المدير أيضاً الى حجرة الاستقبال ، فلم يوفق الى ذلك .

وما أن دخل حجرة الاستقبال حتى نهض رجلاً من كرسيين وثريين عميقين . وابتسم المدير ابتسامة ودية ، والظاهر أنه كان مشروراً لحضوره ، وأجرى المدير في الحال التعارف بين الاثنين ، وصافح الإيطالي له بحرارة وقال وهو يتبسم أن شخصاً ما يستيقظ في الفجر . ولم يفهم له على وجه التحديد من المقصود ، خاصة وأن الضيف استعمل كلمة غريبة ، لم يكتشف له معناها بالتخمين إلا بعد برهة . وأجاب له بجملة إيطالية سلسة ، تلقاها الإيطالي بالعودة الى الابتسام ، وراح في أثناء ذلك يداعب بيد عصية شارب الكاث الذي كان لونه بين الأزرق والرمادي . والظاهر أن هذا الشارب كان معطراً ، وكان الواقف يوشك أن يقع في أغراء الاقتراب منه وشمه . فلما جلس الجميع ، وبدأ حديث تمهيدى قصير ، اكتشف له في حيرة ، أنه لم يفهم من الإيطالي إلا كلمات متفرقة . كان الإيطالي إذا تكلم بهدوء تام ، فهمه له فهماً كاملاً تقريباً ، ولم يكن هذا يحدث من قبيل الاستثناء النادر ، فقد كان الكلام ينفجر غالباً من فم الإيطالي نفجراً ، وكان يهز رأسه متمتعاً به . وكان الإيطالي في كلامه يضطرب دائماً في لهجة محلية لم يكن له يجد فيها شيئاً من الإيطالية ، ولكن المدير كان يفهمها بل ويتكلمها ، وهذا شيء كان

ينبغي على ك أن يتوقعه ، لأن ذلك الإيطالي أصله من جنوب إيطاليا من منطقة قضى فيها المدير بضعة أعوام . على أية حال تبين لك أن امكانية التفاهم من الرجل الإيطالي انعدمت الى أكبر حد ، فقد كانت فرنسية الضيف صعبة الفهم كذلك ، وكان شاربه يغطى حركات الشفتين التى ربما لو رآها لك لساعدته على الفهم .

وبدا لك يتوقع الكثير من المنغصات ، وصرف النظر مؤقتا عن محاولة فهم الضيف الإيطالي - وما أشد عبث مثل هذا الجهد فى حضور المدير الذى كان يفهم الرجل بسهولة ويسر ! .. واكتفى بأن حمله فيه مفتاظا ، وراقبه وهو يجلس بخفة وعمق فى كرسية الوثير ، وهو يشد مرات عديدة فى سترته القصيرة التى اقتصت فى حدة ، وهو يرفع ذراعيه ويحرك يديه بخفة فوق المعصمين محاولا تمثيل شيء لم يفهمه لك ، على الرغم من أنه كان منحنيا الى أمام بحملق فى اليدين ولا يبعد عنهما عينيه . وأخيرا بدا على ك ، الذى لم يكن يعمل شيئا ، سوى متابعة الكلام آليا بنظرات آلية تروح وتجدى ، بدا عليه التعب القديم ، واكتشف نفسه مرة مدعورا - لحسن الحظ فى الوقت المناسب - وهو بهم مشئت الفكر بالتهوض ويوشك أن يلتفت الى الناحية الأخرى وينصرف .

وأخيرا نظر الإيطالي الى ساعته وهب واقفا . فلمسا فرغ من توديع المدير اندفع الى ك واقترب منه اقترابا شديدا اضطر معه ك الى أن يدفع الكرسي الوثير الى الخلف حتى يتمكن من الحركة . واسرع المدير ، الذى قرأ فى عيني ك المحنة التى حلت به امام الإيطالي فتدخل فى الحديث تدخلا فيها الفطنة وفيه الرقة ، فتظاهر كأنه يضيف بعض النصائح الطفيفة ، بينما كان فى الواقع يتدخل دون ما ملل فى كلام الإيطالي ويوضح لك مضاوئه كله بإيجاز . وفهم لك أن الإيطالي يريد أولا أن يقضى بعض

الشئون ، وأن وقته قصير جدا ، ولهذا فهو لا يريد أن يرى معالم المدينة كلها على عجل ، بل يريد - بالطبع إذا وافق له ، فالأمر كله في يده - أن يشاهد الكنيسة فقط ، ولكن بتدقيق وتعمق . وقال انه سعيد سعادة كبيرة بزيارة الكنيسة في مصاحبة رجل عالم لطيف . . . وكان المقصود بهذا ك ، الذي كان مشغولا بشيء واحد فقط هو الإنصراف عن كلام الإيطالي والاستماع الى كلام المدير وفهمه بسرعة - وانه يرجوه ، ان وافقه الموعد ، ان يكون في الكنيسة بعد ساعتين ، أى في الساعة العاشرة تقريبا . وأضاف انه شخصا يأمل أن يتمكن من الوصول الى الكنيسة في هذا الموعد . واجاب ك بكلمات مناسبة ، وصافح الإيطالي المدير أولا ثم صافح ك ثم عاد فصافح المدير مرة ثانية ، وذهب الى الباب يتبعه الاثنان وهو لا يلتفت اليهما الا نصف التفاته ، ولا يكف عن الكلام قط .

ثم بقى ك مع المدير برهة ، وكان المدير يبدو في ذلك اليوم متوقعا أكثر من المعتاد . واعتقد المدير انه ينبغي عليه أن يعتذر الى ك على نحو ما فقال - وكانا يقفان أحدهما بجوار الآخر وقفة مفعمة بالود - انه كان في مبدأ الأمر ينوى أن يذهب شخصا مع الإيطالي ، ولكنه قرر - ولم يقدم السبب الذي دفعه الى ذلك - أن الأفضل هو أن يرسل ك . . وقال له انه اذا لم يكن سيفهم الإيطالي في البداية ، فلا ينبغي أن يضطرب كل الاضطراب ، فما أسرع ما يأتى الفهم ، وحتى اذا حدث ولم يفهم من الإيطالي شيئا على الاطلاق ، فلن يكون هذا شيئا قبيحا ، لأن الإيطالي لا يهتم اهتماما كبيرا بأن يفهمه سامعه . وأضاف أن معرفة ك للإيطالية جيدة مذهشة ، وأن ك لاشبك سيحسن التصرف مع الإيطالي وسيؤدي المهمة بكل امتياز . وبهذا انتهى حديثه مع ك .

وامضى ك الوقت الذى بقى له فى البحث عن كلمات نادرة سيحتاج اليها فى جولته مع الضيف بالكنيسة ، وفى تدوينها . ولقد كان هذا العمل عملا شاقا شخيفا الى أقصى حد ، فقد كان الحدم يأتون بالبريد ، والموظفون يأتون باستفسارات مختلفة ، فيقفون بالباب ، عندما يزون ك مشغولا . ولا يتحركون الا بعد ان يستمع ك اليهم . كذلك نائب المدير لم يعدم ان يضايق ك ، فأكثر من الدخول اليه ، وأخذ القاموس من يده ، وقلب أوراقه دون ما هدف . وظهر نفر من أصحاب المصالح فى ضوء الحجرة الامامية الخافت ، عندما كان الباب يفتح ، وكانوا ينحنون فى تردد يريدون أن يلفتوا النظر اليهم دون أن يتأكدوا من أن ك قد رآهم بالفعل .

كان هذا كله يدور حول ك ، وكأنه يدور حول مركزه الطبيعى ، بينما ظل هو عاكفا على تحديد الكلمات التى سيحتاج اليها وعلى البحث عنها حفظها عن ظهر قلب فى آخر الامر . وبدت ذاكرته القوية كأنها له فى هذا الجهد فيدق القاموس فى الأوراق ويشوى ان يكف عن الاستعداد ، ثم كان لا يلبث ان يتبين أنه لن يستطيع ان يروح مع الايطالى ويגיע صامتا أمام الأعمال الفنية فى الكنيسة ، فيعود بفيظ اشد الى استخراج القاموس من حيث أخفاه .

وفى منتصف الساعة العاشرة ، عندما هم بالانصراف ، أتت مكالمة تليفونية . . كانت المتحدثه هى لىنى تمنى له صباحا سعيدا وتسأله عن صحته ، فشكرها ك على عجل وقال لها أنه لا يستطيع ان يدخل الآن معها فى حديث لأنه ذاهب الى الكنيسة .

فسألت لىنى : الى الكنيسة ؟ .

فقال ك : نعم الى الكنيسة ؟ .

فقلت ليني متسائلة : ولماذا تذهب الى الكنيسة ؟
وحاولت ان يشرح لها باختصار ، ولكنه ما كاد يشرح في
ذلك حتى قالت ليني فجأة : انهم يستفزونك !
كانت تلك مواساة لم يسع اليها ولم ينتظرها ، فلم يحتملها
وختم المكالمة بكلمتين ، وقال وهو يعيد السماع الى مكانها ،
موجهها الحديث نصفه الى نفسه ، ونصفا الى البنت العبيدة التي
لم تعد تستطيع السماع : نعم . انهم يستفزونني !

كان الوقت قد تأخر بل وتمائل امام كخطر عدم التمكن من
الوصول الى مكان اللقاء في الموعد بالضبط . وذهب مستقلا
سيارة ، وتذكر في اللحظة الأخيرة الألبوم الذي لم تنتج له فرصة
تقديمه الى الضيف عندما التقى به من قبل ، فأخذه معه الآن .
ووضع الألبوم على ركبتيه ، وظل طوال الطريق يطل عليه في
قلق . كان المطر قد قل ، ولكن الجو ظل رطبا وبازدا ومضما
مما سيؤدي الى التقليل مما سريانه في الكنيسة وإلى زيادة
البرد في جسم ك نتيجة للوقوف مدة طويلة فوق بلاط الكنيسة
البارد .

كان ميدان الكنيسة خاليا ، عندما وصل ، وتذكر
في انه قد لاحظ منذ كان طفلا صغيرا ان كل ستائر نوافذ البيوت
المطلّة على هذا الميدان الضيق تظل دائما مسدلة ، ولاح له ان
ارخاء الستائر على النوافذ أمر له اليوم ما يبرره أكثر من الأيام
الأخرى ، كذلك لاحظ له الكنيسة خالية ، فلم يخطر ببال مخلوق
بطبيعة الحال ان يأتي في هذا الوقت . واجتاز ك الممرين
الجانبين في الكنيسة فلم يلق الا امرأة عجوز ملتفة في ملاءة
سميكة كانت تركع أمام تمثال للمدراء عندما تطلع ك اليها . ثم
راى ك الى بعيد خادما يعرج ويتوارى في باب بالحائط . كان
ك قد اتى في الموعد بالضبط ، فقد دقت الساعة المباشرة عندما

دخل ، ولم يكن الإيطالي قد وصل بعد ، فعاد ك الى الباب الرئيسي ووقف هناك مدة دون أن يتمكن من تقرير شيء ثم دار في المطر دورة حول الكنيسة ليرى ما اذا كان الإيطالي ينتظر في مدخل من المداخل الجانبية ، ولكنه لم يكن ليعثر عليه في اى مكان . هل أخطأ المدير ياترى ، فى فهم الموعد الذى قاله الإيطالي ؟ وهل هناك من سبيل الى فهم هذا الرجل فهما صحيحا ؟ مهما يكن من أمر ، فقد كان على ك أن ينتظره نصف ساعة اخرى على الأقل . ولما كان ك قد تعب ، فقد فكر فى أن يجلس ، وعاد الى الكنيسة ، ووجد على درجة من درجتها بساطا صغيرا من قبيل السجاد ، فشده بطرف قدمه ناحية مقعد قريب ، والتف فى معطفه على نحو أكثر احكاما ورفع الياقة الى أعلى ثم جلس . وفتح الألبوم وراح يقلب فيه ، على سبيل التلهى ، ولكنه اضطر الى التوقف عن ذلك بعد قليل ، فقد أظلمت الدنيا وأصبح من غير الممكن تقريبا أن يتبين الانسان شيئا من تفصيلات الأعمال الفنية فى الممرات الجانبية .

كان هناك على بعد فوق الهيكل الرئيسى مثلث كبير من ضوء الشموع يتلألا ، ولم يكن فى استطاعة ك أن يؤكد هل رآه من قبل أم لا ، وربما لم يكن هذا الضوء قد اشعل الا الآن فقط ، وخدم الكنيسة اناس يحسنون بحكم وظيفتهم التلصص فيما يفعلون فما يستطيع الانسان أن يلحظهم .

التفت ك حواليه فجأة ، فرأى خلفه غير بعيد شمعة اخرى عالية قوية مشتعة مثبتة فوق عمود . وبقدر ما كانت هذه الشموع جميلة فى اضاءتها صور الهيكل ، بقدر ما كانت غير كافية تماما لاضاءة الصور الاخرى الفارقة جلها فى الظلام بالممرات الجانبية ، حتى انها لاحظت كأنها تزيد هذا الظلام حلكة ! كان تصرف الإيطالي ، اذ صرف النظر عن الحضور تصرفا يتسم بالعقل بقدر ما يتجرد عن

الأدب واللياقة ، فلم يكن هناك شيء يستطيع الإنسان أن يشاهده ،
 إلا أن يستعين بمصباح بطارية فيضيء بمن الصور على التوالي أجزاء
 لاتزيد عن البوصة يمر عليها بصره . وأرادك أن يجرب هذه الطريقة
 فذهب الى قبة جانبية قريبة وتسلق عددا من الدرج فبلغ حاجزا
 من المرمر ، فانحنى فوقه وأضاء بمصباح بطارية صغير صورة الهيكل .
 ولكن الشعلة الخالدة هامت أمامه تحول بينه وبين الرؤية الواضحة .
 كان أول شيء رآه والى حد ما خمنه فارسا طويلا مسربلا يحتل
 الجافة المتطرفة للصورة . كان الفارس يستند على سيفه الذي كان
 قد دسه أمامه في الأرض الجرداء التي لم يكن يبدو فيها إلا بعض
 الحشائش . وبدا الفارس كأنه يراقب باهتمام عملية تحدث أمامه .
 كان من الغريب العجيب أنه ظل هكذا واقفا دون أن يقترب . ربما
 كان مكلفا بالقيام بالحراسة ! وتأملك الذي لم يكن قد شاهد لوحات
 منمودة طويلة ، في هذا الفارس وأطال التأمل ، على الرغم من أنه كان
 دائما مضطرا الى الاكثار من الرمش بعينه ، لأنه لم يكن يحتمل
 النور الأخضر . فلما حرك الضوء الى بقية الصورة رأى مشهد دفن
 المسيح بالشكل المألوف ، وإن كانت الصورة صورة حديثة نسبيا .
 فدرس المصباح في جيبه وعاد الى مكانه .

ولاح له أنه لم تعد هناك ضرورة لانتظار الإيطالي ، كان المطر
 في الخارج بلا شك شديدا ممثرا ، ولما لم يسكن الجو في داخل
 الكنيسة شديد البرودة كما توقع ، فقد قرر أن يبقى في الكنيسة
 حيناً . كان المنبر الكبير على مقربة منه ، وكان هناك على سقفه
 الصغير المستدير ، صليبيان ذهبيان مائلان يتلاقيان عند قمتهما .
 أما الجدار الخارجي للدريزين وكذلك الجزء الموصل الى العمود
 الذي يحمل المنبر فكانا مكونين من نبات أخضر متشابك تتداخل فيه
 ملائكة صغيرة بين النشيطه وبين الهادئة وتقدمك الى المنبر وتفحصه
 من جوانبه كلها . كانت زخرفة الحجارة دقيقة بالغة الدقة ، وكان
 هناك وراء ورق الشجرويين ورق الشجر ظلام عميق يبدو كأنه مقبوض

عليه أو ممسوك ، ودس ك يده فى فتحة من فتحات الزخرفة تلك ،
ولس الحجر بحرص وحذر . . لم يكن ك قد لاحظ من قبل وجود
هذا المنبر قط . وفجأة تبين وراء صف المقاعد القريبة منه واحدا من
خدم الكنيسة ، كان يقف هناك فى رداء أسود متدل له ثنيات
ويحمل فى يده علبة نشوق ، ويحلق فيه . وفكر ك : ماذا يريد
هذا الرجل ؟ هل هيئتى تدمو الى الريبة ؟ هل يريد بقشيشا ؟
فلما رأى خادم الكنيسة أن ك قد لاحظ وجوده ، أشار بيده اليمنى
الى اتجاه غير محدد ، وكان يمسك بين أصبعين تنشيقا .

كان تصرفه يوشك ألا يكون مفهوما ، فانتظر ك هنية ، ولكن
الخادم لم يكف عن التلويح بيده بل وأكد تلك الحركة بإيماءة من
رأسه . وتساءل ك بصوت خفيض : ماذا يريد هذا الرجل ؟ فلم
يكن يجرؤ على الصياح فى هذا المكان . وأخرج ك محفظة نقوده
واندس بين صفى المقاعد ليصل الى الرجل . ولكن الرجل أشار إشارة
تحمل معنى الرفض وهز كتفيه وابتمد وهو يعرج .
كان ك وهو صغير عندما يقلد ركوب الخيل يعرج كما عرج هذا
الرجل .

وفكر : انه ما يزال فى سن الطفولة ، وفهمه لا يكفى الا للعمل
كخادم فى الكنيسة ! انه يقف عندما أقف ، وانه ليحلق فى لرى
هل استأنف المسير ! وتبع ك الرجل وهو يتسم فاجتاز الممر الجانبى
كله حتى أوشك أن يبلغ الهيكل الرئيسى ، ولم يكف الرجل المسن
عن الاشارة والتلويح ، ولكن ك تعمد الا يلتفت ، فلم يكن
التلويح يهدف الا الى شىء واحد هو اخراجه . وأخيرا انصرف
بالفعل عنه ، فلم يشأ أن يخيفه على نحو شديد . . ولكن ك لم
يرد أن يتجاهل الظاهرة تماما اذا حدث أن جاء الايطالى .

أفلما دخل فى الساحة الرئيسية لبحث عن مكانه الذى كان
قد ترك الالبوم فيه تبين أن هناك منبرا جانبيا صغيرا بسيطا جدا

منتخدا من حجر باهت مجرد ، ملاصقا لعمود بوشك أن يكون عند حدود مقاعد جوقة الهيكل .

كان هذا المنبر من الصفر بحيث بدا من بعيد كأنه تجويف فارغ بالجدار أعد ليوضع فيه تمثال لبعض القديسين . لم يكن الواعظ الذي يعتلى هذا المنبر يستطيع أن يتحرك من دربزيته الى الخلف خطوه واحدة كاملة . كذلك كان التجويف الحجري للمنبر يبدأ بعمق غريب ويرتفع الى أعلى بالتواء - وبدون أن يتحلى بأية حيلة - حتى أن رجلا متوسط الطول لا يستطيع أن يقف فيه معتولا، بل يتحنن عليه أن ينحني فوق الدربزين باستمرار . كان المنبر في مجموعه يبدو مصمما ليعذب الواعظ الذي يرتقيه ، كذلك كان من الصعب أن يفهم الانسان الهدف الذي يستعمل له هذا المنبر، فقد كان هناك منبر آخر كبير مزخرف زخرفة فنية رائعة .

وما كان هذا المنبر الصغير ليلفت نظرك لو لم يكن عليه مصباح مشتعل ، من النوع الذي يوقد قبل القاء العظة بقليل . هل ياترى ستلقى عظة الآن ؟ فى الكنيسة الخاوية ؟ ونظرك الى السلم الموصل الى المنبر والملتصق بالعمود والذي كان من الضيق بحيث يظن المرء انه لم ينشأ ليصعد عليه الناس بل ليكون حطية للعمود . وابتسم لك من الدهشة ، وكان الكاهن ينتظر فعلا اسفل المنبر يسند يده على دربزين السلم ويتأهب للصعود وينظر الى ك ، ثم أومأ برأسه قليلا ، فرسم لك الصليب وانحنى ، وهذا شيء كان ينبغى عليه أن يفعله من قبل . ودفع الكاهن نفسه دفعة رفيقة وارتقى السلم الى المنبر بخطى قصيرة ولكن سريعة . هل سبتبدأ فعلا عظة ؟ هل يمكن أن يكون خادما الكنيسة قد تجرد من الفهم تماما ، فأراد أن يدفع لك الى الواعظ ، دفعا ما أحوجه اليه فى هذه الكنيسة الخاوية ؟ ولقد كانت هناك فى مكان ما أمام صورة العذراء امرأة عجوز ، كان ينبغى أن تاتى الى العظة هى الأخرى . ثم اذا كانت

هناك عظة ستلقى بالفعل ، فلماذا لم يمهّد لها الأرغن كالمعتاد ؟ ولكن الأرغن ظل ساكنا يبرق قليلا وسط الظلمات المحيطة به في مكانه الشاهق الارتفاع .

وفكر ك فيما اذا كان ينبغي عليه أن يتعد الآن بأقصى سرعة فإنه ان لم يفعل ذلك الآن، لن تكون هناك امكانية لفعل ذلك أثناء العظة ، اذ سيكون عليه أن يبقى طالما استمرت ، ولقد ضاع منه في المكتب وقت كثير ، ولم يعد هناك ما يلزمه بأن يستمر في انتظار الايطالي . ونظر الى ساعته فاذا بها تشير الى الحادية عشرة . ولكن هل كان من الممكن أن تلقى عظة فعلا ؟ هل كان من الممكن أن يمثل ك بمقرده الأمة كلها ؟ وماذا كان يحدث ، لو كان هو أحد الأجانب قد أتى لمشاهدة الكنيسة للاستماع الى عظة؟ والحقيقة ان ك لم يكن يختلف عن كونه كذلك . كان من السخف أن يفكر أن عظة ستلقى الآن في الساعة الحادية عشرة ، في يوم ليس يوم الأحد والجو في أشد حالات سوء . لا بد أن الكاهن - ولا بد أن هذا الشخص كان كاهنا دون أدنى شك فقد كان شابا اسمر الوجه حليقه - قد صعد ليطفئ المصباح الذي أوقده بعضهم خطأ .

لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فقد فحص الكاهن النور وأصلحه حتى اشتد قليلا ، ثم اتجه ببطء الى الدربزين وأمسكه بكلتا يديه عند الحافة المضلعة . وهكذا وقف الكاهن فترة ينظر حواليه دون أن يحرك رأسه . وتراجع ك مسافة كبيرة متسللا واسند كوعيه على المقعد الأول في الكنيسة . وتطلع بعينين مضطربتين الى خادم الكنيسة في مكان ما لم يحدده تماما ، وهو يحني ظهره ويتكور هادئا وكأنه قرغ من مهمته . ما أعجب السكون المخيم على الكنيسة ! ولكن ك كان سيدفع به الى الاضطراب، لأنه لم يكن ينوي البقاء . واذا كان من واجب الكاهن أن يلقى عظة في وقت معين دون مراعاة للظروف فليفعل ، ولنسوف يوفق في اداها دون معاونة

من ك ، وما كان وجود ك سيؤدي الى زيادة مفعول العظة . وبدأ ك يمشي ببطء ، ويتحسس طريقه بقدمه على المقاعد ، حتى اتى الى الطريق الرئيسية الواسعة وسار لا يلقى على شيء ، ولا يضايقه الا الارضية الحجرية التي كانت تحدث رنيناً تحت خطاه المسرفة فى الخفة ، والتجاويف التي كانت تحدث لهذا الرنين صدى خفيضاً ولكنه كان مستمرا منتظماً فى غالبه . وشعر ك كأنه فى شيء من العزلة عند ما سار يجتاز الفراغ بين صفوف المقاعد ، ربما لا يراقبه الا الكاهن ، كذلك لاحظ له ضخامة الكنيسة كأنها بلغت حدا لا يستطيع الإنسان احتماله . فلما بلغ مكانه القديم ، مد يده الى الألبوم ، دون تفكير فى الجلوس مرة أخرى ، وأخذه اليه . وأوشك على أن يترك منطقة المقاعد ويقترب من الساحة التي تمتد بين المقاعد وبين الباب الخارجى ، عندما سمع صوت الكاهن للمرة الأولى . كان صوته صوتاً قوياً مدوياً . وما أعظم انطلاقه فى ساحة الكنيسة التي تهيأت لاستقباله ! ولكن الكاهن لم يكن يتجه بالكلام الى الأمة ، لقد كان بما لا يدع مجالاً للتأويل أو التهرب ينادى : يا يوزف ك !

ووقف ك فجأة ونظر أمامه الى الارضية . كان فى هذه اللحظة لا يزال حراً طليقاً، وكان يستطيع أن يستمر فى السير وأن يفلت مستعملاً واحداً من الأبواب الثلاثة الصغيرة المعتمة التي كانت أمامه غير بعيد . ولكن هذا سيعنى أنه لم يفهم ، أو أنه فهم ، ولكنه لم يشأ أن يعبر ما فهم اهتماماً . أما اذا استدار ، فمعنى هذا أنه أعقل نفسه ، لأنه بذلك يشهد بأنه قد فهم تماماً أنه يعلم أنه هو المنادى وأنه يريد أن يتبع . ولو كرر الكاهن النداء ، لانصراف ك دون أدنى شك ، ولكن السكون خيم على المكان طالما انتظر ك ، فحرك ك رأسه قليلاً لأنه أراد أن يعرف ماذا كان الكاهن يفعل الآن . ظل الكاهن يقف على المنبر هادئاً كما كان ، وكان واضحاً أنه لاحظ الحركة التي اتى بها ك برأسه ،

فإذا لم يلتفت لك التفاته كاملة واضحة ، فهذا يعني أنه يريد أن يلعب كالأطفال لعبة الاستعمارية . وبالفعل استدارك كاستمنا ، فوجه الكاهن اليه إشارة باصبعه أن يقترب . ومادام كل شيء يمكن أن يجرى الآن في وضوح ، فقد جرى لك - على سبيل الفضول ويقصد تقصير الموضوع - ناحية المنبر بخطوات واسعة فوشك أن تكون كالطيران . ووقف لك عند مقاعد الصف الأول ، ولكن البعد لاح للكاهن كبيرا ، فمد يده وأشار باصبع السبابة أفقيا الى أسفل ، الى مكان ملاصق للمنبر تماما . وتبع لك هذه الإشارة أيضا . وكان عليه أن يميل برأسه الى الخلف بشدة ، في هذا المكان ، حتى يري الكاهن . وقال الكاهن :

- أنت يوزف لك !

ورفع يده الى الدربزين بحركة غير محددة .

فقال لك : نعم .

وفكر كيف كان قديما يقول اسمه بانطلاق وصراخه ، وكيف تحول هذا الاسم منذ مدة الى حمل ثقيل ، وكيف أصبح الآن يجد اناسا يعرفون اسمه ولما يلتق بهم قبل الآن ، فما كان أجمل أن يقدم الانسان نفسه لمن لا يعرفه ، فيعرفه هذا بعيد ذلك ! وقال الكاهن بصوت خفيض :

- أنت منهم !

فقال لك : نعم ، لقد أحطت علما بهذا .

فقال الكاهن : إذن فأت هذا الذي أبحث عنه . أنا واعظ السجن !

فقال لك : هكذا .

وقال الكاهن : لقد استدعيتك الي هنا لأتكلّم معك !

فقال له : هذا ما لم اكن أعرفه .. لقد أتيت الى هنا لأرافق
أحد الايطاليين أراد أن يزور الكنيسة .

فقال الكاهن : اترك هذه المسائل الثانوية ، ما هذا الذي
بيدك ؟ هل هذا كتاب الصلوات ؟

فقال له : لا ، انه اليوم به معالم المدينة .

فقال الكاهن : ازمه من يدك !

ورماه بعنف فافتتح وانزلق على الأرض مسافة وقد تشتت
أوراقه .

وسأله الكاهن : هل تعرف أن قضيتك ساءت ؟

فقال له : هذا ما يجول بخاطري . ولقد بذلت كل ما أستطيع
بذله من جهد ، ولكنني لم أصب الى الآن نجاحا .. على أنني
ينبغي أن أقول أنني لم أتم المذكرة بعد !

وسأل الكاهن : وكيف تلوح لك النهاية ؟

فقال له : كنت فيما مضى أعتقد أن النهاية ستكون طيبة ،
أما الآن فالثق يساورني أنا شخصا قى ذلك أحيانا . ولست
أعرف ماذا تكون النهاية . هل تعرفها انت ؟

فقال الكاهن : لا ، ولكنني أخشى أنها سيستوء .. فهم
يعتبرونك مذنباً . والظاهر أن قضيتك لن تتجاوز محكمة واطية
الدرجة . ومهما يكن من أمر فهم يعتبرونك حتى الآن مذنباً .

فقال له : ولكنني لست مذنباً ، هذا خطأ ! وكيف يمكن أن
يكون الانسان مذنباً ؟! نحن كلنا بشر ، لا فرق بين انسان وانسان !

فقال الكاهن : هذا صحيح ، ولكن كلامك هذا هو الكلام
الذي اعتاد المذنبون على ترديده .

فسأل ك : هل تحكم علينا مسبقا ؟ .

فقال الكاهن : لا لست أحكم عليك حكما مسبقا .

فقال ك : أنا أشكرك ، فجميع الذين يشتركون فى القضية ، يحكمون على حكما مسبقا . وهم يؤثرون على غير المشتركين فيها . . . ووضعى يزداد على الدوام صعوبة .

فقال الكاهن : انك تسيء فهم الوقائع . فالحكم لا ياتى فجأة ، بل ان القضية باجراءاتها تنتهى الى الحكم تدريجيا .
فقال ك : الأمر اذن كذلك .

وطاطا رأسه . وسال الكاهن : ما الذى تريد ان تفعله فى قضيتك أولا ؟

فقال ك : أريد ان أبحث عن معاونة .

ورفع رأسه ليرى حكم الكاهن على ذلك الكلام ، ثم اضاف :
- هناك بلا شك امكانيات معينة لم أستغلها حتى الآن .

فقال الكاهن مستنكرا : انك تسرف فى التماس معاونة الآخرين ، وخاصة لدى النساء ! الاقتبين ان تلك المعاونة ليست هى المعاونة الحققة ؟ .

فقال ك : فى بعض الاحيان ، بل فى أكثر الاحيان ، يمكن ان تكون على صواب فى هذا ، ولكن ليس فى كل الاحيان .
ان للنساء سلطة عظيمة . ولو اننى تمكنت من اقتناع عدد من النساء ممن اعرف على العمل المشترك من أجلى ، لتمكنت من شق طريقى . . خاصة فى هذه المحكمة التى توشك ان تقوم على ازيار النساء فحسب ! ما عليك الا ان تعرض على قاضى التحقيق من بعيد امرأة ، لترى كيف يعدو اليها قابلا منصة المحكمة والمتهم أثناء عدوه !

ومال الكاهن برأسه فوق الدبرين ، ويبدو أن سقف المنبر قد بدا الآن فقط يثقل عليه أثقالا .. ما حال الجسو العاصف الآن يا ترى فى الخارج ؟ لم يعد الجو جو يوم معتم ، بل أصبح جو ليل بهيم . لم يكن فى مقدور لوح واحد من الواح النوافذ الكبيرة المرسومة أن يقطع ظلمة الحائط ولا يضيئ ضئيل . وفى هذا الوقت بالذات بدا خادم الكنيسة يطفىء شموع الهيكل الرئيسى الواحدة تلو الأخرى .

وسال ك الكاهن : هل بك غضب على ؟ يبدو أنك لا تعرف أية محكمة تلك التى تخدمها ؟ !

فلم يلق جوابا . فقال ك : ليس كلامى هذا إلا من ثمار خبراتى .

وظل السكون يخيم على المنبر ومن عليه . فقال ك :

— لم يكن قصدى إهانتك .

فصرخ فيه الكاهن من أعلى : ألا ترى قيد خطوتين أمامك ؟

كانت العبارة تمتلئ بالغضب ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه كأنما صدرت عن إنسان يرى من يقع ، فيصرخ ، لغرضه هو ، بغير احتراس ودون ما إرادة .

وصمت الاثنان طويلا . لم يكن الكاهن ، بكل تأكيد ، يتبين ك بوضوح وسط الظلام السائد تحته ، بينما كان فى مقدور ك أن يرى الكاهن بوضوح فى ضوء المصباح الصغير . لماذا لا ينزل الكاهن الى أسفل ؟ فهو لم يلق عظة ، بللقى الى ك ببعض المعلومات فقط ، كانت اذا دقق فيها ، تلوح له كأنما تضره أكثر مما تنفعه . ولكن نية الكاهن الطيبة لاحت له ك بعيدة عن الشك ، ولم يكن من المستبعد أن يتفقا ، اذا ما نزل الكاهن من فوق منبره ، ولم يكن من المحال أن ينال منه نصيحة حاسمة

مقبولة ، تريه على سبيل المثال ، لا كيفية التأثير على القضية ، ولكن كيفية الخروج من القضية وتلافيها. والحياة خارج القضية . كان لابد أن تظل هذه الامكانية قائمة ، ولقد فكر ك فيها أخيرا وأطال التفكير . فإذا كان الكاهن يعرف السبيل الي مثل هذه الامكانية ، فربما يأخذه ك بها ، إذا ما رجاه ك ، على الرغم من أنه شخصيا من المحكمة ، وعلى الرغم من أنه خرج على خلقه الحليم عندما هاجم ك المحكمة ، بل وأصرخ في ك .

وقال ك : ألا تريد أن تنزل ؟ فليست هناك عظة تتلوها ! انزل الى .

فقال الكاهن : الآن يمكنني أن انزل اليك .

ولعله ندم على صياحه . وقال وهو يحل المصباح من المشجب : كان ينبغي علي أن أكلّمك من بعد . فما أسهل ما أتأثر وأنسى واجبي عندما أكون قريبا ! .

وانتظره ك عند أسفل الدرج . ومد الكاهن اليه يده ، وهو على درجة عالية ، وسأله ك : . . . هل لديك قليل من الوقت تمنحنيه ؟

فقال الكاهن : سأمنحك من وقتي ما تطلب .

وقدم الى ك المصباح حتى يحمله . لم يفقد الكاهن وهو على مقربة من ك شيئا من هيئته . وقال ك : . . .

— أنك لطيف معي ! . . .

وراحا يمشيان في الممر الجانبي المظلم أحدهما بجانب الآخر جيئة وذهابا . وأردف يقول :

— أنت استثناء بين كل الذين عرفتهم من أهل الحكمة . وأنا

لأتق فيك أكثر مما أتق في أى واحد منهم على كثرة من عرفت بهم .
ويمكننى معك أن أتكلم بصراحة .

فقال السكاهن : لا تنخدع !

فقال له : وأيم يمكن أن أنخدع ؟ !

فقال السكاهن : أنك تنخدع فى أمر المحكمة . وهناك فى
الكتابات التمهيدية للقانون إشارة الى هذا الانخداع تقول :
هناك أمام القانون بواب يقف بالباب ، ويأتيه ذات يوم رجل من
الريف ويلتمس الدخول الى القانون . ولكن البواب يقول له انه
لا يستطيع أن يسمح له الآن بالدخول . فيفكر الرجل ثم يسأل هل
يمكنه أن يدخل فيما بعد . فيقول البواب : ربما ، ولكن ليس
الآن .

ولما وجد الرجل أن البواب ظل كحاله على الدوام مفتوحا وأن
البواب انحنى جانبا ، انحنى لى ينظر من خلال البواب الى
الداخل . وعندما تبين البواب هذا ضحك وقال : اذا كان هذا
يستهيئك الى هذه الدرجة ، فجرب الدخول رغم معنى اياك .
ولكن اعلم اننى قوى . وأنا لسميت الا اقل البوابين مرتبة .
وهناك من قاعة الى قاعة بوابون اقوياء الواحد منهم اقوى من
الآخر . ومنظر ثالثم مثلا لا استطيع حتى انا نفسى تحمله !

لم يكن الريفى قد توقع مثل هذه الصعوبات ، فالقروض
كما خطر بباله ان يكون القانون فى متناول كل انسان وفى
كل وقت . فلما دقق النظر الى البواب ، وانفه المدب ولحيته
الطويلة الرقيقة السوداء البشارية ، قرر أن الأفضل هو ان ينتظر
حتى ينال التصريح بالدخول . ويقدم البواب اليه كرسيا صغيرا
ويدعه يجلس عند الباب منتحبا منه جانبا . ويجلس الرجل
الايام والأعوام . ويحاول محاولات كثيرة أن ينال تصريحاً بالدخول
ويتعب البواب بتوسلاته الكثيرة . والبواب يكتر من استجوابه

استجابات صغيرة ويستفسر منه عن موطنه وعن أمور عديدة ، ويتوسل الى ذلك بأسئلة جامدة كالتى يسألها عظماء الرجال ، وفى النهاية يقول له كالمعتاد انه لا يستطيع ان يدعه يدخل . وينفق الرجل كل شيء ، وما اكثر ما اتخذ من الزاد لرحلته ! ... ولا يبخل بقال او ثمين ، لرشوة البواب . والبواب يقبل كل شيء ولكنه يقول : اننى انما آخذ هذا حتى لا تظن انك قد تركت فعل ما كان ينبغي عليك الا تتركه .

ويتأمل الرجل البواب بدون انقطاع طوال الاعوام الطوال ، وينسى البوابين الآخرين ، ويخال هذا البواب العقبة الوحيدة التى تقف فى سبيل دخوله الى القانون . ويلعن المصادفة التعمية جهرا فى السنوات الاولى ، ثم ، عندما تتقدم به السن فيما بعد ، يكتفى بالزمجرة بينه وبين نفسه . ويسلك الرجل مسلك الاطفال ، ولقد تبين فى غضون دراساته التى دامت الاعوام الطوال ان ياقة البواب المتخذة من الفراء تغص بالبراغيث ، فقتوسل الى البراغيث ايضا ان تساعد على تغيير رأى البواب واتجاهه ! وأخيرا يضعف بصره ولا يعرف هل الدنيا تشهد ظلمة بالفعل ام ان عينيه هما اللتان تنخدعان فحسب . على انه يتبين الآن وسط الظلام بريقا ينبعث خارجا من باب القانون ولا ينطفئ . ولكنه لا يعيش بعد ذلك طويلا . وتتجمع فى رأسه قبل وفاته كل خبراته التى اوتىها فى المدة كلها فى شكل سؤال لم يوجهه الى البواب حتى الآن . ويلوح الرجل الى البواب ليأبى اليه فلم يعد جسمه المتصلب يستطيع النهوض . ويكون على البواب ان ينحنى فوقه انحناء شديدا ، لان فروق الحجم قد تغيرت فى غير صالح الرجل بشكل شديد .

وسأل البواب : ماذا تريد ان تعلم الآن كذلك ! أنت لا تشيع ابدا .

فقال الرجل : ان الناس جميعا يسعون الى القانون ، فلما
قولك في ان احدا غيرى لم يأت في الاعوام الكثيرة الماضية
طالباً الدخول ؟

وتبين البواب ان الرجل مشرف على نهايته ، وصرخ فيه
عاليا حتى يصل الصوت الى سمعه الواهن : لم يكن من الممكن
ان ينال انسان غيرك تصريحاً بالدخول ، لان هذا المدخل كان
مخصصاً لك ، دون غيرك ، وسأذهب الآن لأقفله .

فقال لك في الحال وقد اثرت عليه القصة تأثيراً كبيراً :

— اذن فقد خدع البواب الرجل !

فقال الكاهن : لا تصرف في التمعج ، ولا تأخذ الرأى
الغريب دون ما تمحيص . ولقد قصصت عليك القصة بنصها
المكتوب . وليس فيه أية اشارة الى انخداع .

فقال لك : ولكن هذا شيء واضح . وتاويلك الاول كان
صحيحاً تماماً . فالبواب لم يخبر الرجل بالخبر المنقذ الا عندما
اصبح غير ذى جدوى بالنسبة له .

فقال الكاهن : ولكن البواب لم يسأل من قبيل ، ولا تنس
انه ليس الا بواباً ، وانه أدى واجبه على هذا الاعتبار تماماً .

فسأل لك : وكيف تعتقد انه أدى واجبه ؟ ربما كان واجبه
ان يصد الآخرين جميعاً ، وان يدع هذا الرجل الذى كان المدخل
مخصصاً له بالذات يدخل .

فقال الكاهن : انت لا تحترم النص بما فيه الكفاية ،
وتحرف القصة . والقصة تتضمن تصريحين هاميين للبواب فيما
يختص بالدخول الى القانون ، تصريحاً في البداية وتصريحاً في
النهاية . اما النص الاول فهو : انه لا يستطيع ان يسمح له الآن

بالدخول ، وأما النص الثاني فهو : أن هذا المدخل مخصص لك
 دون غيرك . فلو كان هناك تناقض بين التصريحين لكانت على جقي
 في أن البواب خدع الرجل . ولكن ليس هناك تناقض . بل علي
 العكس ، أن التصريح الأول ينسب بالتصريح الثاني . وربما
 استطاع الإنسان أن يقول أن البواب تجاوز واجبه عندما فتشع
 للرجل باب الأمل في إمكانية مقبلة للدخول إلى القانون . كان
 واجبه في ذلك الوقت يبدو محصورا في إبعاد الرجل . وكثير
 من الشراح يدهشون فعلا لقيام البواب بالتنويه إلى هذه الإمكانية
 وإنما يبدو عليه أنه يحب الدقة ويسهر على عمله دون ما تفريط .
 فهو لم يترك مكانه أعواما طويلا ، وهو لم يقفل الباب إلا في النهاية
 وهو يعلم بأهمية عمله إذ يقول : أنني قوى ، وهو يحترم رؤسائه
 إذ يقول : أنا أقل البوابين درجة ، وهو لا يثرثر فلم يلق طوال
 السنين ، كما جاء بالنص ، إلا « أسئلة جامدة » ، وهو ليس
 مرتش فقد قال في شأن الهدية : أنا أقبلها لسبب واحد هو ألا
 أدعك تظن أنك تخلفت عن فعل شيء كان ينبغي عليك أن تفعله ،
 وهو في تأدية واجبه لا يتأثر ولا يتبرم . فقد جاء بالنص : أن
 الرجل اتبعه بتوسلاته الكثيرة . . . هذا إلى أن مظهره يدل على أنه
 ذو شخصية مسرفة في التعامل ، فله أنف مديب ولحية ترترارية
 طويلة رفيقة سوداء . فهل يمكن أن يوجد بواب أرعى لواجبه
 من هذا ؟ ولكن شخصية البواب تختلط بها مميزات أخرى هي
 في صالح المطالب بالدخول جدا ، وهي التي تجعلنا نفهم أنه
 تجاوز واجبه قليلا ، ولحق إلى إمكانية مستقبلية للدخول إلى
 القانون . فهو يتصف بشيء من السذاجة ويتصف أيضا بشيء
 من الغرور . وهذا ما لا يمكن إنكاره . وإذا قدر أن كلامه عن قوته وعن
 قوة البوابين الآخرين وعن منظرهم الذي لا يكاد هو ذاته أن يحتمله
 . أقول إذا قدر أن كان هذا الكلام صحيحا ، فإن الطريقة
 التي يقوله بها تبين أن فهمه تشويه السذاجة والغرور .

والشراح يقولون في هذا : أن الفهم الصحيح لشيء والفهم السيء لشيء نفسه لا يستبعد أحدهما الآخر استبعادا تاما .

على أنه ينبغي على الإنسان أن يقول إن هذه السداجة وهذا الفرور ، مهما كان ظهورهما من البساطة والقلة ، يضعفان من حراسة البواب للمدخل ويعتبران ثغرتين في شخصية البواب . ويضاف إلى هذا أن البواب بطبيعته ، يبدو لطيفا ، وليست هذه هي الشخصية التي تتطلبها وظيفته ، فهو في اللحظات الأولى يمزح مع الرجل ويدعوه إلى الدخول على الرغم من الحظر القائم الواضح ، ثم هو لا يبعده ، بل يعطيه كرسيًا صغيرًا ، كما يقول النص ، ويدعه يجلس عند الباب منتحيا منه جانيا . والصبر الذي تحمل به طوال هذه السنين التماسات الرجل ، والاستجابات الصغيرة التي أجراها ، وقبول الهدايا ، والعظمة التي سمح بها للرجل أن يلعب بجواره الحظ العتائر الذي نصب البواب في هذا المكان - كل هذه الأمور تجعلنا نستنتج خلجات من العطف والشفقة . هذا تصرف ما كان يتصرفه كل بواب ! وهو أخيرا ينحني فوق الرجل انحناء شديدة ليتمكن من الإفصاح عن سؤاله الأخير . . . ثم هو قليل الصبر . . . فالبواب يعرف طبعًا أن كل شيء انتهى . . . ويظهر هذا في الكلمات : أنت لا تشبع أبدا . . . وهناك من يذهبون إلى بعيد في شرح « أنت لا تشبع أبدا » . . . ويرون أن هذه العبارة تعبر عن نوع من الإعجاب اللطيف لا يتجرد من ذلك من التحقير ، وأيا ما يكن فشخصية البواب تكتمل على نحو يختلف تماما عما تعتقد . فقال ك :

- أنت تعرف القصة على نحو أدق مني ومنذ وقت أطول .
وصمت الاثنان برهة . . . ثم قال ك :

- أنت تعتقد إذن أن الرجل لم يخدع ؟

فقال البكاهن : لا تخطيء فهمي ، فكل ما فعلته لتوى كان

عرضاً للآراء القائمة بخصوص هذا الموضوع . ولا ينبغي عليك أن تكثر من الاهتمام بالآراء . فالنص ثابت لا يتغير ، وليست الآراء في الغالب إلا تعبيراً عن اليأس منه . وهناك - في هذه الحالة - رأى يذهب إلى أن البواب هو المخدوع . فقال ك :

- هذا رأى متطرف ! وما هو مبرره ؟

فأجاب الكاهن : سـداجة البواب هي مبرره . وأصحاب هذا الرأى يذهبون إلى أنه لا يعرف داخل القانون ، وأنه لا يعرف سوى المسافة التي كان ينبغي عليه حراستها أمام المدخل .. ويذهبون إلى أن تصوراته للداخل تصورات صبيانية ، وأنه هو نفسه كان يخاف ممّا كان يخيف به الرجل . بل أنه كان يخاف أكثر منه ، فلم يكن الرجل يريد شيئاً سوى الدخول حتى بعد أن سمع عن البوابين الغلاظ الشداد ، أما البواب فلم يكن يريد الدخول ، أو نحن على الأقل لا نعلم عن هذا الأمر شيئاً .. وهناك آخرون يرون أنه لابد قد رأى الداخل ، فهو قد عين إلى خدمة القانون ، وهذا شيء لا يمكن أن يتم إلا في الداخل . ومن الممكن الرد على هذا بأنه ربما قد عين بواباً بناءً على نداء وجهه إليه من الداخل وهو في الخارج ، أو بأنه على الأقل ربما لم يتوغل في الداخل بعيداً لأنه لا يقوى على تحمل منظر البواب الثالث . وعلاوة على ذلك فلم ترد أخبار عن أنه حكى شيئاً عن الداخل طوال هذه الأعوام إلا تلك الملاحظة عن البوابين . وربما كان قد حذر عليه أن يحكى شيئاً ، ولكنه أيضاً لم يذكر شيئاً عن الحظر .. من هذا كله يستنتجون أنه لا يعرف شيئاً عن منظر الداخل وأهميته وأنه منخدع فيه . وهو كذلك منخدع في الرجل الريفى فهو أدنى من هذا الرجل درجة دون أن يعلم ذلك . ولقد عامل الرجل الريفى باعتباره أقل منه درجة ويتضح هذا من أمور كثيرة لابد أنها مازالت عالقة في ذاكرتك . ويرى أصحاب هذا الرأى أنه ينبغي عليهم أن يوضحوا أنه بالفعل أقل من الرجل الريفى مرتبة .

فالحرج الطليق ، قبل كل شيء آخر ، اعلى من المزم المربوط درجة .
والرجل الريفى حر طليق ، يستطيع ان يذهب حينما يشاء ، الا
الى مدخل القانون فهو عليه محظور ، والحظر ياتيه من انسان
فرد هو البواب . وهو عندما يجلس على الكرسي الصغير منتحيا
جانب المدخل ويقضى هناك حياته ، فهو يفعل ذلك حر الارادة .
والقصة لا تورد شيئا عن ارغام أو اكراه . اما البواب فهو بحكم
وظيفته مربوط فى مكانه ، وليس له أن يعتمد الى جانب من
الجوانب ، وليس له ، على ما يبدو ، أن يدخل الى الداخل حتى
اذا اراد ذلك . ثم هو علاوة على ذلك فى خدمة القانون حقا ،
ولكن خدمته مقصورة على هذا المدخل ، وعلى هذا الرجل الذى
خصص المدخل له دون غيره . وهذا سبب آخر يبين أن البواب
ادنى من الرجل الريفى درجة . ويمكن القول ان البواب قضى
الاعوام الطوال ، قضى عمر انسان أو نحوه ، يؤدى - جوفاء ،
فقد قيل له أن رجلا ، سيأتى ، ومعنى هذا أن البواب كان عليه
أن ينتظر طويلا ، حتى يتحقق هدفه ، ينتظر مدة تطول حسبما
يشاء الرجل الريفى ، الذى أتى بمحض ارادته . حتى نهاية
خدمة البواب تتحدد بنهاية عمر الرجل ، وهذا يعنى أن البواب
ظل طول عمر الرجل الريفى دونه درجة . والقصة تؤكد مرارا
أن البواب يبدو انه لم يكن يعلم من كل هذه الأمور شيئا ، ولكن
هذا امر لا يبد فيه أصحاب هذا الرأى ما يلفت النظر ، فالبواب ،
طبقا لهذا الرأى ، منخدع انخداعا أكثر ضخامة ، لانه انخداع
بتصل بعمله . وهو فى النهاية يتكلم عن المدخل قائلا : سأذهب
الآن الى المدخل فأوصده . والقصة فى اولها تقول عن المدخل
انه كان كحاله على الدوام مفتوحا ، وعلى الدوام عبارة تعنى أن
الباب كان مفتوحا دون ما علاقة بين هذا وبين عمر الرجل الذى
خصص له ، وعلى هذا فالبواب لا يستطيع أن يقفله . وهنا
تختلف الآراء ، هل كان البواب بهذه الجملة يعطى اجابة لا أكثر

ولا أقل ، أو هل كان يؤكد بها واجبه المنوط به أو هل كان يريد أن يدفع بالرجل الى الندم والحزن ؟ ولكن الكثيرين يتفقون على أنه يستطيع أن يفلق الباب ، بل ويمتقدون أنه ، على الأقل في النهاية ، دون الرجل الريفي حتى في المعرفة ، فالرجل الريفي يرى البريق ، الذي ينبعث خارجا من مدخل القانون ، بينما البواب، بحكم عمله ، يولى المدخل ظهره ، ولا يقول ما يستدل منه على أنه لاحظ تغيرا ما . فقال ك وكان يكرر لنفسه عبارات من حديث الكاهن بصوت خفيض :

— هذا تبرير جيد ! هذا تبرير جيد ! وأنا كذلك أعتقد الآن أن البواب كان منخدعا . ولكني بهذا لا أراجع عن رأيي الأول . لأن الرأيين يغطي بعضهما بعضا جزئيا . وليس الفيل في الأمر أن نصل الى ما اذا كان البواب يرى بوضوح أو ينخدع . لقد قلت من قبل أن الرجل انخدع . فاذا قلنا ان البواب كان يرى بوضوح ، فمن الممكن أن نشك في هذا ، أما اذا قلنا ان البواب منخدع ، فلا بد أن انخداعه قد أثقل الى الرجل بالضرورة . . . والبواب ليس غشاشا ، ولكنه من السذاجة بحيث كان ينبغي طرده من عمله فورا . ولا ينبغي أن يغيب عن ذهنك أن انخداع البواب لا يضره هو في شيء ، ولكنه يضر الرجل الريفي ألف مرة . . .

فقال الكاهن : انك بهذا تصطدم برأي مضاد . فهناك من يقولون ان القصة لا تخول احدا الحق في الحكم على البواب . . . فمهما كانت الهيئة التي يبدو لنا فيها ، فهو خادم القانون ، أي هو تابع للقانون ، أي هو معصوم من حكم البشر ، وكذلك لا يصح أن يعتقد انسان أن البواب دون الرجل درجة . . فوقوته مربوطا على باب القانون، بحكم وظيفته ، أرفع بما لا يفسح مجالا للمقارنة من الحياة في الدنيا حياة طليقة . والرجل الريفي يأتي الي

القانون ، أما بواب القانون فهناك من قبل ، ولقد عينه القانون لهذه الوظيفة والشك في كرامته شك في القانون ذاته .

فقال لك وهو يهرأشه : هذا رأى لا أوافق عليه ، فإذا اتبع الإنسان هذا الرأى ، كان عليه أن يعتبر كل ما قاله البواب حقا وصدقا ، أما أن هذا غير ممكن ، فشيء أسهت أنت نفسك في تعليله وتبريره .

فقال الكاهن : لا ، لا ينبغي أن يعتبر الإنسان كل شيء حقا وصدقا ، ولكن ينبغي على الإنسان أن يعتبر كل شيء ضروريا فحسب .

فقال لك : ما أكرهه من رأى ! ها هو ذا الكذب يتحول إلى نظام للكون !

قال لك هذا الكلام لينهى الحديث ، ولكنه لم يكن حكمة نهائى . فقد كان مجهدا لا يستطيع أن يخطط باستنتاجات القصة جميعا ، ولقد كانت الأفكار التى دفعته إليها ، أفكارا غير عادية ، كانت أمورا غير واقعية ، تصلح بالأحرى لناقشة بين جماعة موظفى المحكمة ، أكثر مما تصلح له . وتحولت القصة البسيطة إلى شيء لا شكل له ، وأراد هو أن ينفضها عن نفسه ، وبرهن على شعور عظيم بالركة ، فقبل ملاحظة كصامتة ، على الرغم من أنها لم تكن تتفق بلا شك مع رأيه هو .

واستمر فى السير معاً صامتين فتسرة ، وكان لك يلتصق بالكاهن دون أن يعلم أين هو . وكان المصباح فى يده قد انطفأ منذ مدة طويلة . وأناه مرة بريق من أمام ، قد انبعث من تمثال قديس لضى ، بريق من الفضة ذاتها ، ما لبث أن توارى فى الظلام . وسأل لك الكاهن : اليس الآن على مقربة من المدخل الرئيسى ؟ . وكان يقصد بهذا السؤال ألا يظل معتمدا على الكاهن

اعتمادا كليا . فاجاب الكاهن : لا ، انا بعيد عنه ، هل تريد ان تنصرف الآن ؟ .

فقال ك : على الفور وان لم يكن قد فكر فى ذلك : بكل تأكيد !
اريد ان انصرف . وانا وكيل بنك . والناس ينتظرون عودتى ..
وانا انما اتيت الى هنا لارى ضيفا اجنبيا الكنيسة .

ومد الكاهن يده الى ك وقال :

— اذن فاذهب !

فقال ك : ولكنى لا استطيع ان اجد طريقى الى السلام
بمجردى !

فقال الكاهن : اذهب الى الحائط على اليسار ثم الزم
الحائط ولا تتركه فستجد مخرجا .

وكان الكاهن قد ابتعد بضع خطوات فصاح فيه ك بصوت
عال جدا : انتظر ارجوك !

فقال الكاهن : انا منتظر !

فسأله ك : الا تريد شيئا منى ؟

فقال الكاهن : لا .

فقال ك : لقد كنت من قبل لطيفا معى ، وشرحت لى كل
شئ ، وهانذا تتخلى عنى ، وكأنك لا تهتم بى اطلاقا !

فقال الكاهن : لقد قلت ان عليك ان تنصرف !

فقال ك : هذا صحيح . وعليك ان تنظر الى كلامى بالفهم
والتقدير .

فقال الكاهن : عليك انت اولا ان تنظر الى وتفهم من انا .

فقال ك : أنت وأعظ السجن !

واقترب من الكاهن ، فلم تكن عودته في الحال الى البنك
ضرورية على النحو الذي صوره ، وكان في امكانه ان يبقى هنا ،
وقال الكاهن : انا من المحكمة ! ولماذا تتوقع أن اريد منك
شيئا ؟ ! المحكمة لا تريد منك شيئا ! المحكمة تتلقاتك عندما تأتي ،
وتصرفك عندما تذهب .

• النهاية... •

فى مساء اليوم السابق على يوم عيد ميلاد لك الحمادى والثلاثين - وكانت الساعة نحو التاسعة ، وهو الوقت الذى يخيم فيه الهدوء على الشوارع - دخل رجلان الى مسكن لك . . كانا يرتديان ثوب الخروج وقبعة اسطوانية تبدو ثابتة لا سبيل الى تحريكها ، وكانا شاحبين سمينين . واتخذ الرجلان عند باب المسكن اجراء شكليا بسيطا نظرا لدخولهما للمرة الاولى ثم اتخذوا اجراء مماثلا ولكن على نطاق اوسع عندما مثلا امام باب لك . . وكان لك ، دون ان يكون احد قد اعلنه بهذه الزيارة ، يجلس مرتديا ثوبا اسود اللون ايضا ، فى كرسى وثير بجوار الباب ، كذلك لبس قفازين جديدين دقيقين ، وكأنه كان ينتظر ضيوفا ، ونهض على الفور وتطلع الى الرجلين فى شغف وسأل :

- أنتما اذن مخصصين لى ؟ .

وأوما الرجلان برأسيهما ، وأشار أحدهما بالقبعة الاسطوانية الى صاحبه . وقال لك فى نفسه انه كان ينتظر ضيفا آخر . . وذهب الى النافذة وتطلع الى الشارع المظلم مرة أخرى . . كانت النوافذ الأخرى على الناحية الأخرى للشارع كلها تقريبا مظلمة وكانت كثير منها تراهيها اليسائر . وكان جباله امي نافذة مبهمة

بالدور نفسه اطفال صفار يلعبون وراء حاجز ويمدون اياديهم الصغيرة بعضهم الى بعض غير قادرين على التحرك من امكانهم .
وقال لك فى نفسه :

– انهم يرسلون الى اثنين من الممثلين ، ممن انحطت درجتهم ، وانتهى زمانهم .

والتفت حواليه ليتأكد من ذلك مرة ثانية ، وعاد يقول فى نفسه :
– انهم يحاولون التخلص منى بطريقة رخيصة .

وفجأة التفت اليهما وسألها : فى اى مسرح تمثلون ؟
وسأل احد الرجلين صاحبه النصيحة وقد اهتز ركنا فمه :
– مسرح ؟ !

وتصرف الآخر كأنما كان اخرس يكافح كيانا عضويا معاندا .
أفقال لك : انتما غير مستعدين لتلقى الأسئلة .
وذهب ليتناول قبعته .

واراد الرجلان ان يمسكا بذراعى لك على السلم ، ولكن لك قال :
– انتظرا حتى نصل الى الحارة ، فانا لست مريضا .

ولكنهما ما كادا يصلان الى امام الباب حتى تعلقا به على نحو لم يعرفه ك من قبل مع البشر . فقد وضع كل منها احدى كتفيه وراء احدى كتفيه تمسكاً ، ولم يلويأ ذراعيهما ، بل بسطاهما ليحيطا بذراعيه بطولهما ، وقبضا على يدي ك قبضة مدربة متعلمة لا سبيل الى مقاومتها . وسارك بينهما ناصبا قامته معتدلاً .. كانوا يكونون وحدة متماسكة الى درجة أنه اذا حطم انسان واحدا منهم تحطم الجميع لذلك . كانت وحدة يوشك الا يستطيع تحقيقها الا الجوامد .

وحاول ك كلما مروا تحت المصابيح ان يرى مرافقيه بوضوح اكثر مما استطاع في ضوء حجرته الخافت ، على الرغم من صعوبة ذلك في هذه الشبه المتلاصقة . وقال في نفسه بعد ان رأى رقيبتهما الغليظتين : لعلهما مغنيان تينور ! .

وتفرز من نظافة وجهيهما . كان يرى مجسمة امامه يد التنظيف التي امتدت الى اركان العينين وحكت الشفة العليا وكحتت ثنايا الذقن .

فلما تبين ك هذا وقف ، فوقف الاخران نتيجة لذلك . كانوا عند حافة ميدان فسيح خال من الناس مزدان بالاشجار والازهار المنسقة . وسأل ك في لهجة اقرب الى الصياح منها الى الاستفهام : لماذا أرسلوكما انتما بالذات ؟ .

والظاهر ان السيدين كانا لا يعرفان اجابة ، فقد انتظرا مرسلين الذراع الطليقة ، انتظار المشرفين على مريض اذا اراد المريض ان يستريح قليلا . وقال ك على سبيل التجربة : لن استمر في السير ! .

ولم يكن بالرجلين حاجة الى الرد على ذلك ، فقد كفاهما الابقاء على قبضهما في غير لين ومحاولة رفع ك من مكانه ، ولكن ك قاوم وتفكر :

— لن أكون فيما بعد بحاجة الى قوتي ، فلأستخدمها الآن كلها ! .

وخطر بباله الذباب عندما تنقطع سيقانه على الفصن المظلي
بالمواد اللاصقة الذى ينصب لاصطياده وهو يجتهد فى الابتعاد :

— سيكون على الرجلين بذل جهد كبير !

هناك ظهرت امامهم الأنسة بورسترن تطلع درجا صغيرا تنتهى
به حارة ممتدة الى بعيد وتقصّد ناحية الميدان . ولم يكن من
المؤكد انها هى ، ولكن الشبه كان كبيرا ، ولم يكن ك مهمتها بأن
تكون هى بكل تأكيد ، الا انه شعر بتفاهة مقاومته . . لن يكون
عمله عملا بطوليا ، اذا قاوم الرجلين ووضع فى طريقهما الصعوبات ،
اذا حاول ان يتمتع بآخر بريق للحياة فى صورة القيام بالمقاومة .
واتخذ وضع القعود اثناء السير محمولا فأحدث هذا بالرجلين
إفراحة أنتقل شيء منها الى ك نفسه . وقبل الرجلان ان يحدد هو
اتجاه السير ، وقد حدده هو حسب الطريق الذى سلكته الأنسة
بورسترن امامهم ، ولم يتبعها بقصد الوصول اليها ، ولا لانه كان
يريد ان يطيل النظر اليها ما أمكن ذلك ، بل اتبعها حتى لا ينسى
الإنذار الذى كانت تمثله بالنسبة اليه . وقال ك فى نفسه شيئا
أكده تناسق خطواته مع خطوات الرجلين :

— الشيء الوحيد الذى استطيع الآن فعله ، هو ان أبقى على
فهمى الهادئ المنظم الى النهاية . لقد كنت أريد دائما ان أندفع
الى الدنيا بعشرين يد والى هدف غير مقبول . ولقد كان هذا
خطا . فهل ينبغي ان أبين الآن ان القضية التى استمرت عاما
لا يمكنها هى الأخرى ان تعلمنى ؟ هل ينبغي ان انتهى نهاية انسان
متردد فى الفهم ؟ هل يصح أن يقال عنى بعد نهايتى اننى فى بداية
القضية كنت أريد أن أنهيها ، ولما جاءت نهايتها عدت أسعى
الى بدئها ؟ لا أريد أن يقال هذا عنى . . . أنا ممنون لأنهم أعطوني

فى هذه الطريق هذين الرجلين الأخرسين المجردين من الفهم
ولأنهم تركوا لى مهمة الحديث الى نفسى بما ينبى .

كانت الأنسة فى هذه الأثناء قد انعطفت الى حارة جانبية ،
ولكن ك كان الآن فى حال تمكنه من الاستغناء عنها ، فاستسلم
لمرافقيه . وسار الثلاثة زفى تفاهم تام على كوبرى فى ضوء
القمر ، وكان الرجلان يقبلان الآن بالرضا كل حركة صغيرة يقوم
بها ك ، فلما اتجه الى سور الكوبرى ، اتجها فى جبهة واحدة
الى هناك . كانت المياه المرتعشة المتألقة فى ضوء القمر تنقسم
حول جزيرة صغيرة تجمعت فوقها أكوام من أوراق الأشجار
والشجيرات . وكانت هناك بين هذه الأكوام طرق فرشت
بالحصباء ، واتخذت فيها مقاعد ، لا يراها الناظر الآن ، كان ك فى
أيام من صيف قد تمدد عليها واسترخى . وقال ك لمرافقيه وقد
تملكه الخجل من استعدادهما لخدمته : لم أكن فى الحقيقة أريد
ان أقف !

وبدا أحدهما يوجه للآخر من خلف ظهر ك لوما رقيقا على
أنهما أخطأ فى فهم وقوفه ، ثم استمرا فى السير .

واتوا على حوار صاعدة كان افراد من الشرطة يقفون او
يسرون فيها ، هنا وهناك ، تارة على بعد وتارة على مقربة وثيقة .
واقبل احد رجال الشرطة وكان له شارب كث ، وكان يضع يده
على مقبض السيف ، واقترب متعمدا من هذه الجماعة التى لم
تكن بعيدة تماما عن اثاره الريبة . وتمثر الرجلان ، وبدا الشرطى
كأنه يفتح فمه ، فجذب ك الرجلين الى امام . وكثيرا ما تلفت
حواليه باحتراس لينظر ما اذا كان الشرطى يتفقبهم ، فلما بعدوا
عن الشرطى وانعطفوا ، بدأ ك يعدو ، وكان على الرجلين أن يجريا
معه رغم ما سببه الجرى لهما من ضيق شديد فى التنفس .

وهكذا خرجوا بسرعة من المدينة ، التي كانت فى هذه الناحية تتصل بالحقول مباشرة دون ما فاصل . وكان هناك محجر مهجور خرب على مقربة من بيت على هيئة بيوت المدينة تماما . هنا توقف الرجلان ، اما لان هذا المكان كان هدفهما منذ البداية واما لانهما قد خارت قواهما فلم يعودا يستطيعان الاستمرار فى الجرى . . وتركا لك ، فوق صامتا كالآخرس . . وعلما بقبعتهما الاسطوانيتين وجففا عرقهما من جبينهما بمناديل ، وتطلعا اثناء ذلك حواليهما فى المحجر . كان ضوء القمر يغطى كل شئ بمسحة طبيعية وهدوء لم يؤتهما ضوء آخر .

وبعد ان تبادلوا عبارات مهذبة تدور حول من الذى يبدأ بالاجراءات التالية - ويبدو ان الرجلين تلقيا المهام التى كلفا بها دون تقسيم - ذهب أحدهما الى ك وخلع عنه ثوبه وصديريته وقميصه . وارتعش ك تلقائيا ، فربت الرجل على ظهره وبسة رفيقة مهذبة . ثم طبق الرجل باهتمام المسلايس التى يمكن استعمالها فى أى وقت ، لا ينبغى أن يكون فى القريب العاجل بالضرورة ، وأخذ الرجل ك تحت ذراعه ، حتى لا يتركه معرضا لهواء الليل البادر، وسار به جيئة وذهابا ، بينما انهمك الآخر فى البحث فى المحجر عن مكان مناسب . فلما وجدته ، أشار بيده الى زميله ، فصحب ك الى هناك . كان هذا المكان قريبا من سائط المحجر ، وكان فيه حجر مقطوع . وأقعد الرجلان ك على الأرض واستنداه الى الحجر وجعلا رأسه اعلاه . وظار سلك ك ، على الرغم من الجهد الذى بذلاه ، وعلى الرغم من الاستجابة التى قابلهما ك بها ، مسلكا متكلفا وغير قابل للتصديق ومتسما بالقصر الشديد . ولهذا رجا أحد الرجلين صاحبه ، أن يترك له مهمة ارقاد ك برهة ، ولكن هذا العمل لم يؤد الى تحسين كبير فى مسلكه . وأخيرا ترك الرجلان ك فى وضع ، لم يكن هو أحسن الاوضاع التى كان فى استطاعتها تركه فيها .

ثم فتح أحدهما ثوبه وأخرج من جراب معلق بحزام حول صدره ، سكين جزار طويلة رفيعة ومسنونة من الجانبين ، ورفعها الى أعلى في الضوء للتأكد من حداثتها .
وعادا من جديد الى تبادل العبارات المهذبة المرفقة ، وقدم أحدهما الى الآخر من فوق رأس ك السكين ، فأعاد الآخر السكين الى الأول من فوق رأس ك . وفهم ك تمام الفهم أن واجبه كان يحتم عليه أن يأخذ السكين عندما هامت فوق رأسه من يد الى يد ، ويدسها بيده في قلبه . ولكنه لم يفعل ، وحرك رقبته التي كانت لا تزال حرة طليقة ، ونظر حواليه . لم يكن في مقدوره أن يثبت قيمته بشكل تام كامل ، وأن يحمل عن السلطات عملها كله . لقد كانت مسؤولية هذا الخطأ الأخير تقع على عاتق من جرده من بقية القوة اللازمة لذلك . ووقعت نظراته على الدور الأخير من البيت المجاور للمحجر . وانفجر مصراعا شباك هناك ، بسرعة انتفاضة الضوء ، وتدلى انسان ضعيف رقيق في المكان البعيد المرتفع الى الخارج بدفعة واحدة ، وبسط ذراعيه الى أمام . من كان هذا ؟ هل كان صديقا ؟ انسانا طيبا ؟ واحدا من المشتركين ؟ واحدا أراد المساعدة ؟ هل كانت هناك اعتراضات نسوها ؟ لاشك أنه كانت هناك مثل هذه الاعتراضات . حقيقة أن المنطق لا يتزعزع ، ولكنه لا يقاوم انسانا يريد أن يعيش . أين كان القاضي الذي لم يره ك قط ؟ أين كانت المحكمة العليا التي لم يصل إليها قط ؟ ووقع ك بدنه وفارق بين أصابعه .

وأطبقت على رقبة ك يدا أحد الرجلين ، بينما دس الآخر السكين في قلبه عميقا ، ولفها فيه مرتين . رأى ك بعينين منهارتين كيف استند الرجلان أحدهما الى الآخر ، وجنة الى وجنة ، أمام وجهه ، وراحا يرقبان الفصل . وقال ك : كالكلب ! .

وكانما أراد أن يعيش الخجل بعد مهائنه ؛

المحتويات

الصفحة

٣	مقدمة
١٣	القضية
	الفصل الأول :
	اعتقال - حديث مع السيدة جروباخ - ثم الأنسة
١٤	بورستتر
	الفصل الثاني :
٥٤	التحقيق الأول
	الفصل الثالث :
٧٤	في قاعة الاجتماع الخالية - الطالب - مكاتب المحكمة
	الفصل الرابع :
١٠٦	صديقة الأنسة بورستتر
	الفصل الخامس :
١١٨	الجلاد
	الفصل السادس :
١٢٨	العم - لينى
	الفصل السابع :
١٥٦	محام - رجل صناعة - مضور
	الفصل الثامن :
٢١٧	التاجر بلوك - تنحية المحامى
	الفصل التاسع :
٢٦٠	فى الكنيسة
	الفصل العاشر :
٢٩٠	النهاية

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

رواية القضية من أشهر أعمال كافكا، إن لم تكن أشهر أعماله كلها. والإنسان يحتل من مؤلفات كافكا مكان المركز، أو بعبارة أخرى مؤلفات كافكا عبارة عن محاولة لدراسة الإنسان وسط البيئة ومؤثراتها المختلفة.

ولقد لمس فرانتس كافكا في تحليله وتشريحه للنفس الإنسانية، معتمداً على خبراته الشخصية بصفة أساسية طبعاً، أن الخوف هو أفة الكائن البشري الأولى. والإنسان بطبيعته يعيش مع الآخرين، وهو يحكم على هؤلاء الآخرين، وهم يحكمون عليه أحكاماً صغيرة وكبيرة، لا تنقطع، وتتسم هذه الأحكام بالسرية لأنها متوارية بين خلايا المخ، خلف عظام الجمجمة، لا يستطيع كائن من كان أن ينفذ إليها، وهكذا أصبح كل إنسان معرضاً لمجموعات كبيرة من الأحكام المجهولة يتخذها الآخرون حيال تصرفاته، فلما كان الإنسان بطبيعته متردداً هيباً إلى درجة مرضية، أصبح يحس كأنه مذنب وكأن البيئة بمن فيها تقاضيه وتحاكمه.